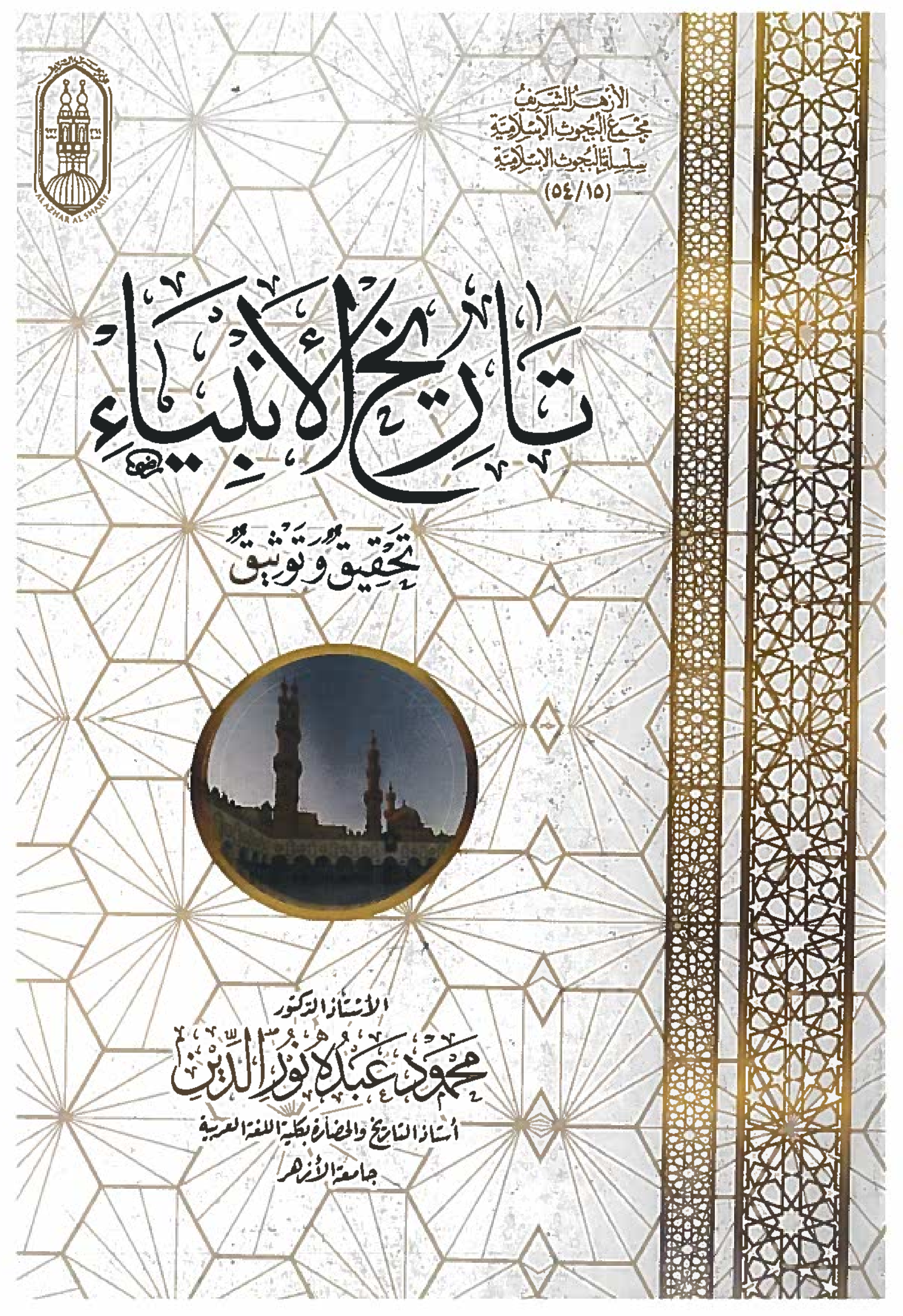
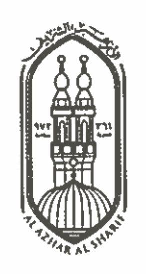

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٤/١٥)
تاريخ الأنبياء
تحقيق وتوثيق
الأستاذ الدكتور
محمود عبده نور الدين
أستاذ التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٤/١٥)





تاريخ الأنبياء

تحقيق وتوثيق

الأستاذ الدكتور
محمود عبده نور الدين
أستاذ التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

السنة الرابعة والخمسون - الكتاب الخامس عشر
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

جمهورية مصر العربية
الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
شارع الطيران ـ مدينة نصر
القاهــرة

فِهرست الهيئة المصريَّة العامَّة
لدار الكُتُب والوثائق القوميَّة

نور الدين، محمود عبده
تاريخ الأنبياء ـ تحقيق وتوثيق

ص ٢٥×١٧,٥ سم
عدد الصفحات: ٣٩٢

١ـ الأنبياء ـ تاريخ.
٢ـ التاريخ الإسلامي.
أ ـ تاريخ الأنبياء ـ تحقيق وتوثيق.
ب ـ العنوان.

❁ الإدارة العامة للمطبوعات
رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٢٥٥٨١
الترقيم الدولي: ٣ ـ ٥٣٣ ـ ٢٠٥ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

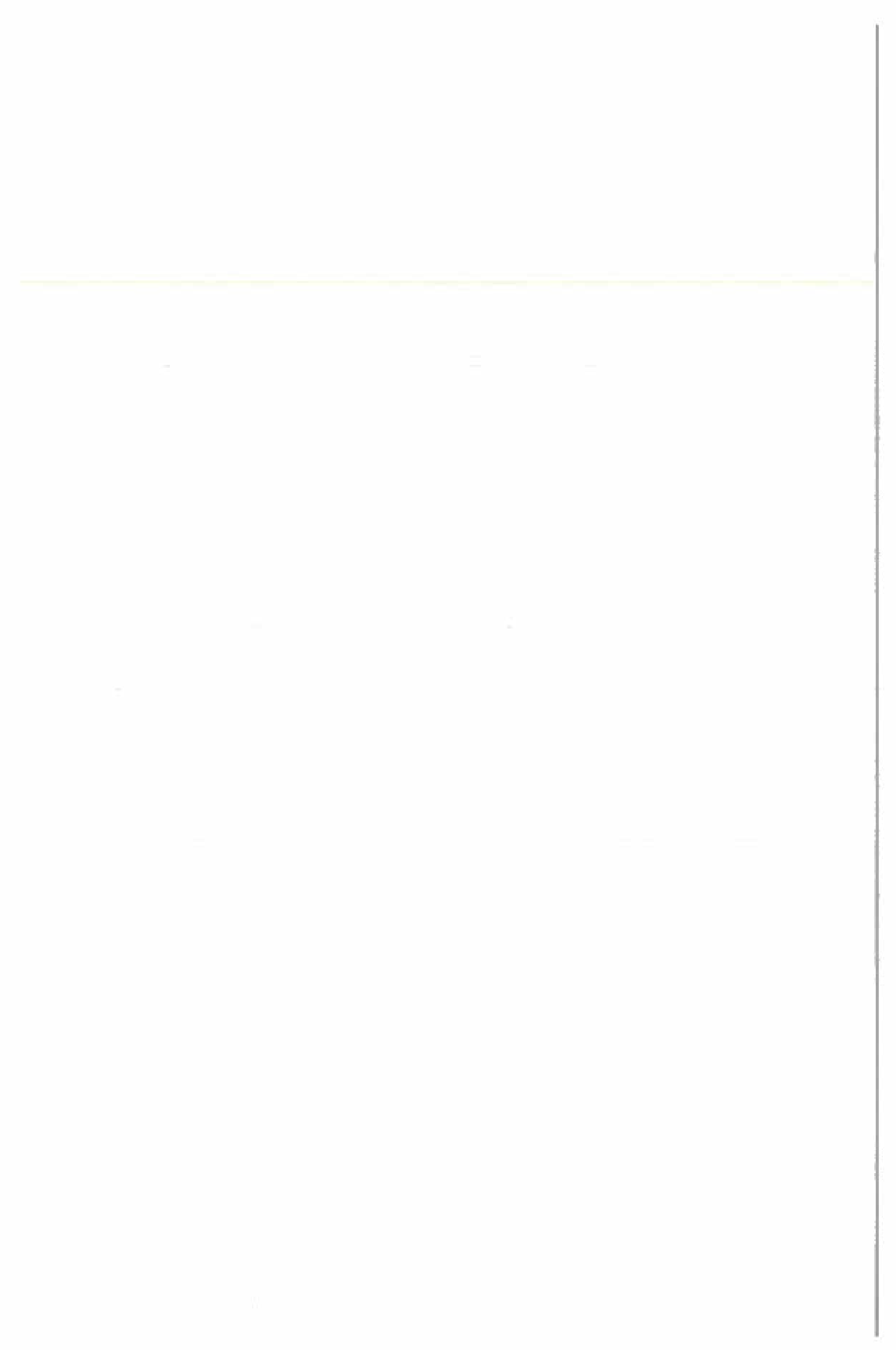
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال النَّبيّ ﷺ: «وَالأنبياء إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، (٤/ ١٦٧/ ح: ٣٤٤٣)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى ﷺ، (٤/ ١٨٣٧/ ح: ٢٣٦٥).



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم

الأستاذ الدكتور نظير محمد عيَّاد

أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمُتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، وأُصلِّي وأُسلِّم على المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه، وبعد،،،

فإن علم التاريخ من العلوم المهمَّة، ذات الفوائد القصوى والمنافع الجمة، التي تعود على الإنسان بفوائد كثيرة، وعلَّة ذلك أنه يجعل من الماضي موضوعًا لدراسته ومحلًّا لبحثه، فيعايش الدَّارس الوقائع والأحداث والنتائج والمآلات، وفق منهجٍ عِلْمِيٍّ يعتمد فيه على الموضوعيَّة ويتحلى بالحياديَّة، وَيَتَأَتَّى له ذلك بعد جمع الوقائع من المصادر الأصيلة، وقراءة أحداث التاريخ قراءة نقدية يقوم بفحصها وتحليلها، فيظهر أمامه الماضي بجميع عناصره وأدواته، مما يمكنه من الاستنتاج الأمثل في التعامل مع الحاضر والإعداد للمستقبل.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة تاريخ الأنبياء والمرسلين؛ نظرًا لما تضمَّنه من أخبارٍ، وما وقع فيه من أحداثٍ؛ تكشف عن معالم بارزة، وجهودٍ واضحة، يمكن الاستفادة منها في جوانب الحياة والمعرفة والفكر للعامَّة والخاصَّة.

فالتَّاريخ مدرسةٌ، والتاريخ منهجُ حياةٍ، «يعرف به نفوس النَّاس وأخلاقهم

وخواطرهم واتجاهاتهم ومواقفهم التي سيتخذونها إزاء الدعوة التي ستتوجه إليهم»[1].

ولهذا جاءت النُّصوص القرآنية داعيةً ومرغبةً في الاستفادة من التَّاريخ ووقائعه وأحداثه، وبَانَ ذلك جليًّا في خطاب الله - تعالى - لنبيِّه ومصطفاه ﷺ، والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود: ١٢٠].

وقال ﷻ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[يوسف: ٣].

وقال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[يوسف: ١١١].

وقال ﷻ: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[الكهف: ١٣].

وقال ﷻ: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[القصص: ٣].

وقال جل في علاه: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[سورة ص: ٦٧ - ٦٩].

---

(١) دعوة الرسل: د/ أحمد غلوش، ص١٢، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

إن قصص تاريخ الأنبياء في القرآن الكريم إخبار عن غيب الماضي، الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، أوحى الله به إلى رسوله محمد ﷺ؛ ليكون منهجًا يتبع، وطريقًا يسلكه الدعاة إلى الله تعالى، وفي الآيات إشارة إلى أن إدراك مضمون هذا القصص لا يكون إلا بوحي الله تعالى[1].

ومن ثم كشف الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ في سيرة إخوانه المرسلين السابقين عليه أن دوام الحال من المحال؛ فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وأخبره أنه لا يصلح عمل المفسدين؛ قال سبحانه: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، وكشف له أن الدائرة تكون على الضالين، وأن حزب الباطل لا يصلح الله عمله، وأنه يقتص منه، وأن الدائرة تدور عليه؛ قال ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٠]، وطمأنه بأن العاقبة للتقوى، وأن جند الحق هم الغالبون: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وأخبره الله - تعالى - بأن القصاص من أهل الباطل سُنة كونية لا تتخلف أبدًا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾

(١) دعوة الرسل: د/ أحمد غلوش، ص١٤.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[غافر: ٨٢ – ٨٥].

فجاءت هذه النماذج التي ساقها الله - تعالى - في كتابه الكريم؛ لتكون موضع تأمل، ومحلَّ اعتبارٍ، وتشجيعًا للصالحين على التمسك بما هم عليه، والتزود منه، ويدفع بالعاصين إلى مراجعة أنفسهم، والعودة إلى ما يحقق لهم السلامة في الدنيا والآخرة.

تلك هي الغاية من مُدَارَسَةِ تاريخ الأنبياء والمرسلين؛ فهم النموذج الأمثل، والمثال الأوفى الذي ينبغي التَّأسي به والاقتداء بمنهجه، فـ: «شخصيات الرسل، ووظيفتهم البلاغية تمثل معلمًا رئيسًا في تاريخ الدعوة؛ لأن الرسول - أي رسول - صناعة ربانية، وصفاته بشرية، مثالية، واقعية؛ ولذلك فهم قدوة للدعاة، وأسوة لهم، على مدار الزمن كله.

وحينما يقدم تاريخ الدعوة صفات الرسل، ومزاياهم الخلقية التي تعاملوا بها مع الناس، ومنهجهم في الدعوة، ووعيهم بحقائق الحياة والأحياء، وصدقهم المخلص مع الله، ومع الرسالة، ومع الناس؛ حينما يفعل ذلك يقدم خدمات جليلة للدعوة في العصر الحديث، وفي كل العصور»[1].

والمطالع لتاريخ الأنبياء يقف على منافع عدة؛ فيعرف كيفية التغلب على الحياة وآلامها، ويدرك آلية مواجهة الصعاب وتحدياتها، وتهيئة الصدور لتلقّي مراد ربها، وإدراك مآلات الأفعال وتداعياتها، ومعرفة طبيعة النفوس وأمراضها،

(١) دعوة الرسل، صـ١٦.

وعلاجها، ومخاطبة العقول على حسب مستوياتها، والتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، فضلًا عن مراعاة الجوانب الإنسانية والطبيعة البشرية. ليس هذا فحسب، بل إن دراسة تاريخ الأنبياء والمرسلين؛ يثبت الأمل في القلوب، فلا يتسرب اليأس إليها؛ فيزداد الإيمان، ويدفع الإنسان إلى الثبات على المبدأ والتمسك بالحق.

ومثل هذه الأمور تجعل من دراسة تاريخ الأنبياء والمرسلين ضرورة حياتية، وبشرية، واقتصادية، وسياسية، وعقلية، ودينية، وأخلاقية، بمعنى آخر: إن تاريخهم يتسع ليشمل الحياة بجميع جوانبها، الأمر الذي يجد فيه الدارس بغيته، ومن ثم كان هذا الكتاب الذي جاء تحت عنوان: **(تاريخ الأنبياء ـ تحقيق وتوثيق)** للأستاذ الدكتور/ محمود عبده نور الدين- الأستاذ في جامعة الأزهر - بغية التعريف بهم، وما لقوه في حياتهم، وقدموه لأقوامهم؛ لنقف على مواطن العِظَة والاعتبار.

إن الذي يتأمل تاريخ أولئك الرُّسل الذين عرض لهم هذا الكتاب يجدهم متَّفقين في أصول ثلاثة: العقائد ـ الشرائع ـ الأخلاق.

على هذه الأصول اتفقت دعوتهم، وقامت كلمتهم، واجتمعت غايتهم، وتوحدت شريعتهم في أصولها، وإن تفاوتت في تفاصيلها وفروعها وأساليبها.

وأول ما يستوقفنا في هذا الكتاب هو ما يتعلق بأبينا آدم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ وقصته التي تضمنت جوانب عدة؛ كمسألة الاستخلاف في الأرض، وتكريم الله له، والصراع الدائم والمستمر بين الخير والشر، والطاعة والمعصية، والعودة والإنَابة إلى الله ﷻ، كلها أمور أكدت عليها دعوة أبينا آدم عليه السلام، التي جاءت نموذجًا لدعوة الأنبياء اللاحقين في أشكال مختلفة،

وصور متعددة، ثم كانت دعوة سيدنا نوح التي جاءت؛ استئنافًا لرسالة أبينا آدم، وكانت حربًا على الظلم والطغيان، ودعوة واضحة إلى الطاعة والتوحيد، والتبشير للطائعين بأنعم الله، والتحذير للعاصين من عقابه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١ – ٤]، والسورة بتمامها عرضٌ واضحٌ لما دار بينه وبينهم، وما آل إليه أمرهم.

ثم نبي الله هود الذي جاء حريصًا على قومه؛ فدعاهم إلى عبادة الله، مُذكِّرًا إياهم بأنعم الله عليهم، الأمر الذي يستوجب الشكر، وإلا وقع عليهم ما وقع على غيرهم[1].

ثم نبي الله صالح الذي جاءت دعوته تأكيدًا على ما قرر في الدعوات السابقة؛ فَحَضَّتْ على الفضيلة، ونهت عن الرذيلة[2]، إلا أنها نبَّهت على أمرٍ مهمٍّ؛ وهو الأخذ على يد الظالم، ومنعه من ظلمه، وإلا سامهم الله العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٢٥].

فإذا انتقلنا إلى خليل الله إبراهيم وجدنا في تاريخ دعوته معالم بارزة؛ تكشف عن دروس مفيدة، وتؤكد على حقائق جَمَّة، قد يكون من أبرزها: بيان علاقته مع رسل الله، والتأكيد على وحدة الدين، وعالمية الرسالة، ونفي الانتساب إلى غير الإسلام؛ لهذا كانت وصيته لأبنائه من بعده، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ

(١) آيات سورة هود: ٥٠: ٥٢، وآيات سورة الشعراء: ١٢٣: ١٤٠.

(٢) آيات سورة الشعراء: ١٤١: ١٥٩.

بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

أما نبي الله لوط فإن المستعرض لتاريخه، والواقف على ما دار بينه وبين قومه؛ ليجد جوابًا شافيًا لمآل هؤلاء الذين انتكسوا عن الفطرة، وتنكبوا الطريق المستقيم، فهبطوا عن مستوى الإنسانية إلى أحط مراتب الحيوانية، واستبدلوا المألوف والمعروف والمقبول بما تأباه الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، وتمجّه النفوس السَّويَّة، وتواترت الشرائع السماوية على رفضه وإنكاره وتحقيره، وذمه وذم فاعليه[1]؛ ولذا كان مآل لوط وَمَنْ اتبعه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف: ٨٢].

أما باقي الأنبياء والمرسلين الذين أخبرنا القرآن عنهم وورد ذكرهم في هذا الكتاب فمعرفة أخبارهم والوقوف على أحوالهم مع أقوامهم؛ لا تخلو من فوائد:

فسيدنا إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام جاء تاريخهم كاشفًا عن سموِّ إيمانٍ، وعلوِّ أخلاقٍ، وصدقِ يقينٍ، ومن ثم جعل الله ـ تعالى ـ النبوة والكتاب في ذريتهم، كما أن ما ورد في القرآن عنهم أوضح انتسابهم إلى الإسلام، وبيان وحدة الدين، وعالمية الرسالة.

أما قصة سيدنا يوسف عليه السلام ففيها من الأحداث التي تكشف عن صراع المرء

(١) آيات سورة الشعراء: ١٦٠: ١٧٥.

في الحياة في سبيل احترامه للقيم الفاضلة والمحافظة على المثل العليا، كما أن فيها ما يكشف عن دور الدين في توجيه الفكر والسلوك الإنساني، ودوره كذلك في الإسهام الحضاري، والبناء العمراني، فضلًا عمَّا يؤديه الاعتصام بالله من مجانبة الإنسانِ لحيلِ الشيطانِ، وألاعيب النُّفوس.

إن ما وقع لسيدنا يوسف لَهُوَ درسٌ عَمَلِيٌّ لشبابنا في كل زمانٍ ومكانٍ؛ إذ توافرت له عليه السلام كل أدوات المعصية وأسبابها ومع هذا استعصم بالله، وترفَّع عنها، وأعلنها واضحة: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[يوسف:٢٣]؛ فكانت النتيجة: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٥٦].

وسيدنا شعيب عليه السلام جاءت دعوته إلى توحيد الله - تعالى - والتحلي بالفضائل؛ وذلك نظرًا لما اشتهر عن قومه من الغِشِّ والتَّدليس، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥].

أما رسل الله إدريس واليسع وإلياس وذا الكفل عليهم السلام فعلى قِلَّةِ ما جاء عنهم في القرآن الكريم إلا أنه يكفي تأكيدًا على فضلهم، وضرورة الاقتداء بهم، ما قصَّه الله علينا عنهم في القرآن الكريم بشأنهم، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام: ٨٤ – ٩٠].

وقال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[مريم: ٥٦ – ٥٨].

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[سورة ص: ٤٨، ٤٩].

أما عن **رسولي الله أيوب ويونس** عليهما السلام فقد تميزا بصدق الإيمان، والصبر على البلاء، والرضا بالمقدور.

أما **قصة سيدنا موسى** عليه السلام فمليئة بالعظَات والعِبَر التي لا يستغني عنها إنسان، ولم لا ؟ وقد جاءت تأكيدًا على التَّوحيد المطلق لله تعالى، ومحاربة للطغيان، رافضة للاستعباد، منكرة للاستبداد، فضلًا عن ما تحدثت عنه من علاقة إيجابية، بين العالم والمتعلم، من خلال قصته مع سيدنا الخضر، وبين الأخ وأخيه، من خلال ما دار بينه وبين سيدنا هارون.

أما **دعوة سيدنا داود وولده سيدنا سليمان** عليهما السلام فهي دعوة إلى التوحيد، ونصرة المظلوم، والقيام بالحق وعلى الحق.

أما **سيدنا زكريا** عليه السلام فقد كانت حياته نعمةَ الحياةِ للعبد الصالح.

ثم كانت دعوة ولدي الخالة **سيدنا عيسى ويحيى** عليهما السلام، وكلاهما يكشف عن عظيم القدرة الإلهية، التي لا يعجزها شيء؛ فولادة يحيى جاءت بعد أن بلغ

زكريا من الكبر عتيًّا، وانقطعت به الآمال، ولكن أنَّى ذلك وكيف؟! قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وأما سيدنا عيسى عليه السلام فقد جاء بلا أب؛ تأكيدًا على تنوع القدرة الإلهية وتمامها؛ فالأمر بيده ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أما عن بعثته عليه السلام فجاءت تأكيدًا على التكامل بين دعوة الأنبياء والمرسلين، وأنه على الرغم من اختلاف أزمنة الأنبياء وتعدد أماكنهم؛ إلا أن دعوتهم حافظت على وحدة الهدف، وسموِّ الغاية، وكمال التطبيق، ورفعة الوجهة، ومرد ذلك كله إلى وحدة المصدر، وهو الله ﷻ؛ ففي الحديث عن النبي ﷺ: «**الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ: دِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى**»(١).

هذا، ومما ينبغي التنبيه عليه أن الكتاب عرَض لأنبياء الله ـ تعالى ـ ورسله، من لدن أبينا آدم حتى سيدنا عيسى ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ؛ حتى إنه تطرَّق إلى بعض الشخصيات التي وقع الخلاف حول نبوتها؛ كسيدنا الخضر عليه السلام، وما دار بينه وبين سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا لقمان الحكيم، كما تطرَّق كذلك إلى بعض الشخصيات التي جاءت نموذجًا للصراع بين الخير والشر في أول وجود للإنسان على وجه الأرض، وذلك من خلال قصة هابيل وقابيل.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٥/ ٣٩٨/ ح:٩٦٣٢).

وقد جاء الكتاب في هذا كله وافيًا في غرضه، تامًّا في مقصوده، إلا أنه لم يذكر رسول الله ﷺ؛ لأنه أفرد دراسة مستقلّةً به.

لذا يَسُرُّ الأمانةُ العامةُ لمجمع البحوث الإسلاميَّة نَشْرَ هذا الكتاب القَيِّم الذي جاء في عبارةٍ واضحةٍ وأسلوبٍ بليغٍ؛ فجزى الله صاحبه خير الجزاء، وجعل ذلك في ميزان حسناته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

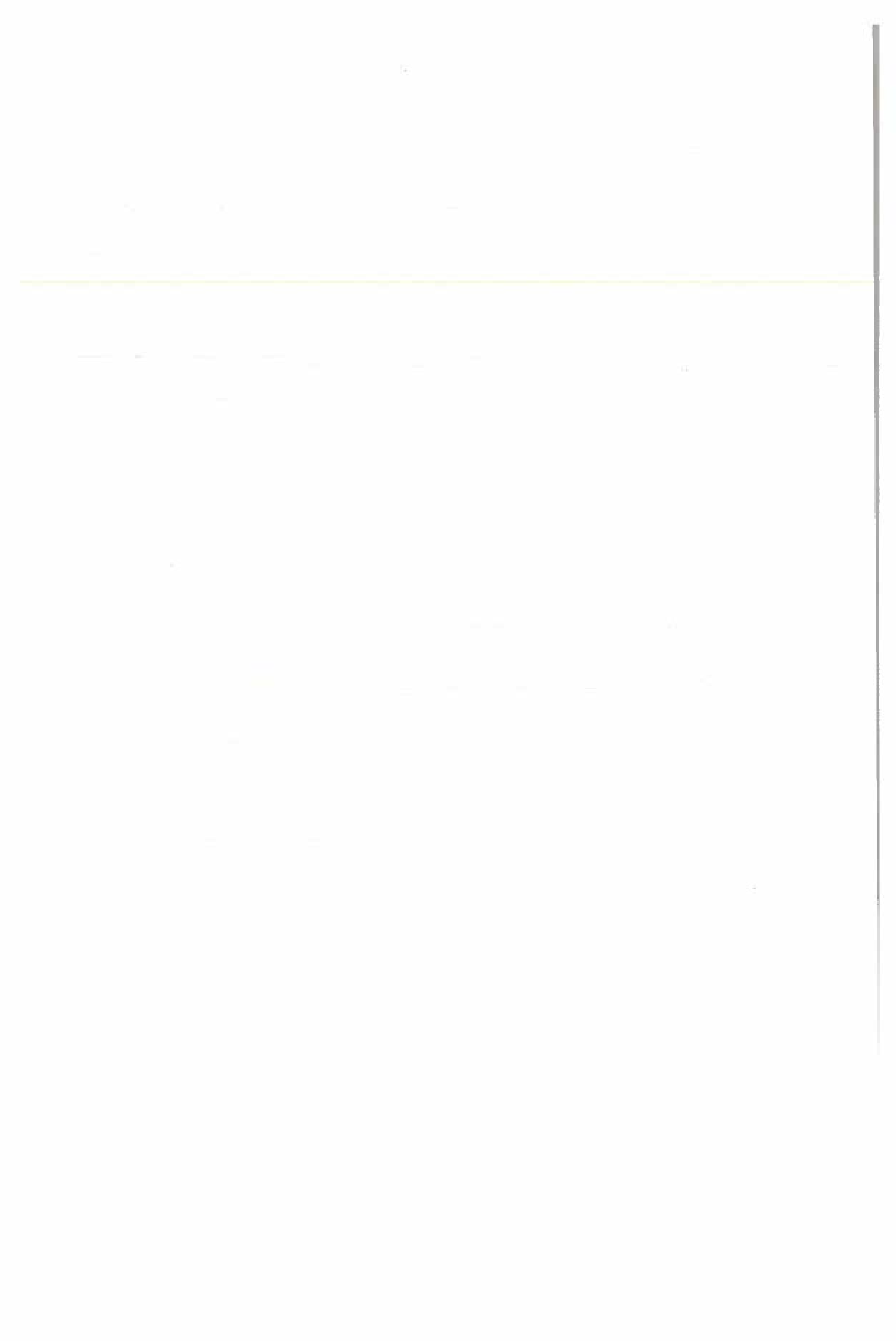
وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د/ نظير محمد عيَّاد

أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

تحريرًا في جمادى الأولى ١٤٤٤هـ / ديسمبر ٢٠٢٢م



مقدمة

الحمد لله رب العالمين الهادي إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

وبعد

فإن تاريخ الأنبياء والرسل هو أثبت الحلقات وأظهرها في صراع الخير مع الشر في التاريخ البشري، تلك الحلقات التي أتى الخير فيها بحججه وآياته، وأدلته ومعجزاته، فأعرض الشر بجحوده وكبريائه، ثم استجاش على الخير بجنوده وقرنائه.

وكان الحوار والجدال، ثم الصراع والنزال، فحق الله الحق بكلماته، فنصر الخير وأظهره، وأزهق الباطل وأضمره، فخسف به تارة، وأغرقه أخرى، وأخذته الرجفة مرة، وفوجئ بالصيحة أخرى .

وقد تخللت هذه المواجهات الدهر كله، منذ آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وتبقى رسالة الأنبياء - في جوهرها ومبادئها - ممثلة في رسالة محمد ﷺ إلى نهاية الدهر.

وقد جاءنا من أنبائها ما فيه مزدجر، حكمة بالغة، فلم تعد تغني النذر، وكانت العبرة لمن اعتبر، والزجر لمن ازدجر، ومن لم يعتبر ولم يزدجر فالنار موعده، والنار أدهى وأمر.

وحلقات الأنبياء والرسل وأقوامهم وأحوال عصورهم هي الحلقات الأظهر والأشهر في معظم عصور التاريخ البعيد - على الأقل؛ لأن أخبارهم قُصت

لنا بأحسن القصص، ومن خلال أبعادها الجوهرية ومقاصدها الإنسانية، ودروسها التاريخية، من خلال مَنْ خلقهم والعالِم بهم وبأحوالهم ومصائرهم ﷺ، في أوثق وأصدق مكتوب ومنشور على مر العصور والدهور.

حيث تفردت النصوص المقدسة بجُلّ هذا التاريخ -على الأقل، مع قليل مما صح من النصوص الأخرى.

وفي الإسلام كانت نصوص القرآن الكريم وما صح من السنة هي المصدر الأساس، والمورد الأهم في كل ما يتصل برسل الله وأنبيَّائه، كما جاءت أقول المفسرين وشراح المحدثين لبيان وتفصيل ما جاء في نصوص القرآن الكريم وصحيح السنة من أخبار عن رسل الله وأنبيَّائه، وحال أقوامهم، وصور الصراع بين الحق والباطل.

وهناك العهدان القديم والجديد كمورد للمعلومات عن الأنبياء والرسل وأقوامهم وأحوال عصورهم، وهذا المورد مصدر أساس عند أصحابه، وقد يُستأنس ببعض نصوصه عند غيرهم، أو يؤخذ منه ما صح ووافق العقل والمنطق وعصمة الأنبياء والرسل، واتسق مع غيرها من المصادر الصحيحة عند الآخرين.

والحقيقة أن تاريخ الأنبياء والرسل اشتمل على عدة إشكاليات تختلف طبيعتها، وتتباين آثارها وأبعادها، وتختلف المصادر في معالجة تلك الإشكاليات، فبينما نجد المنهج الإسلامي ينتهج نهجًا يُستمد من المنقول، ويتسق مع المعقول، ويعلي للأنبياء والرسل مكانتهم، ويحفظ عليهم عصمتهم، تذهب اتجاهات أخرى إلى عدم اعتبار لتلك الأسس الحاكمة في تاريخ الأنبياء والرسل وسيرهم وأحوالهم، بل إن بعضها يصور بعض هذه الإشكاليات -وحتى الأحوال العادية - في صورة تحكَّم فيها الخيال الجامح، والهوى الشارد، بعيدًا عن

أي اعتبار منطقي أو اتساق عقلي، فضلًا عن الإطار الديني، والتقدير الخلقي والأدبي لأنبياء الله ورسله.

وقد تداخل مع تاريخ الأنبياء والرسل بعض من اشتهر في التاريخ - صلاحًا أو فسادًا، ممن ذكرهم القرآن الكريم والسنة الصحيحة في عصور الأنبياء، ومن هؤلاء الصلحاء والحكماء الخضر ولقمان، ومن الطغاة والفاسدين قارون؛ فاستلزم السياق ذكر هؤلاء.

ومن الحقائق المحورية في رسالة الأنبياء والرسل:

- وحدة العقيدة، فكل الأنبياء والرسل كانوا يدعون إلى عقيدة واحدة؛ وهي وحدة الألوهية، وإفراد الله بالعبودية، والإيمان بالأنبياء والرسل والكتب المنزلة والملائكة ويوم القيامة والحساب والجنة والنار ...إلخ، وهو ما يجمعه دين الإسلام بمعناه العام، الذي ارتضاه الله للأنبياء والرسل، بل للعالمين إلى قيام الساعة.

- اختلاف الشرائع حسب طبائع الأمم وأحوالها، وظروف المكان وتغير الزمان، فقد كان إبراهيم وإسماعيل وذريتهما مسلمين، وقالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ﴾[البقرة:١٢٨]. و: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

والإسلام هو دين موسى، وبه آمن سحرة فرعون بعد المناظرة معه، وقالوا لفرعون عندما توعدهم بالقتل والصلب: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾[الأعراف:١٢٦]، وهو الدين

الذي أمر به موسى قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[يونس:٨٤].

وهو دين سليمان الذي أمر ملكة سبأ وقومها باعتناقه، فكتب لهم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[النمل:٣٠، ٣١]، فجاءوه مسلمين: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾[النمل:٤٢].

كذلك كان الإسلام دين عيسى وحواريه، وقد أوحى الله إليهم بذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾[المائدة:١١١]، كما أنهم أعلنوا لعيسى ذلك لما أحس الكفر من بعض أصحابه، فإذ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾

[آل عمران:٥٢].

كذلك قال النبي ﷺ: **«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأنبياء إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»**[1].

أما وسائل الرسل والأنبياء في دعوتهم لأقوامهم، فيمكن محورتها في الآتي:

١ـ أسلوب البيان، أي: بيان حقيقة ما عليه أممهم من فساد العقيدة وفساد العمل، وبيان صحة وصلاح العقيدة التي يدعونهم إليها، بما يتوافق مع الفطرة

---

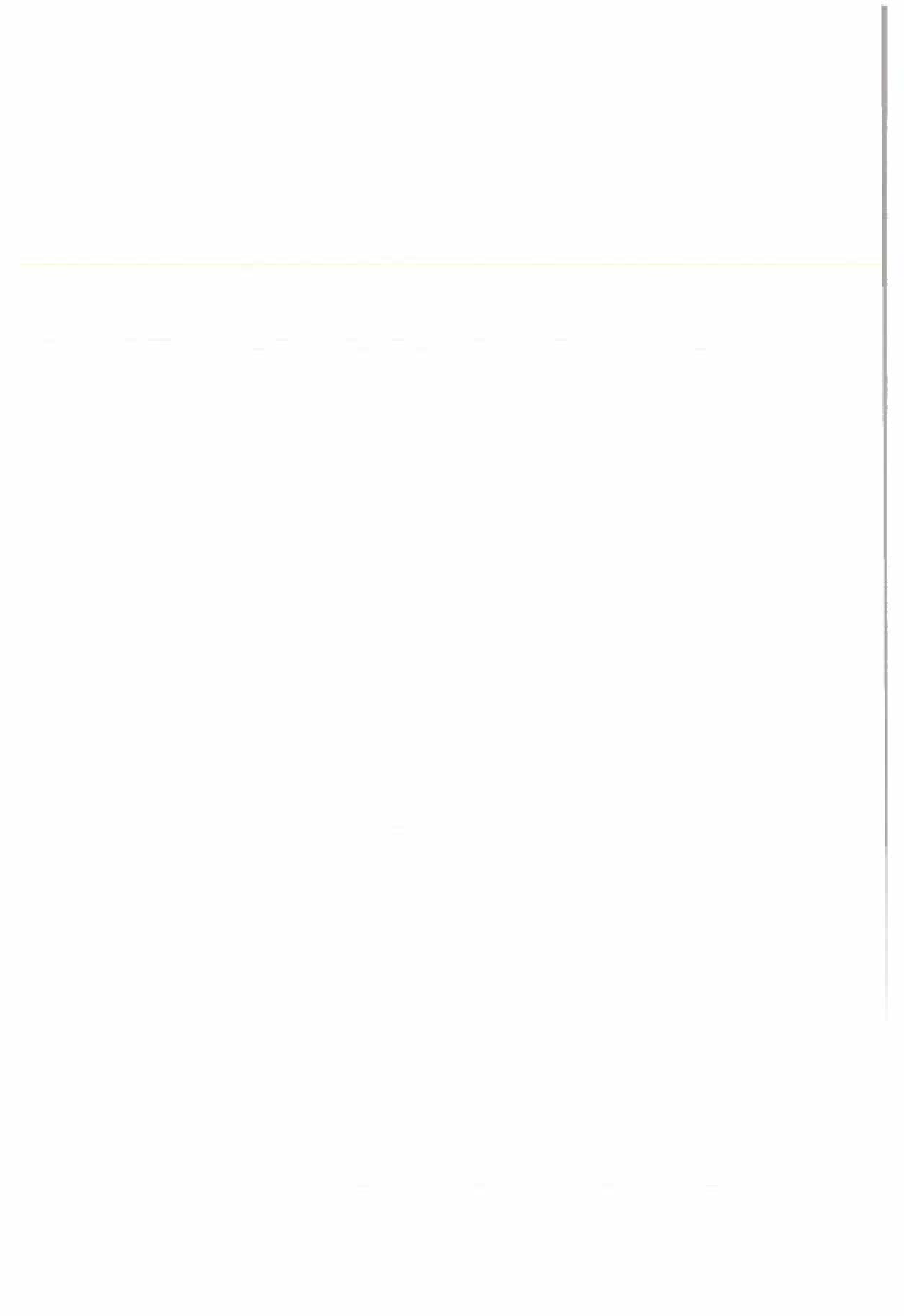
(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾[مريم: ١٦]، (٤/ ١٦٧/ ح:٣٤٤٣)، واللفظ له، دار طوق النجاة، ومسلم في «صحيحه»: كتاب الفضائل، بَابُ: فَضَائِلِ عِيسَى عليه السلام، (٤/ ١٨٣٧/ ح:٢٣٦٥)، دار إحياء التراث العربي، والراوي أبو هريرة.

الإنسانية والطبائع البشرية؛ للوصول إلى صحة عقيدتهم وصلاح أعمالهم وتقويم سلوكهم، وإقامة الحجة على ذلك.

٢ـ أسلوب الترغيب، وذلك من خلال بيان صلاح ما يدعونهم إليه من عقيدة وعمل، وملائمة ذلك للفطرة الإنسانية، وما وعدهم الله به ـ حال إيمانهم ـ من صلاح في الدنيا ونعيم في الآخرة.

٣ـ أسلوب الترهيب والوعيد، حال صدهم وعدم إيمانهم؛ وذلك بعقابهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة، مدللين على ذلك لهم بمصائر أقوام الأنبياء والرسل السابقين.

محمود عبده نور الدين



النبوة والرسالة

بين النَّبيّ والرسول: تباينت آراء العلماء حول كون النبي(*) والرسول بمعنى واحد أو بمعنيين، أي هل ثمة فرق بين النَّبيّ والرسول، وذلك على فريقين:

(*) أثار بعض المستشرقين - أدولف لودز - شبهة حول أصل كلمة «نبي»، زاعمًا أنها عبرية الأصل، وليست عربية، وفي ذلك يقول البعض ردًّا على هذه الشبهة: إن كلمة «نبي» ليست عبرية الأصل، كما يقول أدولف لودز، ومن ثم فإن علماء اللاهوت الأوروبيين وغيرهم، من أمثال جوستاف هولشر وشميدت ولوذر وكلود سوربرى يتفقون على أن كلمة «نبي» عربية، وليست عبرية في شكلها ومعناها، وأن أصل الكلمة سامي قديم موجود في الأكدية بمعنى «يدعو» (Nalu)،غير أن الأمر - كما يقول العقاد - غني عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين، من يفقه منهم اللغة العربية، ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات، فإن وفرة الكلمات التي لا تلتبس بمعنى «النبوة» في اللغة العربية؛ كالعرافة والكهانة والزجر والرؤية، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائي والنبي، وتاريخ النبوات العربية التي وردت في التوراة سابق لاتخاذ العبرانيين كلمة النَّبيّ بدلًا من كلمة الرائي والناظر، وتلمذة موسى للنبي شُعيب مذكورة في التوراة قبل سائر النبوات الإسرائيلية، وموسى الكليم رائد النبوة الكبرى بين بني إسرائيل، ثم إن كلمة النَّبيّ عربية لفظًا ومعنى، عربية لفظًا لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى؛ فهي تجمع معاني الكشف والوحي والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير، وهي معانٍ متفرقة تؤديها في اللغات الحديثة كلمات متعددة، فالكشف مثلًا تؤديه في اللغة الإنجليزية كلمة: (Revelation)، والوحي: (Inspiration) واستطلاع الغيب تؤديه كلمة: (Divination) أو (Oracle)، ولا تجتمع كلها في معنى النبوة؛ كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية، وقد وجدت كلمة «النبوة» في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر؛ لأن اللغة العربية غنية بكلمات العرافة والعيافة والكهانة... وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة، كما تلتبس في الألسنة الأخرى عن أصل التسمية واشتقاق المعاني الجديدة عن الألفاظ القديمة؛ فكلمة «النبي» تدل على معنى واحد لا تدل على غيره، خلافًا لأمثالها من الكلمات في كثير من اللغات. وقد استعار العبريون كلمة «النبي» من العرب في شمال شبه الجزيرة العربية بعد اتصالهم بها؛ لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بـ: «الآباء»، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم: الرائي أو الناظر، ولم يفهموا من كلمة «النبوة» في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار، وأما كلمة (prophet) الإنجليزية، وكلمة (prophete) الفرنسية وغيرهما، فإنها منقولة عن اليونانية القديمة، ذلك أن الأمم التي كانت تشيع فيها نبوة الجذب =

الأول : يرى أن هناك فرقًا بين النَّبيّ والرسول .

الثاني : يرى أنه لا يوجد فرق بينهما .

الفريق الأول[1]: يعرّف هذا الفريق من العلماء الرسول بأنه من أرسله الله بشرع وأمره بتبليغه. وأن النَّبيّ من أرسله الله بشرع ولم يأمره بتبليغه .

ومن هذا الفريق أيضًا من يرى أن الرسول إنما هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو إليه الناس، أما النَّبيّ فهو من بعثه لتقرير شرع سابق؛ كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام.

واتجاه ثالث من هذا الفريق يذهب إلى أن الرسول من أُوحي إليه بشرع وأنزل عليه كتاب؛ كإبراهيم وموسى وداود وعيسى ومحمد عليهم السلام، والنبي الذي ليس برسول هو من أوحي إليه بشرع ولم ينزل عليه كتاب؛ كإسماعيل وشعيب ويونس ولوط وزكريا.

=يكثر أن يكون مع المجذوب مفسر يدعي العلم بمغزى كلامه ولحن رموزه وإشارته، وقد كان من اليونان من يسمون المجذوب «مانتي» (Manti) ويسمون المفسر (بروفيت prophet) أي: المتكلم عن غيره، ومن هذه الكلمة نقل الأوروبيون كلمة «النبوة» بجميع معانيها، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية (٢) مصر، ص ١١ ـ١٣، دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ـ ١٩٩٥م).

(١) ابن تيمية: كتاب النبوات، دار العلم ـ بيروت ـ بدون تاريخ الطبع، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٩، والشعراوي، قصص الأنبياء، (٢/ ١٢٦٤)، وعز الدين بليق: نبوة آدم ورسالته بين الظنة واليقين، دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١٨، ومحمد بيومي مهران: دراسات تاريخية (٢) مصر، ص ١٣ وما بعدها، وقد ذكر الآلوسي التعريفات المتعددة لكل من النَّبيّ والرسول عند أصحابها ثم انتهى إلى القول بأنه «لا بُدَّ لتحقيق المقابلة أن يراد بالرسول من بعث بشرع جديد وبالنبي من بعث بتقرير شرع من قبله، أو يراد بالرسول من بعث بكتاب وبالنبي من بعث بغير كتاب، أو يراد نحو ذلك مما يحصل به المقابلة مع تعليق الإرسال بهما»، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ بدون تاريخ الطبع، (١٧/ ١٧٢، ١٧٣).

ومن هذا الفريق القاضي عياض، والطحاوي، وابن حزم، والآلوسي، والشعراوي، وغيرهم، وهكذا يقرر هذا الفريق أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول.

أما الطحاوي فيذهب إلى أن الرسول أخص من النبي، وأن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة؛ إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل؛ فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس؛ فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها.

ويرى بعض هذا الفريق أن النَّبيّ ﷺ هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأه الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يُرسل إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول؛ فالأنبياء ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخير والأمر والنهي، وهو يرى في ذلك توافقًا مع قول الرسول ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»، أما الرسل فترسل إلى المخالفين، مثل: إرسالهم إلى الكفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

كما يرى أن الرسول ليس من شرطه أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولًا وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة، وعنده النَّبيّ مرسل والرسول مرسل؛ لأن الإرسال اسم عام يتناول إرسال الملائكة وإرسال الرياح وإرسال الشياطين وغير ذلك، كما في قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج:٧٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]، وقوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم:٨٣][1].

---

(١) ابن تيمية: كتاب النبوات، ص٢٢٥ـ٢٢٩.

ويذكر أحد المفسرين أن الرسول هو من أُوحي إليه بشرع يعمل به ويؤمر بتبليغه، والنبي أوحي إليه بشرع يعمل به ولم يؤمر بتبليغه، فكل رسول لا بُدَّ أن يكون نبيًّا، وليس كل نبي لا بُدَّ أن يكون رسولًا؛ لأن النَّبيّ يعيش على منهج الرسول الذي عاصره أو سبقه، ثم يعطيه الله أشياء تُعدُّ خصوصية له[1].

أدلة هذا الفريق: تتركز أدلة هذا الفريق في مجيء ذكر النَّبيّ والرسول معًا في القرآن الكريم، أحيانًا بالجمع، وأحيانًا بالعطف، واختلاف الاسم يدل على اختلاف المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[الحج:٥٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[مريم:٥١]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[مريم:٥٤]، وكذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ من أن عدد الأنبياء يختلف عن عدد الرسل.

الفريق الثاني[*]: وهو من لا يفرق بين النَّبيّ والرسول، وأن كل نبي رسول، وكل رسول نبي، ويستدل هذا الفريق بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[الحج:٥٢]؛ حيث تعلق الإرسال بالنبي، كما تعلق بالرسول، ولمَّا تعلق به الإرسال صار مأمورًا بالتبليغ، كما أن العقل لا يستسيغ أن يوحي الله ﷻ إلى النَّبيّ بشرع ثم لا يأمره بتبليغه؛ لأن الشرع أمانة وعلم، وأداء الأمانة واجب، وكتمان العلم نقص ورذيلة .

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، مكتبة التراث الإسلامي - مصر - ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (٢/ ١٢٦٤).
(*) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، بدون بيانات الطبع، ص١٤ - ١٦.

أما ما ذُكِرَ من كون الرسول نزل معه كتاب، والنبي لم ينزل معه كتاب، فقد رأى هذا الفريق أن هناك من الأنبياء من وصفوا بالرسالة ولم تنزل عليهم كتب، مثل إسماعيل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[مريم:٥٤]، وكذلك نوح عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:٥٩]، ويونس عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٣٩]، وقد استدل بعض من ذهب إلى هذا الرأي من العلماء إلى عدد من الآيات التي تسمي المبعوثين إلى الأمم السابقة جميعًا رسلًا[1].

عدد الرسل والأنبياء:

ليس ثمة يقين بعدد كل من الرسل والأنبياء؛ لأنه لم يوجد نص قرآني، أو نبوي صحيح يحصي هذا العدد[2]، بل إن القرآن الكريم قد جاء بما يفيد عكس

(١) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص١٤-١٦.

(٢) هناك بعض الروايات التي نسبت إليه ﷺ والتي تحدد عدد الأنبياء والرسل، منها رواية أبي ذر التي قال فيها: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمِ النَّبِيُّونَ؟ قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نبيٍّ» قُلْتُ: كَمِ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ»، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت-١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، (٢/ ٦٥٢/ ح:٤١٦٦)، قال الذهبي: السعدي-أحد رواته-ليس بثقة، وابن الجوزي: تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، مكتبة الآداب-القاهرة-بدون تاريخ الطبع، ص٣، وقد جاء الحديث مطولًا فيما ذكره ابن كثير -في التفسير- مع نقده لهذا الحديث، إذ قال: «روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم ابن حبان البستي في كتابه «الأنواع والتقاسيم»، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج ابن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه «الموضوعات»، واتَّهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، (تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (٢/ ٤٧٠).

ذلك، أي إن هناك من لم يقصصهم ربنا على النبي ﷺ وبالتالي لم نعرفهم، كما في قوله ﷻ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر:٧٨].

ولكن القرآن الكريم نص على عدد منهم، بلغ خمسة وعشرين [٢٥] نبيًا ورسولًا وهم: آدم [على الأرجح] وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وذو الكفل وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

وقد جاء ذكر هؤلاء الأنبياء والرسل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها موضع [الأنعام] الذي جمع ثمانية عشر [١٨] نبيًا ورسولًا منهم؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وإدريس وذو الكفل جاءا في قوله ﷻ: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنبياء:٨٥]، وهود وصالح وشعيب جاءوا في مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[الأعراف:٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف:٨٥]، وآدم أولهم، كما جاء في حديث النبي، ومحمد ﷺ خاتمهم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب:٤٠]

أما في السُّنَّة، فثمة رواية عن النَّبيِّ ﷺ تذكر أنه حدد عدد الرسل بثلاث مائة وخمسة عشر رسولًا؛ حيث سأله رجل قائلًا: أنبيًّا كَانَ آدَمُ؟ فقَالَ ﷺ: **«نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ»** قَالَ: كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: **«عَشْرُ قُرُونٍ»** قَالَ: كَمْ بَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: **«عَشْرُ قُرُونٍ»**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ كَانَتِ الرُّسُلُ؟ قَالَ: **«ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسَ عَشْرَةَ جَمًّا غَفِيرًا»**[1].

وعلى صحة هذه الرواية يكون المقصود من قوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر:٧٨] أن القص المقصود في الآية الكريمة هو ذكر قصص النَّبيِّ أو الرسول ـ إيجازًا أو إطنابا ـ وليس المقصود عددهم.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين»، (٢/ ٢٨٨/ ح:٣٠٣٩)، وقد صححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم، أما الراوي فهو أبو أمامة، وفي رواية أخرى، سأل أبو ذر رسول الله ﷺ قائلًا: يَا رَسُولَ اللهِ، أي الأنبياء كَانَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «آدَمُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَنبي كَانَ؟ قَالَ: «نَعَمْ نبي مُكَلَّمٌ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمِ الْمُرْسَلُونَ؟ قَالَ: «ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا»، وَقَالَ مَرَّةً: «خَمْسَةَ عَشَرَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آدَمُ أنبي كَانَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، نبي مُكَلَّمٌ»، أحمد في «مسنده»، تحقيق: شُعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، (٣٥/ ٤٣٢/ ح:٢١٥٤٧)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد ـ أحد رواته.

ضرورة النبوة للمجتمع الإنساني

اقتضت حكمة الله ﷻ أن يجعل خليفة له في أرضه، وأعلم ﷻ ذلك لملائكته، وعلى الرغم من أن الملائكة ظنوا أن هذا الخليفة من شأنه الإفساد في الأرض وسفك الدماء لكنه ﷻ أخبرهم أنه يعلم ما لا يعلمون، وعلِمَ الملائكةُ حكمة الله في هذا الخليفة، فقد تعلم من ربه ما لم يعلمه الملائكة، فسجدوا له بأمر ربهم، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤].

وآدم هو الخليفة الذي استخلفه الله في الأرض وذريته من بعده، وهو مخلوق ليعمرها ويعيش فيها ويتلقى المنهج من الله في «التكليف»، ولكن هل تُرك آدم هكذا دون أن يوجد من يحاول أن يفسد عليه منهج الله ؟ لا، فقد جاء الشيطان ليفسد منهج الله في نفس آدم، فيزين له أن يفعل ما نهاه الله عنه، وألا يفعل ما أمره الله به، والله يريد لخليفته في الأرض أن يتبع منهجه حتى يسعد في الدنيا والآخرة؛ ولذلك كان لابد أن يتم تدريب آدم بالتجربة العملية على ما سيحدث له إذا أطاع المنهج، وما سيحدث إذا عصاه، كان لا بُدَّ أن يتلقى آدم تدريبًا عمليًا في «افعل ولا تفعل»، فالمنهج لا بُدَّ أن تأتي معه التجربة حتى يكون التطبيق صحيحًا، وهكذا استخلف الله آدم ومنحه كل مقومات الحياة في مكان أوجد له فيه كل ما يحتاج إليه من طعام وشراب ونِعَم، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ﴾[طه:١١٨]، وأطلق على هذا المكان لفظ جنة، وحذر الله ﷻ آدم من عدوه وهو إبليس، إذ قال ﷻ: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾[طه:١١٧]؛ ذلك أن عداوة إبليس ثابتة بامتناعه عن تنفيذ أمر السجود لآدم ، ثم بعد ذلك بما أظهره من نواياه وتحديه لخالقه ﷻ بإضلال آدم وذريته من بعده: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ

صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف:١٦]. والجنة التي عاش فيها آدم ليست هي جنة الخلد؛ لأن الحياة في جنة الخلد لا تأتي إلا بعد التكليف، فهي جزاء لاتباع منهج الله، وليست سابقة على هذا المنهج، كما أن جنة الآخرة ـ وهي جنة الخلد ـ من يدخلها لا يخرج منها أبدًا، وآدم مخلوق للأرض[1].

وهكذا أدخل الله ﷻ آدم وزوجه هذا المكان المُعد بكل وسائل الإعداد المادي، والمعنوي وأمرهما ونهاهما، وعرفهما بعداء الشيطان لهما، ولكن الشيطان وسوس لهما وزين لهما فعل ما أُمرا بتركه: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف:٢١]، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[طه:١٢١].

ونتيجة للاستجابة لغاوية الشيطان وعصيان الرحمن طُرِدَ آدم وزوجه وإبليس من الجنة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٣٨]، والهدى هو المنهج الإلهي الذي اقتضته الحكمة الإلهية لهداية البشر؛ وهذا المنهج يتمثل في صورتين: الفطرة والدين.

الفطرة[*]: أما الفطرة فهي خطة يدرك بها البشر القواعد العامة ـ على الأقل ـ في علاقتهم بخالقهم، وفيما بينهم من قواعد ومبادئ التعامل، وهي تعني الدين القيم، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ١٠٠ ـ ١٠٢)، بإيجاز.

(*) محمود عبده: أسس تفسير التاريخ في القرآن الكريم، دكتوراه، قسم التاريخ والحضارة ـ كلية اللغة العربية بأسيوط، ٢٠٠٣م، ص١٩٤.

الدين(*): أما الدين فهو منهج يختلف قليلًا عن الفطرة في وسيلتها وتقنينها، فمن حيث الوسيلة لا يكون الدين إلا برسول أو نبي ووحي وكتب أو صحف .. إلخ بعكس الفطرة، ومن حيث التقنين يُنَظِّمُ الدين صور ومناهج العلاقات بين البشر وخالقهم وبيئتهم وبعضهم البعض ومآلهم ... إلخ، ويقنن الدين شريعة ومنهاجًا لكل أمة من الأمم نزل فيها، تتفق مع طبيعتها، وتتسق مع ظروفها، وتتناسب مع أحوالها.

وهذه الخطة - بصورتيه الفطرة والدين - يدخل في إطار «الهدى» الذي وعده الله لآدم وذريته من بعده عند نقطة البداية في هذا التاريخ البشري: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه:١٢٣]، ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٣٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

ومن رحمة الله بعباده أنه ﷻ لم يجعل عقوبة لمن خالف الفطرة السليمة وما تهدي إليه قبل إرسال الرسل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وبعد إرسال الرسل يعاقب من خالف الدين، ولم يلتزم بأوامره ويجتنب نواهيه .

الفطرة(**):

تُعدُّ الفطرة أحد أبرز القوانين الإلهية العامة التي انتظمت البشرية كافة،

(*) محمود عبده: أسس تفسير التاريخ في القرآن الكريم، ص ١٩٤، ١٩٥.

(**) محمود عبده: السابق، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

وكانت الجزء الأساس من الخطة الإلهية التي استهدفت هداية البشرية؛ فهي المقياس والمعيار ـ لا سيما بعد تأكيد وتقنين الدين والشريعة ـ للخير والشر طوال حياة الإنسان ـ ما لم تتغير، ومن ثم فقد وصفت الفطرة بأنها الدين القيم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠].

وقد أكدت النصوص النبوية الشريفة هذه الفطرة، وزادتها تفصيلًا، فقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»(١)، ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وروى رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ قوله: «**إِنِّي خَلَقْتُ عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»(٢)، وعندما سأل النواس بن سمعان رسول الله ﷺ عن البر والإثم قال ﷺ: «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»(٣).

وعلى ذلك فإن الفطرة تكون جزءًا طبيعيًّا من التكوين النفسي والقلبي والعقلي للإنسان، مخلوق معه، أما الدين فهو المنهج المفصل والمقنن لكل أمة

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، (٢/ ٩٤/ ح:١٣٥٨)، ومسلم في «صحيحه»، (٤/ ٢٠٤٧/ ح:٢٦٥٨).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، (٤/ ٢١٩٧/ ح:٢٨٦٥).
(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه»، باب تفسير البر والإثم، (٤/ ١٩٨٠/ ح:٢٥٥٣).

حسب ظروفها وأحوالها، وهو الذي يحمله رسل اختارهم الله بحكمته ورعايته من بني البشر؛ ليبلغوهم هذا المنهج، بما يشتمل من الأوامر والنواهي، وما يؤول إليه من ثواب وعقاب: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام:١٢٤].

وهكذا فإن مهمة الأنبياء والرسل هي حمل هذا المنهج وتبليغه، ومباشرة ذلك بين أقوامهم . ومن خلال التعرف على هذا المنهج وما يحمله تتجلى بوضوح ضرورة النبوة ـ حاملة هذا المنهج ـ للمجتمع الإنساني وهدايته وصلاحه.

الديـــن

رسالة الأنبياء والرسل إلى أقوامهم

المفهوم(*):

اشتهر الدين عند المفكرين المسلمين بأنه: «وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل»، ولُخِّص

(*) يُعدُّ كتاب «الدين» لمؤلفه محمد عبد الله دراز من أبرز ما كتب حديثًا في هذا الموضوع، وقد طوَّف المؤلف بلفظ الدين في معاجم اللغة، وعند بعض العلماء، ثم أورد أربعة عشر تعريفًا للدين عند الغربيين، وقد حاول المؤلف أن يصوغ تعريفًا يضم الحد التام للدين، فعرفه من ناحية كونه حالة نفسية ـ بمعنى التدين ـ بأنه: «الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة» ومن ناحية كونه حقيقة خارجية: هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، «وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها»، دار القلم ـ الكويت ـ ص٥٢.

وقد ذكر البعض أن المراد بالملة هي الشريعة أو الدين، كملة الإسلام والنصرانية واليهودية، بمعنى أن الملل تنطبق على الأديان المنزلة، وذكر قول الراغب الأصفهاني: الملة كالدين، وهو اسم لما شرع الله ﷻ لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا للنبي ﷺ الذي تسند إليه، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٣]، ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، (محمود علي حماية: ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٨٣، ص١٠٣).

وقد عرَّف أحد المعاجم الملة بأنها الدين، حقًا كان أو باطلًا، وأصل الملة الطريق المسلوكة والسنة، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (٢/ ٤٦٥).

والنصوص القرآنية التي ورد فيها لفظ الملة مفردًا أو مضافًا لم تحدد له أوصافًا أو أركانًا أو شروطًا، مما يقربه كثيرًا من لفظ الدين، إن لم يتطابقا تطابقًا شبه تام، وسياقات هذه النصوص تُجلّي هذا التطابق، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النساء:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٣].

بأنه: «وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات»[1].

أما عند الغربيين فلعل أقرب تعريف إلى معنى الدين - من بين ما اشتهر من تعريفات - تعريف ميشيل مابير في كتاب «تعاليم خلقية ودينية»، الذي يقول فيه: إن «الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله، ومع الناس، وفي حق أنفسنا»[2].

والدين في حقيقته - كما يقول أحد العلماء المعاصرين - ليس إلا كمالًا لمشاعر الإنسان وتصميمًا لمواهبه، فهو عقل يحسن التفكير، وعين تحسن النظر، وأذن تحسن السمع، ويد تحسن العمل، والمؤمن على هذا إنسان ناضج الفهم، والتأمل والحكم على الأمور، إنسان جيد الإنتاج والآثار والتصرفات.

فإذا اضطربت هذه المعاني في نفسه اضطرب معها مصدر الإيمان في قلبه ولبه، وتقلصت معها حقيقة إنسانيته، ولا تزال طوائف من الناس تفقد إيمانها وإنسانيتها معًا؛ حتى تدمغ بوصف القرآن لها: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[الأنفال:٢٢]، والمرء يستحيل دابة يوم يموت فيه عقله المفكر، وترتكز فيه مشاعر اليقظة، فيصبح غير مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده؛ لأنه ليس له من ذلك إلا ما للحيوان السائم، حواس مسخرة في أغراض الحياة الدنيا فقط[3].

(١) محمد عبد الله دراز: الدين، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦ .

(٣) محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، دار الريان للتراث - القاهرة - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص١٩٠.

والمعني بالدين هنا الخلاصة التي اشتركت كافة الديانات في تقريرها، وعملت الرسالات المتعاقبة على إبلاغها، ثم جاء القرآن الكريم فأفرغها في صيغتها الأخيرة، وأعطاها صبغتها النهائية، وربطها بفطرة النفس السليمة، والعقل الرشيد، ووجه قلب الإنسان ولبه إليها، عندما قال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٣٠][1].

الدين في القرآن الكريم:

يمكن تتبع معنى الدين الذي ارتضاه الله وفرضه على عباده قاطبة من خلال النصوص الآتية:

- قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩].

- وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

- وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النساء:١٢٥].

- وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣].

وهكذا، فإن اتباع المعنى العام هنا يبدو ضروريًا، إذ لا يمكن أن يفسر

(١) محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص ٢٠.

الإسلام هنا على أنه اسم لرسالة محمد ﷺ فقط دون غيره من الأنبياء السابقين، بل على أنه الدين الذي جاء به هؤلاء الأنبياء جميعًا من لدن آدم حتى محمد ﷺ، وهذا ما تقتضيه تلك النصوص القرآنية، ففي الآية الثانية ـ مثلًا ـ لو اقتصر لفظ الإسلام في الآية على رسالة محمد ﷺ لحكمنا بعدم قبول الله غيرَ هذا الدين من السابقين على رسالة محمد، مع صحة ثبوت هذا الحكم على اللاحقين إلى يوم القيامة. ثم تأتي الآية الثالثة لتفصل لنا ـ بعض الشيء ـ ما أجملته الآيتان السابقتان في معنى الإسلام، مؤكدة صيغة عموم اللفظ في هاتين الآيتين.

ويزيد أحد أئمة التفسير هذا التفصيل إذ يقول: إن الدين الإسلامي مبني على أمرين: الاعتقاد والعمل؛ أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ وذلك لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع، والوجه أحسن أعضاء الإنسان، فالإنسان إذا عرف ربه بقلبه وأقر بربوبيته وبعبودية نفسه له فقد أسلم وجهه لله[1].

وأما العمل فإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات، فتأمل ـ كما يقول المفسر ـ في هذه اللفظة المختصرة واحتوائها جميع المقاصد والأغراض، وأيضًا قوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أسلم نفسه لله، وما أسلم لغير الله[2].

وتأتي الآية الرابعة لتؤكد عمومية الدين في النصوص السابقة عليها، وتزيد الأمر تفصيلًا وتعيينًا؛ فكل ما أوحي إلى محمد ﷺ وما وصى به ﷻ نوحًا وإبراهيم وعيسى من قَبل هو من الدين، وهذا يدخل فيه ما وصى به ﷻ الأنبياء

(١) الرازي: مفاتيح الغيب، (١٠/ ٤٦٣).
(٢) المرجع السابق نفسه.

والرسل الآخرين، غير هؤلاء المذكورين ـ تمشيًا مع النصوص السابقة وهؤلاء الخمسة الذين عينتهم هذه الآية هم أشهر رسل الله وأنبيائه جميعًا، ولعل هذا مسوغ التعيين هنا دون غيرهم، وهم الذين عرفوا بـ: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ حيث حملوا رسالاتهم إلى أقوامهم، وبذلوا جهادًا في سبيل تلك الرسالات، مما جعلهم مستهدفين بالقتل والتنكيل من أقوامهم وإن لم يبالوا في سبيل ذلك مآلًا، ولعلهم لاقوا في سبيل دعوتهم ما لم يُلاقه غيرهم من الرسل والأنبياء؛ عناءً وقسوة واضطهادًا ومحاولات للقتل من أقوامهم، فنوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، مذكرًا إيَّاهم بنعم الله لديهم وفضله عليهم، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، حتى ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[هود: ٣٢]، ومحمد ﷺ خاطبه ربه بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء:٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾

[الكهف:٦].

فهذا هو المنهج ـ الدين ـ الذي جاء في خطة الله ﷻ للبشر في مسيرتهم التاريخية والذي رسم لهم فيه صلاح أمرهم في آجلهم وعاجلهم، وخط لهم ما فيه هداهم، وما يوافق فطرتهم التي فطرهم عليها؛ لأنه خالقهم وهو أعلم بما يصلحهم ويفسدهم: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

[الروم:٣٠].

والدين بهذا العموم منهج إلهي للبشر، اتفقت أطره العامة وأركانه وقواعده من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ بل إلى قيام الساعة، ومن أهمها:

١ - توحيد الألوهية، وإفراد الله بالعبودية .

٢- خلق المخلوقات علوية وسفلية .

٣- إثبات الصفات له ﷻ كما وصف بها نفسه.

٤ - إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإحداث المعجزات.

٥ - الموت والحساب، ومبدأ الثواب والعقاب، والجنة والنار.

ومن هذا الدين خَصَّ لكل أمة شرعة ومنهاجًا تتفق في تلك الأطر والأركان، وقد تتباين في فروع وشروح، لتوالي الأزمنة أو تنائي الأمكنة أو اختلاف الظروف .

ضرورة الدين:

في الإطار غير الإسلامي وضع «صان تزو» - على سبيل المثال - على رأس قائمة أسباب نجاح العمل أن يكون «من أجل دخول الجنة»[1]، والإنسان بطبعه أنانيٌّ ينقاد وراء دوافعه المباشرة، وقد أثبتت اختبارات الصفات الشخصية، والتجارب الطبية لعلماء النفس أن الاتجاه في هذا الطريق يؤدي إلى انكماش الشخصية، واضطراب العواطف والأعصاب، والتخبط الفكري، والشقاء وسوء النظام، وأنه لا غنى للمرء عن الدين أو ما يقوم مقامه، على أن يسمو هذا البديل الأخير على مستوى الفرد والجماعات، حتى يتسنى قهر هذه الدوافع الإنسانية وقمعها في الإنسان العادي، وقيادته نحو حياة أكثر خصبًا وأوفر متعة[2].

وفي مجال الدولة أكد «هيجل» على دور الدين في الدولة، واعتبره أساس

(١) يذكر مارتن فان كريفلد أنه أعظم الكتاب في الشئون العسكرية على مدى التاريخ، حرب المستقبل، تحقيق: السيد عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص١٥٥ .

(٢) هنري لنك: السابق، ص ٤٧ .

«روح الشعب»، الذي هو أساس حياة الدولة، وأن الدولة ينبغي عليها أن تعتمد على الدين وتقوم وتتأسس عليه، وأن الدين لكي يدعم الدولة لا بُدَّ له - بالتالي - من أن يدخل في قلبها في دهاء حتى يتغلغل في قلوب الناس، ومن ثم فإن صورة الدين تحدد صورة الدولة ودستورها[١].

ويرى «هيجل» أن زرع الدين في قلب المجتمع مجرد صرخة قلق تطلب النجدة، كما يبدو في الغالب، تعبر عن خطر اختفاء الدين، أو كونه على وشك الاختفاء تمامًا من الدولة، فإن هذا ممكن أن يكون شيئًا مرعبًا، وربما أشد سوءًا مما تدل عليه الصرخة[٢]. كما أن المشاكل التي تقوم في العالم، سواء أكانت في الاقتصاد أم في الاجتماع أم في السياسة يرجع سببها إلى التناحر الإنساني على حب الغلبة والرغبة في الانفراد بغلات الأرض وخيراتها ...إلخ، وبهذه الإشارة يتبين أن مشاكل العصر الحديث لا سبب لها إلا فقد الضمير الإنساني العامّ، وإحساس كل قوي من الدول أن الضعفاء فرائس لهم، وأن الحرب تكون بإبادة الضعفاء أو بتجويعهم، وأن العلاج هو تهذيب ذلك الضمير.

ومهما يستعين النَّاس بأقوال الحكماء والفلاسفة، وبقوانين الأخلاق التي سنوها فلن يجدي ذلك شيئًا؛ لأن الأخلاق لا تصلح بالعلم، فإن العلم ينمي الإدراك والفكر، والإدراك يكون في الخير والشر، والإدراك يخترع المدمرات ويخترع الدواء، وإذا هذَّب العلم بعض العلماء فلن يهذب كل أهل الأرض، بل لن يهذب كل أهل العلم، فإن أولئك الذين يديرون دفة السياسة في العالم أكثرهم

(١) محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م، (١/ ١٢٢ - ١٢٤) بإيجاز.
(٢) المرجع السابق، (١/ ١٢٤).

أو كلهم من ذوي الإدراك والتعليم، على أن منهم من تخصَّص في بعض فروع العلم[1].

ولا سبيل لحل تلك العقد التي يعقدها الإنسان في هذا الزمان إلا بدين مسيطر قوي، لا يقتصر اتباعه على المعابد يعتكفون فيها، ولا تقتصر أوامره على العبادات المفروضة بنظمها، بل تشمل أوامره كل ما يعمل الإنسان من خير ومن شر، في عامة نهاره، وأطراف ليله، ولا ينظم فقط العلاقة بين العبد وربه، بل ينظم العلاقات بين الناس، على أنها الطريق لإرضاء الله ﷻ؛ فالمتدين بهذا يرى أوامره في متجره ومزرعته ومصنعه، ومكتبه ومجلسه الذي يجلسه استرواحًا واستجمامًا، وإذا كان قائدًا في الحروب يرى أوامره تناديه ألا تقتل إلا من يقاتلك، ولا تخرب عامرًا، ولا تقطع شجرًا، ولا تقلع زرعًا، ولا تفسد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين.

إذا سيطر ذلك النوع من الدين على النفوس فإن المشاكل كلها تحل، بل إنه لا تعقد مشاكل قط؛ لأن هذا الدين يمنع عقدها[2].

(١) محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦١م، ص ٨، ٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠ .

رسالة الأنبياء .. دينيًّا ودنيويًّا

اشتمل «الدين» وهو رسالة الأنبياء التي حملوها من رب العباد إلى عباده على جانبين:

الجانب الأول: هو العقيدة، والجانب الثاني: هو الشريعة .

أولًا: العقيدة، وتتمثل في عدة أمور، أهمها:

١ ـ توحيد الألوهية وإفراد الله بالعبودية .

٢ ـ خلق المخلوقات جميعًا .

٣ ـ إثبات الصفات له ﷻ كما وصف بها نفسه .

٤ ـ إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإحداث المعجزات .

٥ ـ الإيمان بالسمعيات، وغير ذلك مما يدخل في جوانب العقيدة .

٦ ـ الإيمان بفناء المخلوقات، ويوم الحساب، ومبدأ الثواب والعقاب، والجنة والنار .

وهذه الأطر العامة للعقيدة هي التي دعا إليها أنبياء الله ورسله منذ آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وهي التي تعني العبادة الحقة ـ في جانبها النظري ـ التي جاء بها الأنبياء إلى أقوامهم، كما دل على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، وقوله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣]،

وقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٧٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:١٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾[الأعراف:٨٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦].

ثانيًا: الشريعة، الشريعة هي الجانب العمليّ للعقيدة وهي نظام للحياة، وليس ثمة انفصام بين جانبي الدين ـ العقيدة والشريعة، ولا يستقيم أحدهما بدون الآخر .

ومن ثم، فقد اشتمل الدين على منهج قويم للشريعة، مثل: اشتماله على منهج العقيدة، وتأتي الشريعة دائمًا في ظل العقيدة وإطارها، وتحكم بأسسها، وتقنن بقواعدها، وكل هذا وليد العبادة الحقة لله .

والعبادة ممارسة فطرية، ونهج قويم، ومسار مستقيم، وهي تكليف بسيط: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح: ٣]؛ عبادة شعائرية، وتقوى قلبية، وطاعة قولية وفعلية، عبادة تتخلل المرء كله: روحه وجسده، فكره وسلوكه، وجدانه ومشاعره، تجعل كل ما يصدر عن هذا المرء يتسق مع الفطرة السليمة والدين القويم، فيكون خيرًا للبلاد وصلاحًا للعباد .

الجانب السياسي:

الجانب السياسي واحد من أهم الجوانب في نظام الحياة؛ لأنه - فضلًا عن دوره ووظيفته في الأمة - يؤثر تأثيرًا بالغًا في كل الجوانب الأخرى - تقريبًا - سلبًا أو إيجابًا؛ وهذا الجانب كان جزءًا أساسيًّا في شريعة الأنبياء إلى أممهم، فهو النظام الذي يسوسهم في إطار العقيدة، وكان الأنبياء قادة أممهم في هذا الجانب مثل قيادتهم في الجانب الديني، يقول ﷻ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٤٢-٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص:٢٦].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر في بني إسرائيل؛ حيث قال ﷺ: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون»، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»**[1].

الجانب الإصلاحي:

من الجوانب المهمة في رسالة الأنبياء وفي سلوكهم العمليّ مع أقوامهم هو الإصلاح الاجتماعي، ومن أهم قواعد هذا الجانب ومسوغاته:

- **القدوة في الأنبياء والرسل:** فلابد للمصلح أن يكون قدوة في موطن الإصلاح، والأنبياء كانوا قدوة في كل الخصال الحسنة التي يُنعَتُ بها البشر، كما أخبر القرآن الكريم في كثير من المواضع، منها:

- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، (٢/ ١٠٧٤/ ح:٣٤٥٥).

وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام:٨٣-٩٠].

- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الممتحنة:٤].

- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الممتحنة:٦].

- ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

وقد كان نوح عليه السلام قدوة في الصبر على هداية قومه وصلاح حالهم؛ فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين [٩٥٠] سنة، وهو يدعوهم بكل وسائل الدعوة، ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا.

وكان إبراهيم وإسماعيل قدوة في الامتثال لأمر الله وطاعته فيما وصفه الله تعالى بأنه ﴿ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

وكان يوسف قدوة في العفة وضبط النفس ومقاومة كيد النساء، وكان أيوب قدوة في الصبر على البلاء في نفسه وأهله وماله، وكان النَّبيّ ﷺ قدوة في كل

شيء، ومن الأنبياء السابقين مَنْ جمع خصال الخير في أمة كاملة مثل إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل:١٢٠].

- **محاربة الفساد:** كما كان الأنبياء يعملون على محاربة الفساد بكل صوره في عصورهم، وينهون أممهم عنه، ويحذرونهم من عواقبه؛ فحذر هود قومه من الاستعلاء والطغيان في الأرض والتجبر على الناس، وحذر صالح قومه من الإفساد في الأرض، وأنكر على المفسدين أفعالهم، كما أنكر لوط على قومه جريمة اللواط التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ودعاهم إلى الحلال الطيب الذي تألفه الفطرة السليمة، وتحبه النفس القويمة، كما جاهد شُعيب قومه لمنع جريمة التطفيف في المكيال والميزان، لما يحدثه من ظلم وفساد اقتصاديّ واجتماعيّ .

شعيب عليه السلام والإصلاح:

يقول ﷻ عن دعوة شعيب: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، أي: أرأيتم يا قومي إن كنت على بصيرة فيما أدعو إليه، ورزقني الله منه رزقًا حسنًا، حلالًا واسعًا وهدى وتوفيقًا وعلمًا ومعرفة، أفلا أنهاكم عن الضلال؟ وإذا كنت على الوصف الذي ذكرت أأتبع الضلال والضالين؟! وتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف؟ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، أي: لم أكن أنهاكم عن شيء وأفعله ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، أي: لست أبغي فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم بقدر جهدي وطاقتي، بأن تصلحوا

دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة، وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله في جميع أموري ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع[1].

النَّبيّ من قومه وأخ لهم:

اقتضت حكمة الله أن يكون النَّبيّ أو الرسول وثيق الصلة بقومه، فهو منهم وأخوهم، وهم يعرفونه معرفة كاملة، وهو قدوة لهم في كل سلوكيات حياته، لعل هذا يكون دافعًا ومسوغًا لاتباعه فيما جاء به في الجانب العقدي والجانب العملي، وفي كل نواحي حياتهم.

- قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٠٥-١٠٧].

- وقال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٢٣-١٢٥].

- وقال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٤١-١٤٣].

- وقال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٦٠-١٦٢].

- وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا﴾[المائدة:١٢].

(١) عبد الكريم زيدان: المستفاد عن قصص القرآن للدعوة والدعاة، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٣٤ - ٢٤٤.

- وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

- وقال ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[يونس:٢].

وأيضًا قال ﷻ على لسان شُعيب وهو يخاطب قومه: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الشعراء:١٨١-١٨٣]، وهي جوانب اقتصادية واجتماعية، فضلًا عن أبعاد أخرى.

آدم عليه السلام

آدم هو أبو البشر وأول المخلوقات الإنسانية، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه(*)، وأَسْجَدَ له ملائكته، وجعله خليفته في الأرض، وكرمه هو وذريته من بعده، فسخر لهم ما في الأرض.

خلق آدم:

من نعم الله على الإنسان أنه خلقه ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[التين:٤]، وعرفه ذلك، وخاطبه به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار:٦-٨].

وقد مر خلق آدم بعدة مراحل:

-**الأولى**: مرحلة التراب: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

- **الثانية**: وهي مرحلة الطين: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾[السجدة:٧].

(*) روى الطبري عن سبب التسمية بضع روايات تقول بأن آدم خلق من أديم الأرض، فَسُمِّي آدم، وروي عن علي رضي الله عنه أن آدم خلق من أديم الأرض، فيه الطيب والصالح والرديء، وهذا في ولده (الصالح والرديء)، تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت ، دار التراث - القاهرة ١٩٨٨م، (١/ ٦٣).

أما عن طوله عليه السلام فقد ورد بذلك نص نبوي صحيح، إذ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أُولَئِكَ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»، أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: خلق آدم وذريته، (٤/ ١٣١/ ح:٣٣٢٦).

- **الثالثة:** مرحلة الصلصال والحمأ المسنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[الحجر:٢٦]، و: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤].

يقول بعض العلماء المعاصرين: إن أول مواد خلق آدم هي التراب، ثم وضع الماء على التراب فأصبح طينًا، ثم تُرك الطين فتغير لونه وأصبح صلصالًا، ثم جف الصلصال فأصبح حمأ مسنونًا، ثم نحته في صورة إنسان ونفخ الحق ﷻ فيه الروح، فأصبح بشرًا، ثم يأتي الموت وهو نقض للحياة، ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه(١).

وقد وضحت السنة النبوية الشريفة أن الناس جاءوا في أوصافهم على قدر الأرض التي خلقوا منها، فقد قَالَ النَّبِيّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ على قَدْرِ الأَرْضِ؛ جَاءَ مِنْهُمُ الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»**(٢).

---

(١) الشعراوي: تفسير الشعراوي، مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة ـ ١٩٩٧م، (١/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٢٢/ ٣٥٣/ ح:١٩٥٨٢)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات، والحديث رواه أبو موسى الأشعريّ عن النَّبيّ ﷺ، وثمة رواية عن خلق آدم رواها أبو هريرة عن النَّبيّ ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طينًا ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونًا خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالًا كالفخار»، قال: «فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم، ثم نفخ الله فيه روحه فكان أول شيء جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فلقنه الله حمد ربه، فقال الرب: يرحمك ربك، ثم قال الله: يا آدم، اذهب إلى أولئك النفر فقل لهم وانظر ما يقولون، فجاء فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، فجاء إلى ربه فقال: ماذا قالوا لك؟ وهو أعلم بما قالوا له، قال: يا رب، لما سلمت عليهم قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، قال ﷻ: يا آدم، هذه تحيتك وتحية ذريتك، قال: يا رب، وما ذريتي؟ قال: اختر يدي يا آدم قال: أختار يمين ربي ـ وكلتا يدى ربى يمين ـ فبسط الله كفه فإذا كل ما هو كائن من ذريته في كف الرحمن ﷻ، فإذا رجال منهم على أفواههم النور، وإذا رجل يعجب آدم=

كما ذكر رَسُولُ اللهِ ﷺ أنه: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ»(1).

وقت خلقه، وترتيبه في الخلق:

ذكرت السنة النبوية وقت خلق آدم عليه السلام، بل حددت ذلك باليوم والساعة، وترتيب ذلك بين باقي المخلوقات، وجاء ذلك في قوله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»(2). وهذا تقرير نبوي

=من نوره، قال: يا رب، من هذا؟ قال: ابنك داود، قال: يا رب، فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين، قال: يا رب فأتم له من عمري حتى يكون عمره مائة سنة، ففعل الله وأشهد على ذلك، فلما نفد عمر آدم بعث الله إليه ملك الموت، فقال آدم: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال الملك: ألم تعطها ابنك داود؟ فجحد ذلك، فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته» (أبو يعلى في «مسنده»، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث ـ دمشق ـ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ١١/ ٤٥٣/ ح:٦٥٨٠)، قال المحقق: إسناده ضعيف، أما الهيثمي فقال: رواه أبو يعلى وفيه إسماعيل بن رافع، قال البخاري: ثقة مقارب الحديث، وضعفه الجمهور وبقية رجاله رجال الصحيح، الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٢هـ (٨/ ٣٦٣).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، باب: خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، (٤/ ٢٠١٦/ ح:٢٦١١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، (٤/ ٢١٤٩/ ح:٢٧٨٩)، والحديث رواه أبو هريرة، لكن بعض العلماء أنكروا هذا الحديث واعتبروه مرويًا عن كعب الأحبار، ومن هؤلاء البخاري، الذي قال: هو عن كعب ـ الأحبار ـ أصح، التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، (١/ ٤١٣، ٤١٤)، وابن كثير، الذي قال: «وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعًا، وقد حرر ذلك =

شريف بالغ الأهمية، خاصة من الناحية التاريخية، وترتيب جزء من المخلوقات والمكونات لبيئة الإنسان، وبيان تهيئة تلك البيئة واستوائها قبل خلق الإنسان واستخلافه فيها.

طول آدم، وأول مخاطبة له مع الله والملائكة:

أما عن طوله وأول حديث دار بينه وبين خالقه ﷻ، فقد ثبت في السنة النبوية، حيث قَالَ ﷺ: **«خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أُولَئِكَ مِنَ المَلَائِكَةِ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِك، فَقَالَ:**

=البيهقي»، تفسير القرآن العظيم، (١/ ٢١٥)، وقال في موضع آخر: وهو من غرائب الصحيح وقد علله البخاري في التاريخ فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار وهو الأصح، السابق، (٧/ ١٦٨).

وهناك رواية ذكرها الطبري تخالف ذلك، وهي لم تصح، جاء فيها أن اليهود أَتَتِ النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: «خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ الأَحَدِ وَالِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَمَا فِيهِنَّ مِنْ مَنَافِعَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ الشَّجَرَ وَالْمَاءَ وَالْمَدَائِنَ وَالْعُمْرَانَ وَالْخِرَابَ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾[فصلت: ٩، ١٠] لِمَنْ سَأَلَ، قَالَ: وَخَلَقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْمَلَائِكَةَ إلى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِيَتْ مِنْهُ، فَخَلَقَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الآجَالَ حِينَ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ، وفي الثَّانِيَةِ أَلْقَى الآفَةَ على كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وفي الثَّالِثَةِ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ»، قَالَتِ الْيَهُودُ: ثُمَّ مَاذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «ثُمَّ اسْتَوَى على الْعَرْشِ»، قَالُوا: قَدْ أَصَبْتَ لَوْ أَتْمَمْتَ، قَالُوا: ثُمَّ اسْتَرَاحَ؛ فَغَضِبَ النَّبِيّ ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا، فَنَزَلَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[سورة ق:٣٨]، ومع كونه لم يصح فقد قدمه بعض العلماء على حديث مسلم السابق، الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢٣)، وتفسير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر ـ السعودية ـ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٢٠/ ٣٨٢).

السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»[1].

خلافته عليه السلام:

سجل القرآن الكريم هذه المرحلة المهمة من حياة آدم عليه عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٣٠-٣٩].

ويستنبط من ذلك أن الملائكة رأت خلقًا آخر عاش على الأرض وأفسد فيها، فكأنهم عاشوا التجربة من قبل[2]، ولكن عليهم أن يذعنوا لأمر الله الذي

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، (٤/ ١٣١/ ح:٣٣٢٦).

(٢) ذكر ابن كثير أن الله ـ تعالى ـ أخبر الملائكة بخلق آدم وذريته على سبيل التنويه، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه=

يأمر فلا يعصيه أحد، وكان إخبار الله للملائكة الذين لهم صلة بخدمة الخليفة القادم على الأرض، ومن لهم قدرة خلقها الله لهم على التدبير؛ لأنهم سوف يخدمون هذا الخليفة، لذلك أمرهم بالسجود، لكن هناك نوع من الملائكة لم يخبرهم الله بخلق الإنسان؛ لأنهم لا صلة لهم بالمخلوق، وهم الذين لا عمل لهم إلا التسبيح والعبادة(١).

وإذا كان الخالق قد أمر أكرم مخلوقاته بالسجود لهذا الإنسان(*) فإنه قد سخر له كل مخلوقاته الأخرى المحيطة به لخدمته، وقد هيأ الله ﷻ له البيئة

=الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما يتوهمه بعض جهلة المفسرين، البداية والنهاية، (١/ ٨٣).

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ٧٤، ٧٥).

(*) أخبرتنا السنة النبوية الصحيحة عن بعض أحوال آدم عليه السلام، مثل الوقت الذي خلق فيه، والذي أهبط فيه إلى الجنة ومن غسله وكيفيته ومن ذلك ما رواه أبو هريرة إذ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي وقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، مسلم في «صحيحه»، باب: ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، (٤/ ٢١٤٩/ ح:٢٧٨٩).

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تِيبَ عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا هي مُصِيخَة -أي منتظرة لقيام الساعة- يوم الجمعة من حين يُصبح حتى الشمسَ شفقًا من الساعة إلا الجنَّ والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله ﷻ حاجة إلا أعطاه إياها»، الحاكم في «المستدرك»، (١/ ٤١٣/ ح:١٠٣٠)، قال الذهبي: على شرطهما، رواه أبو هريرة.

وأيضًا قول النَّبيِّ ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيض ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، فقال: رب، كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما أنقص عمر آدم=

الملائمة للحياة وللخلافة وللعبادة وللعمارة في هذه البيئة، كما في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[النبأ:٦-١٦].

تعليم آدم:

ثمة تباين بين المفسرين في نوع الأسماء التي علمها الله لآدم عليه السلام، وقد صحح ابن كثير ما ذهب إليه ابن عباس من كونها أسماء الذوات وأفعالها [إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وجبل، وجمل...][(١)].

ويذكر بعض المفسرين أن المشهد الأول لآدم مع الملائكة هو أن المسميات كلها قد تم إيجادها وخلقها، وقذف الله بالإلهام كل الأسماء في قلب ووجدان وإدراك آدم عليه السلام، بدليل أن «المسميات» عُرضت على الملائكة فلم تعرف أسماءها، ولم تتعرف الملائكة على المسميات، وذلك من طلاقة قدرة الله ﷻ عندما ألهم آدم بـ«كن عالمًا بالأسماء» فتعلم آدم الأسماء[(٢)].

=جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته»، أخرجه الترمذي في «سننه»، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي -بيروت -١٩٨٨م، ٥/ ٢٦٧/ ح:٣٠٧٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٣٥٤/ ح:٣٢٥٧)، قال الذهبي: على شرط مسلم، رواه أبو هريرة.

وكذلك قول النبي ﷺ: «لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترًا وألحدوا له، وقالوا: هذه سنة آدم في ولده»، الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٥٩٥/ ح:٤٠٠٤)، قال الذهبي: صحيح، رواه أبي ابن كعب.

(١) البداية والنهاية، (١/ ٨٣).

(٢) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ٨١).

وهكذا كان إدراك آدم عليه السلام توقيفيًا، أي: إنه عرف كل اسم لكل مسمى كما خلقه الله، ثم نزل الأرض لتطور هذه المسميات، ويعمل العقل الإنساني لتطوير وتحديد الأشياء، مما استدعى أن يضع لها أسماء مشتقة مما تلقاه آدم من المعلم الأول ﷻ، ولقن آدم أبناءه ما تعلمه، فكان علم الأبناء عن طريق ترديد ما سمعوه بآذانهم[1].

سجود الملائكة لآدم:

أمر الله ﷻ ملائكته ـ ومعهم إبليس ـ أن يسجدوا لآدم، سجود تكريم لا سجود عبادة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]، فإبليس أبى أن يسجد، وبإبائه هذا فسق عن أمر ربه، واستكبر عن السجود، وعندما سأله ربه ـ وهو أعلم به: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال أيضًا: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[الإسراء:٦١].

فعصى إبليس أمر ربه واستكبر على خلقه، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾، فعاقبه الله فأخرجه من الجنة وحلت عليه لعنته إلى يوم الدين، ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

---

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ٨٥)، أما عن السر في اختلاف اللغات من مكان إلى آخر على الرغم من أن الخالق الأكرم قد علم آدم أسماء المسميات الموجودة في الكون، فإن ذلك يرجع إلى تنوع فترات التاريخ، وتتبع انتشار الإنسان على الأرض، فنجد أن كل مجموعة من اللغات تقترب من بعضها لتكون لغة واحدة؛ فالفرنسية والإنجليزية والإيطالية مأخوذة عن اللاتينية، والعبرية والسريانية لهما علاقة باللغة العربية، بل إن اللهجات التي يتكلم بها العالم العربي تتنوع في اللغة العربية الواحدة، ولو أن العرب استسلموا لمحاولات المستعربين، وهم أبناء الأمة العربية الذين يعملون خارجها، وكتبوا لغتهم بالحروف اللاتينية لاندرست اللغة العربية من وطن عربي إلى آخر؛ أو لمحاولات جعل اللهجات المحلية ـ للعربية ـ لغة أساسية لضاعت معالم اللغة العربية، وصارت كل لهجة لغة منفصلة عن اللغة الأم، ولأصبحت تلك اللغات مختلفة تمامًا عن أصولها الفصيحة، الشعراوي: قصص الأنبياء، ص ٨١، ٨٢.

رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الحجر:٣٤، ٣٥]، فعزم إبليس على غواية عباده، وطلب أجلًا إلى يوم البعث، فأعطاه الله ذلك، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر:٣٦-٤٠]، وحرصًا على الغواية توعد إبليس عباد الله بأن يستخدم كل وسائل الغواية ويأتيهم من كل اتجاه، إلا ما لا يقدر عليه، وهو ما بينهم وبين ربهم، وهو ما رمز له بالاتجاه الأعلى، على ما يفهم من السياق القرآني: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾

[الأعراف:١٦، ١٧].

ولكن الله لم يجعل له سلطانًا على عباده إلا من اتبعه منهم، وجعل موعدهم جميعًا جهنم، قال سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر:٤١-٤٣].

وقد أعطى الله ﷻ إبليس ما طلب من الوقت، وما يستطيع من وسائل الغواية والإضلال للناس؛ لتنفيذ ما عزم عليه، ولكن هذا الرب الرحيم بعباده لم يترك عباده لهذا العدو وجنوده، وإنما كان معهم هاديًا وموجهًا ومرشدًا، وآمرًا لما فيه صلاح أتباعه، ونجاتهم من هذا العدو، وفوزهم بنعيم الدنيا وجنان الآخرة؛ من خلال منهج متكامل بدأ بفطرة سليمة، ثم قُنِنَ بدين واحد، وشرائع تعددت بتعدد طبيعتهم وأحوالهم ومصالحهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ

ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[الإسراء:٦١-٦٥].

إبليس من الجن:

أما إبليس هذا فكان من الجن كما ذكر رب العزة، وعندما أمره ربه بالسجود فسق عن أمره وأبى واستكبر، والتعيين هنا مذكور صراحة في القرآن الكريم بأنه كان من الجن، كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، ودلالة «كان» واضحة في هذا السياق، والتأويل في مثل هذا التصريح القرآني يكون أبعد عن القبول، لاسيما وأنه ليس ثمة مانع من كونه من الجن . أما ما ذكر من كون المخاطب بالأمر هم الملائكة، وأن الاستثناء يعني أنه كان منهم؛ فهذا يتعارض مع صراحة النص القرآني من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكن تأول هذه المخاطبة بأنها:

١ ـ حملت على الأغلب بأن عنصر الملائكة هو الغالب والأكثر .

٢ ـ صدرت باسم من سينفذونها دون عصيان .

وهذا الأمر الأخير يأتي في إطار ما ذكره بعض العلماء من أن فسق إبليس عن أمر ربه تأكيد على كونه من الجن؛ لأنه مخلوق له اختيار ـ كالإنسان ـ يستطيع أن يطيع ويستطيع أن يعصي، وما دام له اختيار فإنه ليس من الملائكة؛ لأن الملائكة ليس لهم اختيار، فهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦][1].

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ١٣١)، وقد ذكر ابن كثير خلاف العلماء في كون إبليس من الجن أم من الملائكة، فروى عن الحسن البصري قوله: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين=

خلق حواء:

اقتضت حكمة الله ﷻ أن يخلق «الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورٍ، والْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»[1]، أما حواء فقد اقتضت حكمته ﷻ أن يخلقها من آدم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء:١]، و: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩]، وأن تخلق من ضلعه، كما أخبر النبي ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[2]، وحددته بعض الروايات بالضلع الأيسر، وحدث ذلك وهو نائم[3]، أما عن وقت خلقها، فبعض العلماء على أنه كان قبل دخول آدم الجنة، وأكثرهم على أنه بعد ذلك .

ورأى بعض المفسرين المعاصرين، عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

=وقال شهر بن حوشب: كان من الجن، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جندًا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس عنه. وقال ابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا، قال ابن عباس: واسمه عزرائيل وفي رواية النقاش: وكنيته (أبو كردوس)، قال ابن عباس: وكان من حي من الملائكة يقال لهم: الجن، وكانوا خزان الجنان، وكان من أشرفهم وأكثرهم علمًا وعبادة، وكان من أولي الأجنحة الأربعة: فمسخه الله شيطانًا رجيمًا، (البداية والنهاية لابن كثير، ١/ ٨٥).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، باب: في أحاديث متفرقة، (٤/ ٢٢٩٤/ ح:٢٩٩٦) .

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: خلق آدم، (٣/ ١٣٣/ ح:٣٣٣١)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء، (٢/ ١٠٩١/ ح:١٤٦٨) .

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (٦/ ٣٤١)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٢٠٦) .

وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩]، أن هناك من يذهب إلى أنها خُلقت من الرجل، وقيل: من ضلع أعوج، ومن يرجح هذا يريد أن يجعل السكن ارتباطًا عضويًّا، فالمرأة بعض من الرجل، وعلى هذا تكون «مِنْ» تبعيضية، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون «مِنْ» بيانية، أي من جنسها، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[التوبة:١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة:٢]، أي الرسول من جنسنا البشري ليكون إلف المبلغ عن الله، والمبلغ عن الله واحد منا ونكون مستأنسين به[١].

وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل؛ لأن خلق حواء قد انطمست المعالم عنه، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتسويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صار إنسانًا، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول، وبعد ذلك تكون حواء مثله، فيكون قوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾، أي من جنسها، خلقها من طين ثم صورها[٢].

جنة آدم:

سبق الحديث عن هذه الجنة وأنها ليست جنة الآخرة، وإنما هي مكان أعده الله لآدم إعدادًا كاملًا يتلقى فيه آدم تدريبًا على خلافته في الأرض التي أوجد من أجلها، وسكن آدم وزوجته ـ حواء ـ الجنة، وأخذا يتنعمان بما فيها، ولم يقربا تلك الشجرة التي منعهما ربهما منها، ولما كان إبليس يترصد لآدم ـ وذريته من بعده ـ

(١) الشعراوي: تفسير الشعراوي، (٨/ ٤٥١٥).
(٢) المرجع السابق، (٤/ ١٩٨٧).

لإغوائه، فقد حذر ربنا آدم وزوجه غواية إبليس لهما لإخراجهما من هذا النعيم: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾

[طه:١١٧].

ولكن إبليس أخذ في غواية آدم وزوجه بأسلوب ماكر ودهاء فائق: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا﴾[الأعراف:٢٠]، فتوجه إلى آدم منفردًا فوسوس إليه الشيطان، و﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[طه:١٢٠]، ثم خاطبهما: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠]، وإمعانًا في الغواية وتأكيدا في إحداثها: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف:٢١]، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[الأعراف:٢٢]، فتحقق ما كان إبليس يرمي إليه، وهو غواية آدم وزوجه وعصيانهما لربهما، ولكن ترتب على ذلك ما يأتي:

١ ـ عصيان آدم ﷺ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾[طه:١٢١، ١٢٢].

٢ ـ كشف سوءاتهما: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾[الأعراف:٢٠].

٣ ـ خروج آدم وزوجه من هذه الجنة، وناداهما ربهما مذكرًا ومعاتبًا: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[الأعراف: ٢٢]، وعندئذ تلقن آدم وزوجه الدرس فعرفا عدوهما، وأيقنا بما يهدف إليه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧]، فتوجها إلى

ربهما معلنين التوبة والاعتراف بالخطأ، طالبين مغفرته ورحمته قبل أن يلم بهما الخسران: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣]، فأقبل التواب على عبده، وأمته: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧]، وهكذا انتهت هذه التجربة العملية بما حملته من آمال وآلام، وإنعام وإذلال، وعصيان وغفران، ولكنها بقيت أبد الآبدين، ودهر الداهرين نموذجًا لقوانين الحياة وعلاقة مفرداتها، في إطار منهج الله تعالى لهذه الحياة .

وبدأ آدم وزوجه، ومن بعدهما ذريتهما، وإبليس وذريته المرحلة الكبرى والأبدية من الصراع بين الخير والشر، مع تدخل رب الجميع بهداية النجدين ـ الخير والشر ـ لعباده، وعون من سلك طريق الخير .

المسئولية:

قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**لَوْلا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ**»[1]، بهذا تشارك حواء في هذا الأمر، كما قال البعض، إلا أن آدم وحواء اعترفا بذنبهما وطلبا من الله الغفران، فغفر لهما ربهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧]، وانتهى بهذا الغفران أمر الخطيئة وآثارها، وبقي منها تعليم التجربة لذرية آدم.

الهبوط إلى الأرض:

كان الهبوط إلى الأرض هو بداية تلك المرحلة الممتدة إلى نهاية الأجل

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، (٤/ ١٣٢/ ح:٣٣٣٠)، ويخنز: يفسد.

المضروب لهذه الحياة في علم الخالق ﷻ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[الأعراف:٢٥]، والهبوط كان للجميع - آدم وحواء وإبليس: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[البقرة:٣٨]، بل إن الهبوط شمل حتى العداء؛ حيث هبط العداء مع الهابطين، فالعداء الذي استشرى في إبليس ضد آدم وذريته وكان سببًا في إخراج آدم وزوجه من الجنة، هبط: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الأعراف:٢٤]، و: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الأعراف: ٣٥، ٣٦]، وقد أوفى ربنا بما وعد، وآتى بني آدم الهدى على توالي أزمنتهم، وتباين أماكنهم، واختلاف أجناسهم؛ ممثلًا في رسله وأنبيائه الذين لا يحصيهم عددًا إلا هو، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد:٢٥].

إمهال إبليس وتوعده لبني آدم:

ولما كان إبليس منبع الشر ومصدره الرئيس كان من الطبيعيّ أن يفكر في الانتقام؛ وقد أضله فكره في إغواء عباد الله وإضلالهم بكل ما يستطيع إلى ذلك سبيلًا، إلا المخلصين منهم، وما كان بكائن أن يقف هذا الموقف إلا إبليس، وهو بذلك يدلل على طبيعته التي أعلمنا الله إياها: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[الحجر:٣٦-٣٨]، وهنا أعلن عن قصده وعن وسائله، ومنها التزيين في الأرض لمواطن الغواية: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر:٣٩، ٤٠]، وقال أيضًا: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ

صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف:١٦، ١٧]، وجاء الرد من قبل العلي القدير إلى هذا الكائن: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[الإسراء:٦٣، ٦٤]، وذلك لأنه لا خوف على العباد المخلصين منه؛ لأنه لا سلطان له عليهم، أما الغاوون فلا فائدة منهم ولا حرص عليهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[الحجر:٤٢] وهكذا كان الوعيد الإلهي لهذا الشر وأعوانه وأتباعه فإن جهنم هي الوعيد، والوعد لها بملئها بهم: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الأعراف:١٨].

وأمام هذا الوعد من إبليس بتعقب عباد الله والقعود لهم في كل صراط مستقيم وإتيانهم من كل الطرق، كان الرب الرحيم مع عباده المخلصين؛ فأرشدهم وهداهم وساعدهم على اتباع الصراط، وهو صراط الذين أنعم عليهم من عباده، وجاء التحذير بعد التحذير، والإنذار يتلوه الإنذار من الرب الرحيم، والتذكير بما فعله مع أبوينا من قبل: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٢٧].

وعجبًا لهؤلاء الذين تجاوزوا الحد من العباد، فاتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله، فكان بئس البدل لهم: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[الكهف:٥٠].

شبهة «جَعَلَا له شركاء»:

ذكرت بعض الشبهات حول المقصود مما جاء في جعل آدم وحواء شركاء، على نحو ما ذكر في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:١٨٩، ١٩٠]، أي: إِنَّهُ ﷻ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَّاءَ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا، أي: وَطِئَهَا، حملت واسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ، فلما كَبِرَ الْوَلَدُ في بَطْنِهَا دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا، فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[1].

وقد أزال العلماء ما التبس من ظاهر الألفاظ، وبينوا المقصود من ذلك، إذ كان رأيهم ـ ومنهم: قتادة، والسُّدِّيُّ، والطبري، وغيرهم: «أنهما أَشْرَكَا طاعته في الِاسْمِ، وَلَمْ يُشْرِكَا في الْعِبَادَةِ»[2]، وهو ما رجحه الطبري مع ذكره «أَنَّ الْمَعْنِيَّ بِذَلِكَ آدَمُ وَحَوَّاءُ؛ لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ على ذَلِكَ»، لا غيرهما كما زعم البعض[3].

ولعل مما يؤكد ذلك قول النَّبِيِّ ﷺ: «**لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ،**

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٥٢٤، ٥٢٥).
(٢) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٦٢٥ ـ ٦٢٧).
(٣) المرجع السابق، (١٠/ ٦٢٩)، لكن ابن كثير اختار رأي الحسن البصري في ذلك، وهو أن هذا الأمر كان في أهل الكتاب، وَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ورأى أن تفسير الحسن هو أفضل ما تحمل عليه الآية، (تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٥٢٧، ٥٢٨).

وَكَانَ لا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّوْهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ»[1]، فهذا يؤكد أن الأمر كان في طاعتهما الشيطان في تسمية ابنهما.

نبوة آدم ورسالته:

ثمة تباين في الرأي حول نبوة آدم، فالبعض يقول بنبوته أو رسالته استنادًا إلى بعض الأدلة، والبعض الآخر يقول بعدم نبوته، لعدم نص القرآن الكريم صراحة على ذلك، وفريق ثالث يرجئ الأمر في هذا لله تعالى .

أما أدلة الذين يقولون بنبوة آدم ورسالته[2] فهي:

أولًا: من القرآن الكريم:

١ ـ الاصطفاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٣٣].

٢ ـ الاجتباء، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، رواه سَمُرة بن جُندَب، (٣٣/ ٣٠٥/ ح:٢٠١١٧)، وسنده عند الإمام أحمد: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بن عبد الوارث، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ»، قال محققو المسند: إسناده ضعيف، والترمذي: سنن الترمذي، (٥/ ١١٨/ ح:٣٠٧٧)، قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ قَتَادَةَ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ وَلَمْ يَرْفَعْهُ، والطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٦٢٣)، والحاكم في «المستدرك»، باب: ذكر آدم عليه السلام، (٢/ ٥٩٤/ ح:٤٠٠٣)، قال الذهبي: صحيح. فالراوي هو سَمُرة بن جُندب عند الجميع، لكنه روي من طريق آخر غير طريق الإمام أحمد عند بعض المحدثين، والحديث ضعفه محققو المسند، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم والذهبي، وهو مَعْلُولٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ عند ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٥٢٥، ٥٢٦).

(٢) عز الدين بليق: نبوة آدم ورسالته، ص ٢٧٩.

٣ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة:٣١].

٧ ـ قصة ابني آدم في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة:٢٧، ٢٨].

يقول أحد المفسرين في قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]: إنه ما دام هناك خلق، فلا بد أن يكون هناك نذير، وآدم عليه السلام كان رسول الأسوة والقدوة لأبنائه؛ وهؤلاء الأبناء هو مرسل إليهم ليعلمهم المنهج، فمنهجه سلوك يبلغه لأبنائه، وأبناؤه يقلدونه فيه.

وقد روى الطبري أن الله ﷻ نبأ آدم، وجعله رسولًا إلى ولده، وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة كتبها آدم عليه السلام بخطه، علمه إياها جبريل عليه السلام[1].

إذن فابنا آدم عرفا منهج الله، وكانا يقدمان له القرابين، من أين عرفا هذا المنهج؟ من آدم، وعرفا كيف يتقربان إلى الله، وكيف يبتعدان عما يوجب عقابه، من أين كان سيأتي هذا الكلام إذا لم يكن هناك رسول مبلغ عن الله بأن هناك ثوابًا

(١) تاريخ الطبري، (١/ ٩٥).

وعقابًا، ومن أين عرف ابنا آدم أن الله يتقبل من المتقين ويعاقب الطاغين إلا إذا كان هناك منهج من الله نقله آدم إلى أبنائه[(١)].

لكن البعض يقول: إن القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بخصوص آدم، كما ذكر ذلك بخصوص غيره من الأنبياء: كإسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسى، وغيرهم، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة، وشرَّع له في ذلك الخطاب، فأمره ونهاه وأحلَّ له وحرَّم عليه بدون أن يرسل إليه رسولًا، وهذا هو كل معاني النبوة؛ وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه، وشأننا أن نفوض علم ذلك إلى الله ﷻ، لكن لو كان آدم رسولًا لما ساغ ما جاء في حديث الشفاعة من قول الناس لنوح: «أنت أول رسل الله إلى الأرض»، والعلماء القائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان، وهو تأويل متكلف[(٢)].

ثانيًا: من السنة النبوية:

١ ـ حديث أبي سعيد الخدري: قول النَّبيِّ ﷺ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نبي يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلا فَخْرَ»**[(٣)].

٢ ـ حديث أبي أمامة الباهلي: أَنَّه عندما سأل رَجُل رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَنبي كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: **«نَعَمْ، مُكَلَّمٌ»**، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: **«عَشَرَةُ قُرُونٍ»**[(٤)].

---

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٧.

(٣) أخرجه الترمذي في «سننه»، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ باب: في فضل النَّبيِّ ﷺ، (٥/ ٥٨٧/ ح:٣٦١٥)، وقد صححه الترمذي، والحديث رواه أبو سعيد الخدري.

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، تحقيق: شُعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (٢/ ٧٢/ ح:٦١٩٠)، والحديث رواه أبو أمامة، قال المحققون: إسناده صحيح.

٣ـ حديث أبي ذر الطويل: أن أبا ذر الطويل سأل النَّبيّ ﷺ: مَنْ كَانَ أَوَّلُهُمْ، قَالَ ﷺ: «**آدَمُ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنبِيٌّ مُرْسَلٌ؟ قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَكَلَّمَهُ قِبَلًا**»(١).

ثالثًا: استدلالهم بخطاب الله لآدم بدون واسطة.

رابعًا: الزعم بوجود ثلاثة أنبياء قبل نوح .

خامسًا: الزعم بإجماع علماء المسلمين على نبوة آدم .

وفاة آدم:

وردت في وفاة آدم عليه السلام روايات بعضها صحيح، وبعضها لم يصح إسنادًا ولا متنًا، وخاصة تلك التي ذكرت تفاصيل غسله وتكفينه، أما الروايات الصحيحة في ذلك، فمنها قول النَّبيّ ﷺ: «**لَمَّا تُوُفِّي آدَمُ غَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَاءِ وِتْرًا وَأَلْحَدُوا لَهُ، وَقَالُوا: هَذِهِ سُنَّةُ آدَمَ فِي وَلَدِهِ**»(٢).

عمر آدم:

جاء في صحيح السنة أن آدم عليه السلام طلب من الله أن يزيد في عمر داود عليه السلام أربعين سنة من عمره، دون ذكر لمدة عمر آدم، حيث قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على آدَمَ فَقَالَ: أي رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ**

---

(١) وهذا الحديث ضَعَّفَ المحققون إسناده «جدًّا»؛ عند أحمد بن حنبل في «مسنده»، (٣٦/ ٦١٩/ ح:٢٢٢٨٨)، وابن حبان في «صحيحه»، (١٤/ ٩٦/ ح:٦١٩٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار الحرمين - القاهرة ـ (٩/ ١٠٥/ ح:٩٢٥٩)، والحاكم في «المستدرك»، باب: ذكر آدم عليه السلام، (٢/ ٥٩٥/ ح:٤٠٠٤)، قال الذهبي: صحيح .

مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أي رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ، كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَي رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِي عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ، قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّي آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه»، (٥/ ٢٦٧/ ح:٣٠٧٦)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وراوي الحديث هو أبو هريرة، ومثله عند الإمام أحمد في «مسنده»، (٥/ ٤٦٣/ ح:٣٥١٩)، قال محققو المسند: حسن لغيره، إسناده ضعيف، وقد ذكر ابن كثير حديث الإمام أحمد المذكور، ثم قال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا، (تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٢٢).

قصة قابيل وهابيل

قص علينا القرآن الكريم نبأ ابني آدم «قابيل» و«هابيل»[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[المائدة:٢٧-٣١].

إن قابيل وهابيل قد اختلفا ـ كما ذكر المفسرون، ولكن القرآن لم يخبرنا عن أي شيء اختلفا، إنها دعوة أن واحدًا منهما مقرب إلى الله أكثر، ولكن بأي شكل، إن الشكل لم يظهره لنا القرآن، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا في القرآن الكريم، ولكن الذي ظهر لنا أن خلافًا قد وقع بينهما، وأنهما قد حكَّما السَّماء، ومبدأ تحكيم السماء لا يستطيع أحد أن ينقضه، وكان لكل واحد منهما شبهة، وعندما قامت الشبهة التي لقابيل ضد الشبهة التي لهابيل، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة؛ لذلك ذهبا إلى التحكيم[2].

وقد ذكر الطبري روايات كثيرة تباينت فيها الآراء حول سبب هذه القضية وتفاصيلها، فبعضها يذهب إلى أن سبب القتل هو عدم موافقة قابيل على زواج

(١) لم يرد اسما ابني آدم في القرآن أو السنة، وإنما وردا في العهد القديم باسم: «قايين» و«هابيل»، (سفر التكوين: ٤: ١، ٢)، واسم «قابيل» هو تسمية المصادر العربية، و«هابيل» مأخوذ من العهد القديم.

(٢) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٢)، بإيجاز.

هابيل من توأمته التي أرادها لنفسه، إذ انتهى الأمر إلى تقريب كل منهما قربانًا لله، فالذي يُتقبل منه يتزوج هذه التوأمة، فتقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل، فقتله حتى لا ينكح أخته، مع اختلاف الروايات في نوع قربان كل منهما، إلا أن الأكثر على أن قابيل قدم قربانًا من نتاج حرثه، وهابيل قدم من نتاج غنمه، وقيل: إن سبب تقديم القرابين هو أن الله طلب منهما ذلك، وقيل: إن تقريب القرابين كان من تلقاء أنفسهما لا لسبب، وقيل: إن القصة حدثت لرجلين من بني إسرائيل، وإن أول ميت في الأرض مات هو آدم عليه السلام، ولم يمت أحد قبله، فلم يكن الرجلان ابنين لآدم من صلبه، ودفع الطبري ذلك بأن القصة كانت لرجلين من أبناء آدم من صُلْبه، وذكر - من عدة طرق - قول رسول الله ﷺ: **«ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها»**، وعلق بقوله: وذلك لأنه أول من سن القتل[1].

ونص قول النَّبيّ ﷺ برواية عبد الله بن مسعود: **«لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ على ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»**[2].

(١) تاريخ الطبري، (١/ ١٣٧ - ١٤٤)، بإيجاز.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٦/ ١٣٦/ ح:٣٦٣٠)، قال المحققون: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري في «صحيحه»، بَابُ: خَلْقِ آدم صلوات الله عليه وذريته، (٤/ ١٣٣/ ح:٣٣٣٥)، ومسلم في «صحيحه»، باب: بيان إثم من سن القتل، (٣/ ١٣٠٣/ ح:١٦٧٧)، واللفظ للثلاثة.

إدريس عليه السلام

إدريس عليه السلام هو نبيٌّ وصديق كما نص القرآن الكريم، وقد ذكر في موضعين فقط، والموضعان مقتضبان، مما قلل من معرفة أخباره وأحواله بثقة يعتمد عليها ويطمأن إليها، والنصان هما:

ـ **الأول**: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم:٥٦، ٥٧][1].

ـ **والثاني**: قوله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

[الأنبياء:٨٥].

ومن الثابت أنه عليه السلام جاء مذكورًا في حديث الإسراء، حيث رآه رسول الله ﷺ في السماء الرابعة[2]، قَالَ أَنَسٌ عن النَّبِيّ ﷺ: «**فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنبي الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ**»[3].

وقد ذكر ابن كثير أنه أول من أعطي النبوة من بني آدم بعد آدم وشيث عليهما السلام، وذكر بعض الأخبار عنه عليه السلام من خلال الروايات المختلفة، وهو ما ذكره كثير من المؤرخين والمفسرين غيره[4].

---

(١) ويقول الشعراوي معنى ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: مكانًا عاليًا في السماء، رفعة معنوية، أو رفعة حسية، والذي خلقه هو الذي رفعه، تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩١٢٨).

(٢) حديث الإسراء أخرجه البخاري في «صحيحه»، (٩/ ١٤٩/ ح:٧٥١٧)، ومسلم في «صحيحه»، (١/ ١٤٥/ ح:١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: ذكر إدريس عليه السلام، (٤/ ١٣٥/ ح:٣٣٤٢).

(٤) البداية والنهاية، (١/ ١١٥، ١١٦)، وعبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٤٥ ـ ٥٢.

وقد اختلف العلماء في المكان العليّ في قوله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٧] فقال بعضهم: رُفِع حيًّا كعيسى عليه السلام، وقيل: رُفع إلى الجنة، وقيل غير ذلك[١] وقد روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أن إِدْرِيسَ - وَهُوَ خَنُوخُ - أَوَّلُ نبي بُعِثَ في الأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ[٢].

(١) البداية والنهاية، (١/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر - بيروت - (١/ ٤٠).

نوح عليه السلام

المدة بين آدم ونوح:

كان بين آدم ونوح عليهما السلام - كما أخبر النَّبيّ ﷺ - عشرة قرون[1]، قال ابن عباس[2]، وعكرمة[3]: كلهم على الإسلام، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة[4]، فَنُوحٌ عليه السلام إِنَّمَا بَعَثَهُ اللهُ تعالى لَمَّا عُبِدَتِ الأَصْنَامُ وَالطَّوَاغِيتُ، وَشَرَعَ النَّاسُ في الضَّلَالَةِ وَالْكُفْرِ، فَبَعَثَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بُعِثَ إلى أَهْلِ الأَرْضِ، كَمَا يَقُولُ لَهُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[5].

ولكن هذه المدة المعينة بعشرة قرون غير معروفة - على وجه اليقين - للتباين في مقدار القرن بين المائة من السنين والجيل، والجيل على أيام نوح كان يعمر دهرًا طويلًا، فعلى الجيل يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين[6].

قوم نوح وعقيدتهم:

كان القوم الذين أُرسل فيهم نوح عليه السلام من الأقوام التي كفرت بخالقها،

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، (١٤/ ٦٩/ ح:٦١٩٠)، قال المحقق: إسناده صحيح، والراوي هو: أبو أمامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٤٦).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٢٣٧)، وفي رواية أخرى لابن عباس: «على شريعة من الحق»، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٤٨٠)، قال الذهبي: على شرط البخاري.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى»، (١/ ٤٢، ٥٣)، قال ابن كثير: وَهَذَا يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ زَعَمَ مِنْ أَهْلِ التَّوَارِيخِ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: إِنَّ قَابِيلَ وَبَنِيهِ عَبَدُوا النَّارَ، (البداية والنهاية، ١/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٤٨٠)، قال الذهبي: على شرط البخاري.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٢٣٨).

(٦) المرجع السابق، (١/ ٢٣٧، ٢٣٨).

واتخذت من دونه آلهة تعبدها، كما كانوا من الأقوام التي عمرت طويلًا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أسماءً من بعض آلهتهم المزعومة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣].

وهذه المعتقدات الباطلة التي كان قوم نوح عليه السلام يعبدونها توارثتها الأجيال حتى وصلت إلى العرب فعبدوها، «أَمَّا وَدٌّ فكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ فكَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبني غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، وهي أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، لَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ التي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»(١).

والنصوص القرآنية تصور بجلاء طبيعة هؤلاء القوم؛ تلك الطبيعة التي لم تزدها الدعوة إلى الله إلا فرارًا منه، والتي تستجيش كل وسائل الصدود والمعارضة عن هذه الدعوة، فقد صموا آذانهم بأصابعهم، واستغشوا ثيابهم، وكان إصرارهم واستكبارهم مطلقًا، بل إن السخرية من أمر الله كانت من الطبائع التي تنضوي عليها سجيتهم، وقد نعتهم القرآن الكريم بنعوت جسدت تلك الطبائع، وأنبأت بغيرها من سوء الخصال، وهي: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٤]، و: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنبياء:٧٧]، و: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[الذاريات:٤٦].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، (٦/ ١٦٠/ ح:٤٩٢٠) هذه رواية ابن عباس.

ولما كان هؤلاء القوم ـ والذين ملأوا الأرض آنذاك ـ على هذا النحو من العقيدة أرسل الله إليهم رسولًا منهم، وهو أخوهم نوح عليه السلام؛ لينذرهم من قبل أن يأتيهم عذاب أليم .

دعوة نوح إلى قومه:

كان نوح عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض، كما جاء في حديث الشفاعة، عندما يجمع الله الناس في صعيد واحد وتدنو منهم الشمس، فيذهبون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم، نبيًّا نبيًّا، كما يقول النَّبيّ ﷺ، حتى «**يَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إلى أَهْلِ الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إلى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلا تَرَى إلى مَا بَلَغَنَا، أَلا تَشْفَعُ لَنَا إلى رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نفسي نَفْسِي، ائْتُوا النَّبيَّ ﷺ، فَيَأْتُونِي فَأَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ، فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ**»[1]، وقد أرسله الله ﷻ إلى هؤلاء لما عم فسادهم وكفرهم واتخاذهم آلهة مزعومة من دون الله.

مضمون الدعوة:

كانت دعوة نوح عليه السلام كسائر أنبياء الله ورسله؛ عبادة الله وحده دون غيره، وطاعة الرسل فيما جاءوا به من عند ربهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود:٢٥، ٢٦]، و: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، (٤/ ١٣٤/ ح:٣٣٤٠).

وَأَطِيعُونِ ﴾[نوح:١-٣]، وفي قوله ﷻ على لسان نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٦٢]. إن ما جعله الله منهجًا لأهل الأرض من الأمور الثابتة المستقرة، سواء جاءت على لسان من سبقوا في الرسالات، أو ستأتي على لسان الأنبياء الذين سيرسلون بعد ذلك[١].

أسلوب الدعوة:

أخذ نبي الله نوح يدعو قومه إلى عبادة الله ﷻ وحده، وترك ما كانوا يعبدون من دونه، وإلى التبصر في آثار مخلوقاته ونعمه عليهم، لعل ذلك يقربهم إلى الهداية للصراط القويم، مستخدمًا في ذلك كل ما أوتي من جهد مادي ومعنوي؛ فكانت دعوته إليهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، ذاكرًا أن ربهم كان للمذنبين غفارًا، ومرسل السماء عليهم مدرارًا، وممدهم بأموال وبنين، وجاعلًا لهم جنات وجاعلًا لهم أنهارًا، وخالقهم أطوارًا، وجاعل الشمس سراجًا، ومنبتهم من الأرض نباتًا، وجاعلها لهم بساطًا؛ ليسلكوا منها سبلًا فجاجًا، ولكنهم لم يكونوا يرجون لله وقارًا، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[نوح:٢٢]، وقد خاطب نوح ربه - وهو أعلم به - بأنه استخدم كل أساليب الدعوة مع قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[نوح:٥-٩].

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ٢٦٦)، وقيل: إنه يتلقى كل يوم من الله، وكلما جاءت رسالة بلغها إلى قومه، (نفس السابق).

وقد دلت النصوص القرآنية على أنه اجتهد في دعوته وأكثر في جدالهم، من ذلك:

١- أنه دعاهم ليلًا ونهارًا .. سرًّا وجهارًا.

٢- أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما نص القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:١٤].

٣- رد قومه عليه: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[هود:٣٢].

حججه في دعوته:

ساق نوح عليه السلام لقومه الحجج البالغة على دعوته، والتي أكدت بُعدين أساسيين:

الأول : قدرة الله العظيمة في هذ الكون.

الثاني: نعم الله التي تعمهم وتحيط بهم، وبعضها يتجلى في خلقهم .

وهذا ما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[نوح:١٠-٢٠].

مسلك الإقناع العقلي:

سلك نوح عليه السلام مسلك الإقناع العقلي - من ضمن ما سلك من مسالك الإقناع مع قومه، وقد صور القرآن الحوار العقلي الجدلي بين نوح وقومه تصويرًا بالغًا في مراحله المختلفة، ففي إنكارهم لدعوته واعتباره في ضلال مبين، صور ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الأعراف:٦٠-٦٣].

لكن قومه اتهموه بأنه ليس رسولًا؛ لأنه بشر، وأن من اتبعه هم الأراذل، كما اتهموه ومن اتبعه بالكذب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[هود:٢٧-٣٢].

مسلك الترهيب:

ثم لجأ نوح عليه السلام إلى مسلك الترهيب؛ تخويفًا وإنذارًا لهؤلاء الذين لم يُجدِ معهم الترغيب، أو تبصيرهم بقدرة الله ونعمه عليهم، ولم يُجدِ - كذلك - معهم الحوار العقلي الذي يثبت فساد عقيدتهم وبطلان حججهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود:٢٥، ٢٦]، و: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

[الأعراف:٥٩].

وقد ظل نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت:١٤]، بكل وسائل الدعوة وصورها، ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا .. جدالًا عقليًّا وحوارًا ترغيبيًّا ثم إنذارًا ترهيبيًّا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[نوح:٥]، و: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[نوح:٨، ٩].

موقف قومه:

يتضح موقف قوم نوح عليه السلام منه ومن دعوته من خلال عدة نقاط:

١- الإعراض عن سماع الدعوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾

[نوح:٧].

٢- عدم الإيمان بنوح كرسول، واتهامه بالضلال والكذب والجنون وبأنه ليس رسولًا لأنه بشر مثلهم، كما أخبر الله - تعالى - في عدة مواضع من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ

يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف:٦٠، ٦١]، وقوله ﷻ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾[هود:٢٧]، وقوله ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء:١١١]، وقوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴾[القمر:٩].

٣- التمسك بآلهتهم المزعومة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾[نوح:٢٣].

٤- ازدياد فرارهم وضلالهم، كما في قوله ﷻ: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ [نوح:٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴾[نوح:٢٤].

٥ ـ تهديدهم له عليه السلام بالرجم إن لم ينتهِ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾[الشعراء:١١٦].

دعوة نوح على قومه:

لما استنفذ نوح عليه السلام كل ما يملك من طاقة دعوية في سبيل هداية قومه؛ حيث لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا وضلالًا، وعلم من الله بإغلاق قلوبهم عن الدعوة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [هود:٣٦]، لما كان هذا، وبلغ الجهد منه غايته، وأيقن أن وجود هؤلاء القوم يضلل عباد الله في أرضه، وأنهم توعدوه ليقتلوه رجمًا بالحجارة إن لم ينتهِ من دعوته، توجه إلى ربه ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الشعراء:١١٧، ١١٨]، و: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ

فَٱنتَصِرۡ﴾[القمر:١٠]، و: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾

[نوح:٢٦-٢٨].

صنع السفينة ونجاة المؤمنين وإغراق الطاغين:

لما وصل الأمر بالدعوة إلى هذا الحد، وعلم الله ﷻ أنه لن يؤمن من قوم نوح إلا من قد آمن، وأن هؤلاء القوم استحقوا العقاب المقدر لهم، واستجابة لدعوة نبيه عليه السلام أوحى الله إليه بصنع سفينة؛ ليحمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهله إلا من سبق عليه القول؛ ومن آمن، وكانت السفينة هي الوسيلة المناسبة آنذاك لنجاة هؤلاء جميعًا؛ لأن العقاب هو الإغراق من فوقهم ومن أسفل منهم، فكانت السفينة هي الوسيلة التي صنعها نوح بأعين الله ووحيه ضد هذا العقاب، فلم تغرق: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾[هود:٤٢].

لبى نوح عليه السلام أمر ربه فأخذ في صنع السفينة، وكان قومه يسخرون منه كلما مروا عليه، وهو يعدهم أنه ومن آمن معه سيسخرون منهم كما يسخرون هم، وأتم نوح عليه السلام صنع السفينة بما يقتضيه الحال من الجودة والاتساع، وبما يتناسب مع ما سيحمل فيها من الكائنات المختلفة. ويكفي المتكلمين والباحثين في تفاصيل أمر السفينة أن يعيشوا ببصريتهم لحظات في كنف التقرير القرآني الذي يجسد بشكل غير مباشر كنهها من حيث الجودة والقوة، وهذا التقرير تذكره عدة نصوص:

الأول: قوله ﷻ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[هود:٣٧].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[القمر:١٣، ١٤].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾[هود:٤٢].

وبعد أن أتم نوح عليه السلام صنع السفينة(*) أمر بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهله إلا من سبق عليه القول، ومن آمن معه؛ تلبية لأمر ربه، وكان ممن سبق عليه القول من أهله ابنه، وانطلقت السفينة تجري بأعين الله وعنايته إلى حيث أراد تعالى لها حتى استوت على الجودي: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[هود:٣٧-٤٣].

وعن قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ

(*) ذكر الطبري عدة روايات عن طول السفينة وعرضها ومدة صنعها، وعن المادة التي صنعت منها، ومدة نزل المطر من السماء، وهل التنور فار بالهند أم بالكوفة، وعدد من ركب السفينة معه، وتفاصيل أخرى لا فائدة من الإجهاد لمعرفتها؛ لأنها لم يأتِ بها نص قطعي الثبوت ولا حتى الدلالة، فأضحت محلًا لتأويلات وأهواء لا تعتمد على واقع صحيح، كما أن العلم بهذه الأمور لا يحمل فائدة تستحق الإجهاد لتحقيق معرفتها التي تبدو مستحيلة، (تاريخ الطبري، ١/ ١٨١ - ١٨٣).

مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر:١٤، ١٥] قَالَ قَتَادَةُ: «أَبْقَى اللهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[١].

العقاب:

وكانت وسيلة العقاب التي اقتضتها الحكمة الإلهية لهؤلاء القوم هي الإغراق؛ حيث انطلق الماء من أبواب السماء وعيون الأرض حتى التقى على أمر قد قُدِر: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر:١١، ١٢]، و: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤]، و: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات:٧٦].

الطوفان ومدى عموميته:

جاء حديث القرآن الكريم عن الطوفان مقتضبًا في المبني، كاملًا في المعنى، إذ فاضت السماء بمائها، وفجرت الأرض بعيونها، فالتقى الماء وعم الأرض، والله أعلم بحالها: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر:١٠-١٢].

وقد نقل ابن كثير عن «جماعة المفسرين» أن الماء ارتفع فوق أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعًا، وذكر أن هذا الذي عند أهل الكتاب، وقيل: ثمانين ذراعا، وعلى جميع الأرض: طولها وعرضها، سهلها وجبلها وقفارها ورمالها، ولم يبقَ على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير[٢]، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:١٤].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، (٦/ ١٤٣) .
(٢) البداية والنهاية: (١/ ١٣٠).

مسألة ابنه(*):

بعاطفة الأبوة نادى نوح ابنه ليكون مع الفئة المؤمنة، وأن يركب سفينة النجاة، وألا يكون مع الكافرين الذين سيعمهم العقاب، ولكنه أبى وبقي مع الكافرين، ظنًّا منه أن اعتصامه بالجبل سيحميه من عقاب الله، كما أخبر الله ﷻ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾

[هود: ٤٢، ٤٣].

فهذ الابن عق أباه بعد أن عق ربه، فنادى نوح ربه مستشفعًا له عنده؛ لأنه من أهله، وقد وعده الله بأن يحمل معه أهله في السفينة، لكن الله أعلمه أنه ليس من أهله؛ لأنه عمل غير صالح: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هود:٤٥-٤٧].

المؤمنون، وذرية نوح بعد الطوفان:

أذن الله بانتهاء العقاب، فابتلعت الأرض ماءها، وأقعلت السماء، ووصلت السفينة إلى حيث أراد الله لها: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[هود:٤٤].

(*)الابن المقصود هنا هو «يام» حسب رواية الطبري، تاريخ الطبري:(١/ ١٨٣)، وفي رواية منسوبة لابن عباس يقول فيها: إن كنعان هو الذي غرق وأن العرب تسميه «يام»، وذلك قول العرب: =

استوت سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي[1] بعد تلك الرحلة المحاطة بعناية الله ورعايته في خضم الكرب العظيم، حيث أراد الله لها أن تستوي: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[هود:٤٨]، فقد أراد الله تعالى أن تكون هذه الفئة القليلة من المؤمنين، وفي صحبتهم تلك الكائنات من كل زوجين اثنين - نواة لمجتمع إيماني وبيئة إيمانية مكتملة الجوانب، متسعة الأرجاء، ممتدة التاريخ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الصافات: ٧٦-٨٠].

وقد تولد من هذه الفئة أنبياء الله تعالى، وقد ذكر الله عددًا من هؤلاء الأنبياء والرسل؛ قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[مريم:٥٨]، بل إن ابن كثير يذكر تعليقًا على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧] أن الرسل من بعده كلهم من ذريته[2]، وأن كل من على وجه الأرض من سائر أجناس بني آدم، ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة، وهم: «سام وحام ويافث»[3].

=إنما هام عمنا يام، السابق: (١/ ١٩١)، وتفسير الطبري: (١٢/ ٣٩٦، ٤١٦)، و(١٧/ ٣٦)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٣)

(١) يُروى أنه يقع في جزيرة ابن عمر بالقرب من الموصل.

(٢) البداية والنهاية، (١/ ٢٥١).

(٣) ابن كثير في «البداية والنهاية»، (١/ ٢٦٨)، وهذه الأسماء جاءت في سفر التكوين في العهد القديم، مع ابنين آخرين لنوح وهما: «يام» و«عابر». وثمة حديث رواه سَمُرة بن جُندب عن النبيّ ﷺ قال فيه عن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝﴾: «سام وحام ويافث» الترمذي:=

عمر نوح عليه السلام:

ما ثبت - من خلال القرآن الكريم - أنه عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، أما المدة الزمنية التي كانت قبل ذلك، وبعد الطوفان، حين هبط بسلام مَن الله عليه وعلى ممن معه بعد استواء السفينة على جبل الجودي، وحتى مات، فلم يثبت بها نص صحيح .

=السنن، دار الغرب الإسلامي، (٥/ ٢١٨/ ح:٣٢٣٠)، قال عنه الترمذي: حسن غريب، وفي رواية أخرى لسمرة - أيضًا - عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش»، الترمذي في «سننه»، (٦/ ٢١٣/ ح:٣٩٣١)، وقد حسّن الترمذي هذا الحديث، وجاءت رواية سَمُرة عند الحاكم كالآتي: «أن النَّبيّ ﷺ قال: ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث أبو الروم»، المستدرك، (٢/ ٥٩٥/ ح:٤٠٠٦)، قال الذهبي: صحيح . كما أن هناك رواية لسعيد ابن المسيب في ذرية نوح عليه السلام يقول فيها: «وَلَدَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاثة سام، وحام، ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم وفي كل هؤلاء خير، وولد حام السودان والبربر والقبط، وولد يافث الترك = والصقالبة ويأجوج ومأجوج»، الحاكم في «المستدرك»، (٤/ ٥٠٩/ ح:٨٤٢٩)، وقد سكت عنه الذهبي .

هود عليه السلام

عدم وجود القصة في العهدين القديم والجديد:

لم تذكر قصة هود أو صالح عليهما السلام في أيٍّ من العهدين القديم أو الجديد، مما دفع البعض لعدم التأريخ لهما ضمن الأنبياء، واعتبارهما وأخبارهما مع قومهما من الأساطير[1].

موقع قوم عاد:

اشتهر لدى كثير من المؤرخين والمفسرين والجغرافيين أن موطن قوم عاد كان في اليمن من جنوب شبه الجزيرة العربية؛ اعتمادًا على عدة أدلة:

أولًا: ذكر الأحقاف في قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأحقاف:٢١][2]، فالأحْقافُ من الحِقْفُ، وهو أَصْلُ الرَّمْلِ[3]، وهذه المنطقة باليمن .

ثانيًا: تأكيد الكثير منهم أن مساكن قوم عاد كانت في منطقة الأحقاف من اليمن، وحددها ابن عباس، وقتادة، والسُّدِّيُّ، وابن إسحاق وغيرهم، بأنه

(١) يقول ابن كثير: فأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود وصالح في التوراة، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه، ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه، لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عاد وثمود وأمورهم بعض ما قيل ما يعلم به من ظن خلاف ما قلنا في شهرة أمرهم في العرب صحة ذلك. والمقصود أن عادًا كانوا عربًا جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام، (البداية والنهاية، ١/ ٣٠٤).

(٢) وقد نسب الطبري هودًا إلى سام بن نوح، تاريخ الطبري، دار التراث، (١/ ٢١٦) .

(٣) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر ـ بيروت ـ مادة (ح ق ف)، (٩/ ٥٣).

وادي الرمل المطل على البحر من أرض الشحر، ما بين عمان وحضرموت وعدن[1].

ثالثًا: ما رواه محمد بن إسحاق - بسنده - عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد حديث مع رجل من أهل حضرموت، من أن قبر هود عليه السلام في اليمن، على نحو ما قاله المؤرخون، وغيرهم، كما سبق[2]. وقد قال ابن كثير تعقيبًا على قول عليٍّ بن أبي طالب: «وَهَذَا فِيهِ فَائِدَةٌ أَنَّ مَسَاكِنَهُمْ كَانَتْ بِالْيَمَنِ، وَأَنَّ هُودًا عليه السلام دُفِنَ هُنَاكَ»[3].

قال الطبري: كانت عاد بهذه الرمل إلى حضرموت وَالْيَمَنِ كُلِّهِ، وَكَانَتْ ثَمُودُ بِالْحَجَرِ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّام إلى وادي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ[4]، ثُمَّ لَحِقَتْ عَادٌ بِالشَّحرِ فَعَلَيْهِ هَلَكُوا بِوَادٍ يُقَالُ لَهُ: مُغِيثٌ[5].

وهناك اتجاه آخر يرى أن الأحقاف في شمال شبه الجزيرة وليس في جنوبها، وهذا الاتجاه يشتمل على روايات قديمة، مثل قول الضحاك: إن الأحقاف جبل بالشام[6]، وآراء حديثة.

---

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٢٦٨)، والمسعودي: مروج الذهب، (١/ ٤١)، ولكنه لم ينص على اليمن، إنما قال: كانوا يسكنون الأحقاف من الرمل، وأن جدهم سام بن نوح كان يسكن من بلاد الحرمين إلى حضرموت إلى عمان، وياقوت: معجم البلدان، دار صادر - بيروت - ١٩٩٥م، (١/ ١١٥)، و(٥/ ٤٤٢)، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٦٦، دار صادر - بيروت -، وابن منظور: لسان العرب، مادة ح ق ف، (٩/ ٥٣)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٤٣٣).

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٢٦٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٤٣٤).

(٤) تفسير الطبري، (١/ ٢٠٤).

(٥) المرجع السابق، (١/ ٢٠٨).

(٦) ياقوت: معجم البلدان، (١/ ١١٥)، والضحاك أحد علماء التابعين، توفي في بداية القرن الثاني الهجري، قيل (١٠٢، أو ١٠٥، أو ١٠٦هـ).

الرأي الراجح: أما ما أرجحه فهو أن موطنهم ما حدده المؤرخون جنوبًا في اليمن، وما ذكروه شمالًا، والمنطقة الواقعة بينهما، وذلك لما يأتي:

أولًا: أن عادًا وثمود جاءا مقرونين في القرآن الكريم - غالبًا - وهما من الأمم العربية التي سكنت شبه الجزيرة العربية، وأن المسعودي يعتبر من أهم المؤرخين الذين تحدثوا عن موطن ثمود وآثارهم، ومعلومات أخرى عنهم؛ لأنه رأى تلك الآثار ووصفها، وبالتالي فشهادته ليست بعيدة عن هذه الأهمية بالنسبة لعاد، والمسعودي يقول - في أثناء حديثه عن قوم ثمود: «فكانت عاد بهذه الرمل إلى حضرموت وَالْيَمَنِ كُلِّهِ، وَكَانَتْ ثَمُودُ بِالْحَجَرِ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ إلى وادي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ»[1]، أي: إن موطن عاد هو مكان موطن ثمود، أو على الأقل جزء منه، ثم يمتد إلى اليمن، فيكون على ذلك توفيقًا للخلاف بين المؤرخين الذين حدد بعضهم جزءًا من اليمن بين حضرموت وعدن - كما سبق، وحدد بعضهم موطن عاد في الشمال، قريبًا من موطن ثمود أو مكانه، ويؤكد ذلك ما ذكره اليعقوبي - كما سبق - من أن ثمود «صاروا في ديار عاد بعد ذهابهم»[2].

ثانيًا: أن قوم عاد وما ذكر عنهم في القرآن الكريم والآثار - من قوة وجبروت وحضارة - لا يوافقهم هذا الموطن الضيق، مقارنة بصفاتهم وتاريخهم، الذي حدده المؤرخون في اليمن، وإنما يوافقهم هذا الامتداد - آنف الذكر - في جزيرة العرب، والذي طالما شغله من هو دونهم قوة وحضارة من العرب الذين جاءوا من بعدهم.

(١) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢٠٤).

(٢) تاريخ اليعقوبي، (١/ ٢٢).

عصر قوم عاد:

جاء ذكر قوم عاد في القرآن الكريم بعد قوم نوح، مثل قوله ﷻ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقوله : ﷻ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[غافر:٣١].

ويقدر أحد المؤرخين أن الحديث عن تحديد عصر لقوم هود إنما هو أمر بالغ الصعوبة، فالقصة قرآنية صرفة، وليس في القرآن الكريم - أو في السنة النبوية الشريفة - إشارة صريحة إلى ذلك، والآثار صامتة تمامًا في هذا المجال، وليس هناك أي نوع من الوثائق التاريخية التي يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها في الوصول إلى نتيجة يظن أنها الصواب، أو حتى قريبًا من الصواب، ومن ثم فإن المحاولة لا تعدو أن تكون حدسًا عن غير يقين[(١)].

على أننا ربما نستطيع أن نحدد ذلك العصر بالألف الثانية، قبل الميلاد على وجه التقريب؛ ذلك لأن القرآن الكريم إنما يذكر عادًا قبل ثمود، وهي دون شك أوضح تاريخًا من عاد، هذا إلى جانب أنه إنما يذكر عادًا كذلك بعد قوم لوط، أما ثمود فهي واحدة من القبائل العربية التي جاء ذكرها في الكتابات الآشورية، على أنها كانت تعيش في شمال شبه الجزيرة العربية منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وأما قوم لوط ، فقد كانوا معاصرين للخليل إبراهيم عليه السلام، وهو الذي حدد لعهده الفترة [١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م] على وجه التقريب، ومن ثم فإننا ربما نستطيع أن نقول - على رأي هذا المؤرخ: إن عادًا إنما كانت في الفترة ما بين عهد إبراهيم

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

الخليل وعهد ثمود، ومن هنا فربما لو وضعنا قوم عاد في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد لما تجاوزنا الصواب بكثير[1].

على أن الأمر قد يختلف كثيرًا إذا ما كان صحيحًا ما ذهب إليه بعض الباحثين من الربط بين «إرم» و«أرام»، وأن «إرم» إنما تتصل بالآراميين، وبمعنى آخر أن هناك صلة بين قوم عاد والآراميين عن طريق «عاد إرم»، فإذا كان ذلك كذلك، فإن قوم عاد إنما يرجعون إلى ما قبل ظهور الآراميين في العراق القديم في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وهذا يتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين والمفسرين الإسلاميين من أن عادًا إنما أتوا قبل إبراهيم عليه السلام، أي قبل القرن العشرين قبل الميلاد[2].

دعوة هود إلى قومه:

مثل سائر إخوانه من الرسل، بلَّغ هود عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأخذ هود يذكرهم بنعم الله عليهم، وأنه لا يبغي من وراء ذلك أجرًا، وإنما هو مكلف من قبل ربه بذلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[هود:٥٠-٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:٦٩].

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ في بلاد العرب، ص ٢٦٠.

(٢) المرجع السابق نفسه.

موقف قومه من دعوته:

قابل قوم هود دعوته بالصدود والجحود، واتهموه بالكذب والسفه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:٦٦-٦٩]، وتمادوا في جحودهم و﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[هود:٥٣، ٥٤]، وتعجبوا من كون الإله المعبود واحدًا، و﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأعراف:٧٠].

وهنا بين لهم هود حقيقة ما يعتقدونه وما يجادلونه فيه وموقفه منهم، قائلًا: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[الأعراف:٧١]، و: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[هود:٥٤]، و: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾[الشعراء:١٣٦]، و: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥]، و: ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود:٥٩]، وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:١٣٨]، و: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأحقاف:٢٢].

رسول واحد أم عدة رسل:

تدلنا ظاهر النصوص القرآنية على أن الله ﷻ أرسل إلى عاد أكثر من رسول، فهذه النصوص تأتي بالرسل على صيغة الجمع، وأقل الجمع ثلاثة: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[هود:٥٩]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء:١٢٣]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[فصلت:١٣، ١٤]، وقد رأى بعض العلماء في نفس هذه الصيغة - الجمع - مع قوم نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾[الفرقان:٣٧] أنها تدل على أن قوم نوح قد كذبوا رسلًا غير نوح عليه السلام، ويجوز أن يُعنى به نوح وحده؛ لأن من كذب بنبيٍّ فقد كذب بجميع الأنبياء؛ لأنه مخالف للأنبياء؛ لأن الأنبياء عليهم السلام يؤمنون بالله وبجميع رسله، ويجوز أن يكون يعني الواحد ويذكر لفظ الجنس[(١)].

حضارة القوم:

أمد الله عادًا بمقومات الحضارة في مختلف نواحيها المادية، فزادهم ﴿فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾[الأعراف:٦٩]، فكانوا في غايةٍ مِن القُوَّةِ والبَطْشِ الشَّدِيدِ، والطُّولِ المَدِيدِ، حتى دفعهم ذلك - مع عدم الإيمان - إلى الاستكبار في الأرض بغير الحق: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت:١٥].

---

(١) هذا قول الزجاج، ابن منظور: لسان العرب، (٥/ ٢١٤)، ويقول أحد المؤرخين هناك ما يشير إلى أن وجود عاد الأولى، وعاد الثانية، وأن عادًا الأولى إنما هي «عاد إرم» الذين كانوا يسكنون الخيام، وأن عادًا الثانية إنما هم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع، وربما كانوا هم قوم ثمود، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) بلاد العرب، ص٢٤٢).

كما أمدهم بالَأرْزَاقِ الدَّارَّةِ، وَالَأمْوَالِ وَالْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ، وَالَأبْنَاءِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ[1]، وأمدهم أيضًا بـ: ﴿بِأَنْعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾[الشعراء:١٣٣، ١٣٤]، فبعد أن كَانُوا يَسْكُنُونَ بُيُوتَ الشَّعر التي تُرْفَعُ بِالَأعْمِدَةِ الشِّدَادِ[2]، أصبحوا يبنون عند جواد الطرق المشهورة المباني المحكمة الباهرة التي تصبح معالم كبرى، ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾[الشعراء:١٢٨]، عبثًا لا لحاجة، إلا للعب وإظهار القوة ﴿تَعۡبَثُونَ﴾، ويبنون البروج المشيدة والمباني المخلدة، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾[الشعراء:١٢٩][3]، وبنوا مدينة ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[الفجر:٧، ٨].

قال ابن كثير: «وَهَؤُلَاءِ هُمْ عَادٌ الْأُولَى، الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ ابْنِ إِرَمَ، الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إلى العَمَدِ في الْبَرِّ، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[الفجر:٦]؛ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ بَأْسِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ[4]، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾[الفجر:٧]؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بُيُوتَ الشِّعر التي تُرْفَعُ بِالأَعْمِدَةِ الشِّدَادِ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ في زَمَانِهِمْ خِلْقَةً وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا، وَلِهَذَا ذَكَّرهم هُودٌ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ، وَأَرْشَدَهُمْ إلى أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا في طَاعَةِ رَبِّهِمُ الذي خَلَقَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[الأعراف:٦٩][5].

ويستنبط من التصوير القرآني لقوم عاد أنهم كانوا على درجة عالية من

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٦/ ١٥٢).
(٢) المرجع السابق، (٨/ ٣٩٤).
(٣) المرجع السابق، (٦/ ١٥٢).
(٤) المرجع السابق، (٣/ ٤٣٣).
(٥) المرجع السابق، (٨/ ٣٩٤).

التقدم الحضاري، وأنهم بلغوا من القوة حدًّا جعلهم لا يرون إلا أنفسهم فيها، بل إنهم استندوا إليها في رفضهم دعوة نبيهم استكبارًا بقوتهم، وأنه ـ كما يرون ـ لا يوجد مَنْ هو أقوى منهم، ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[فصلت:١٥].

وقد جاء هذا المعنى ـ أيضًا ـ على لسان نبيهم هود عليه السلام، مقررًا الحال وناكرًا الاستعمال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء:١٢٨-١٣٥]، فكان جواب نبيهم هود عليه السلام مخاطبًا عقلهم ومنطقهم الذي تحدثوا به، وهو أن مَنْ خلقهم أقوى منهم، فالخالق أقوى من المخلوق، كما أن الله تعالى أعطانا مجمل هذه المعاني في إيجاز بليغ، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[الفجر:٦-٨].

ووصف إرم هذه بأنها لم يخلق مثلها في البلاد دليل على أنها فاقت الحضارة المصرية القديمة، وهذه الحضارات العظيمة لم تصنع لنفسها مناعة ضد الفناء، ولم تترك شيئًا يدل عليها حتى يعرف الناس سرها وتقدمها، مما يدل على أن الله أخذها أخذ عزيز مقتدر[١].

وقد ذكر القزويني أن موطنهم كان أعمر بلاد الله وأكثرها زرعًا وشجرًا، وقال: إنه لما سلط الله تعالى عليهم الريح طمها بالرمل، وجعلها ـ تعالى ـ عبرة

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ٣٨٩).

للناظرين، وذكر أن بها قصرين من قصور عاد بساحل عدن، وأن معاوية لما بعث عبد الرحمن بن الحكم واليًا إلى اليمن، وبلغه خبر القصرين، وأن في بحرها كنزًا، طمع فيه وذهب في مائة فارس إلى ساحل عدن إلى أقرب القصرين، فرأى ما حولهما من الأرض سباخًا بها آثار الآبار، ورأى قصرًا مبنيًا بالصخر والكلس، وعلى بعض أبوابه صخرة عظيمة بيضاء[1].

العقاب:

يذكر العلماء أن الله قد بدأ عقاب عاد بجدب أرضهم فلم تعد تنبت، واستمر الحال هكذا بعض الوقت، حتى بعث الله ﷻ عليهم سحابة سوداء، فلما رأوها قادمة إليهم اعتقدوا أنها سوف تمطرهم ماء: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف:٢٤، ٢٥]، وعلى هذه الصورة كان هلاكهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[الحاقة:٦-٨]، وقال ﷻ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأحقاف:٢٥].

وهكذا استحقت عاد عقاب ربها، فأخذها أخذ عزيز مقتدر، ونجى الله هودًا ومن معه من المؤمنين: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[هود:٥٨].

وقد ذكرنا الله ﷻ بهؤلاء القوم من خلال ما بقي من مساكنهم، لنأخذ العبرة: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

(١) آثار البلاد وأخبار العباد، ص٦٦.

أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

[هود:١٠٢].

قبر النَّبيّ هود عليه السلام :

لم يثبت خبر صحيح في موقع قبر النَّبيّ هود عليه السلام، ومن ثم تباينت الآراء في ذلك، فبعضها ذهب إلى وجوده في المسجد الأموي في دمشق، أو غيره، لكن أقربها إلى الصحة ما ذهب إليه ابن إسحاق وغيره، من القول بوجوده في حضرموت باليمن؛ لترجيح كونه موقع قومه عاد[1].

(١) روى محمد بن إسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبًا أحمر تخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه، قال: لا، ولكني قد حدثت عنه، فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام. (الطبري: تفسير الطبري، ١٠/ ٢٦٨).

صالــح عليه السلام

نسب صالح عليه السلام وقومه ثمود:

تنسب الروايات صالحًا عليه السلام إلى ثمود الذي ينتسب إلى سام بن نوح، وبين صالح عليه السلام وثمود، وبين ثمود وسام أجداد آخرون[(١)]، وينسب المؤرخون المسلمون قوم ثمود إلى سام بن نوح[(٢)]، فيقول ابن كثير ـ مثلًا: إن ثَمُود عرفوا بِاسْمِ جَدِّهِمْ ثَمُودَ أَخِي جَدِيسٍ، وَهُمَا ابْنَا عَابَرَ ابْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ[(٣)].

موطنهم وديارهم:

أما عن موطنهم فيحدده المؤرخون المسلمون بالمنطقة الواقعة بين الحجاز والشام إلى ساحل البحر الأحمر، وديارهم في منطقة الحجر، أو «فج الناقة»، فيذكر اليعقوبي أنهم صاروا في ديار عاد بعد ذهابهم، وأن ملوكهم كانت تنزل الحجر[(٤)]، في حين يذكر المسعودي أنهم كانوا ينزلون الحِجْرَ بين الشام والحجاز، والمسعودي رأى آثارهم ووصفها، وعرف من خلالها معلومات عنهم، ويعد كلامه من أهم الوثائق التاريخية عن موطنهم وما ذكره من معلومات[(٥)]، يقول: «إن مُلك ثمود بن عابر بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر

---

(١) من ذلك: رواية تذهب إلى أن صالح بن أسف بن كماشج بن إرم بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام ابن نوح، (الطبري: تاريخ الطبري، دار التراث، ١/ ٢٢٦)، وأخرى تذهب إلى أن صالح بن عبد ابن ماسخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، (ابن كثير: البداية والنهاية، ١/ ٣٠٤).

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، (١/ ٢٢)، والمسعودي: مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية ـ بيروت ـ (١/ ٤٢).

(٣) البداية والنهاية، (١/ ٢٨٨).

(٤) تاريخ اليعقوبي، (١/ ٢٢).

(٥) مروج الذهب، (١/ ٤٢).

الحبشي ـ الأحمر ـ وديارهم بـ «فَجِ الناقة»، وبيوتهم إلى وقتنا هذا أبنية منحوتة في الجبال، ورسمهم باقية وآثارهم بادية، وذلك في طريق الحاج لمن وَرَدَ من الشام بالقرب من وادي القرى، وبيوتهم منحوتة في الصخر بأبواب صغار، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا، وهذا يدل على أن أجسامهم على قدر أجسامنا، دون ما يخبر به القصاص من بعد أجسامهم، وليس هؤلاء كعاد؛ إذ كانت آثارهم ومواضع مساكنهم وبنيانهم بأرض الشحر تدل على بعد أجسامهم»[(١)].

أما رواية المؤرخين والجغرافيين اليونان والرومان عن موطن قوم ثمود وديارهم فلا تختلف كثيرًا عن رواية المؤرخين المسلمين السابقين، وإن كانت أكثر تفصيلًا؛ إلا أن هذا التفصيل والذي اقترن بالتحديد الزمني في بعضه ـ على الأقل ـ خرج أحيانًا عن الدقة، بل عن الصحة، كما افتقر إلى الدليل اليقيني في الكثير منه، ويصبح نسبيًا فيما زاد فيه عن الرواية العربية ذات الخبرة بهذا الأمر، بل إن استرابون [مؤرخ وجغرافي يوناني ق ١ ق.م ـ ق ١ م] لم يذكر ثمود مطلقًا، ولعل في ذلك صلة بموقف العهد الجديد، الذي لم يذكر قوم عاد أو ثمود.

فيبدو من جغرافية بطليموس [ق٢ م] أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار عاد، وكلها في أعالي الحجاز، في منقطة الطرق التجارية التي تصل بين الشام ومصر من ناحية، واليمن والحجاز من ناحية أخرى، فإذا كانت «الحجر» وما والاها مواطن ثمود، وجب أن تكون ديار عاد على مقربة منها[(٢)].

وفي الوقت الذي يتجاهل فيه «استرابون» ـ اعتمادًا على مصدر من القرن الثالث ق.م ـ وجود قبيلة ثمود، فإن معاصره «ديودور الصقلي» [مؤرخ

(١) مروج الذهب، (٢/ ٤٢).
(٢) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

يوناني ق١ق.م] يذهب إلى أن ثمود إنما كانت تسكن شواطئ البحر الأحمر، ثم يأتي «بليني» [مؤرخ روماني ق١م] فيذهب إلى أن الثموديين إنما اتخذوا مواطنهم في الداخل، وليس على ساحل البحر الأحمر؛ ذلك لأن الرجل لم يكن ـ فيما يبدو ـ على علم باللحيانيين الذين كانوا يقطنون ـ وقت ذاك ـ سواحل مدين، والذين اعتبروا فرعًا من ثمود، وبعد ثلاثة أرباع القرن يأتي بطليموس فيحدد مواضع ثمود على شاطئ مدين، ثم يمتد بها حتى داخل الحجاز[١].

وهكذا يمكن القول بأن الثموديين إنما كانوا يسكنون في القرن الثاني [ق.م] وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي في بلاد مدين، فضلًا عن أننا نجدهم منذ بداية القرن الأول الميلادي في الحجاز والجوف ووسط الجزيرة العربية، وأنهم قد بقوا في هذه المناطق حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يمكن استنتاجه من المصادر الآشورية وإشارات المؤرخين العرب لأمكن القول: إنه منذ بداية القرن الثاني الميلادي، فإن المنطقة التي سكنها الثموديون قد اتسعت تدريجيًا حتى شملت بلاد العرب الشمالية والوسطى، ومن الحدود السورية شمالًا، إلى مسافة قريبة من حدود سبأ جنوبًا[٢].

عروبتهم:

يذكر الطبري أن قوم ثمود عرب يتكلمون اللسان المضري، وكانت العرب تسميهم: «العرب العاربة»؛ لأنه لسانهم الذي جبلوا عليه، وتقول لبني إسماعيل ابن إبراهيم: «الْعَرَبُ الْمُتَعَرِّبَةُ»؛ لَأنَّهُمْ إِنَّمَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِ هَذِهِ الأُمَمِ حِينَ سَكَنُوا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَعَادٌ وَثَمُودُ وَالْعَمَالِيقُ وَأُمَيْمٌ وَجَاسِمٌ وَجُدَيْسٌ وَطَسَمٌ هُمُ الْعَرَبُ،

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص٢٧٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٤، ٢٧٥ .

فكانت عاد بهذه الرمل إلى حضرموت وَالْيَمَنِ كُلِّهِ، وَكَانَتْ ثَمُودُ بِالْحِجْرِ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ إلى وادي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ[1].

دعوته إلى قومه:

دعوة صالح لقومه هي دعوة جميع الأنبياء إلى أقوامهم، فالنبي أخ لقومه، فهو منهم، يعرفهم ويعرفونه، يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويبشر من آمن منهم بالنعيم في الدنيا والجنة في الآخرة، وينذر من كفر منهم بعقاب الله في الدنيا، والنار في الآخرة.

وقد ذكر القرآن الكريم دعوة صالح عليه السلام لقومه وحججه عليهم وإنذاره لهم في عدة مواضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود:٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وقوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء:١٤٦-١٥٠].

موقف ثمود من دعوة صالح:

انقسم قوم صالح من دعوته قسمين، كما أخبرنا الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥]، والفريقان هما المستكبرون الذين كفروا بدعوته، والضعفاء الذين

(١) تاريخ الطبري، (١/ ٢٠٤).

آمنوا بها، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

[الأعراف:٧٥، ٧٦].

وعجبوا أن يكون قد أوحي إليه من بينهم؛ ويبدو أن هذا العجب أو الاستنكار ناتج عن كونه بشرًا، كما اتهموه بالكذب والسحر: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٤، ٢٥]، و: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الشعراء:١٥٣، ١٥٤]، وطالبوا صالحًا بمعجزة وعينوها له، وقالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الشعراء:١٥٤] فاستجاب الله لنبيه، فآتاهم المعجزة التي طلبوها؛ لتكون تأييدًا لنبيه في دعوته، وحجة عليهم: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[القمر:٢٧، ٢٨]، فعرض لهم نبيهم معجزة الله التي طلبوها، وعرفهم طريقة التعامل معها، وحذرهم مخالفة ذلك، فكانت بينة صالح عليه السلام ناقة أخرجها الله من الصخر لتكون لهم آية وبينة، وقد طلب منهم ألا يمسوها بسوء، فهي ناقة الله تأكل في أرض الله: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء:١٥٥، ١٥٦]، وأيضًا: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٧٣]، وهو ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[هود:٦٤].

عقر الناقة وعقاب قوم ثمود:

بدلًا من أن يؤمن قوم ثمود بدعوة نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد هذه المعجزة، تمادوا في كفرهم واستكبارهم وتحديهم لنبيهم وما حذرهم منه، فعزموا على ذبح الناقة التي أمروا ألا يمسوها بسوء، وإلا أخذهم عذاب أليم وقريب، فاتفقوا مع أشقاهم على ذبحها: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[القمر:٢٩]، وقد قال النَّبيّ ﷺ عند ذكر عقر الناقة: «**انْتَدَبَ لَهَا رَجُلٌ ذُو عِزٍّ وَمَنَعَةٍ في قَوْمِهِ كَأَبِي زَمْعَةَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، (١٤٨/٤/ ح:٣٣٧٧)، وقد وردت أخبار ثمود في حديث عن رسول الله ﷺ تفرد به شهر بن حوشب؛ قال: «كَانَتْ ثَمُودُ قَوْمَ صَالِحٍ، أَعْمَرَهُمُ اللهُ في الدُّنْيَا، فَطَالَ أَعْمَارُهُمْ حَتَّى جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَبْنِي الْمَسْكَنَ مِنَ الْمَدَرِ فَيَنْهَدِمُ وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ حَيٌّ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ اتَّخَذُوا مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ فَنَحَتُوهَا وَجَابُوهَا وَجَوَّفُوهَا، وَكَانُوا في سَعَةٍ مِنْ مَعَائِشِهِمْ، فَقَالُوا: يَا صَالِحُ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ لِيُخْرِجَ لَنَا آيَةً نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَدَعَا صَالِحٌ رَبَّهُ فَأَخْرَجَ لَهُمُ النَّاقَةَ، وَكَانَ شِرْبُهَا يَوْمًا وَشِرْبُهُمْ يَوْمًا مَعْلُومًا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ شِرْبِهَا خَلُّوا عَنْهَا، وَعَنِ الْمَاءِ وَحَلَبُوا عَنْهَا الْمَاءَ، فَمَلَئُوا كُلَّ إِنَاءٍ وَوِعَاءٍ وَسِقَاءٍ فَأَوْحَى اللهُ إلى صَالِحٍ أَنَّ قَوْمَكَ سَيَعْقِرُونَ نَاقَتَكَ، فَقَالَ لَهُمْ، فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَفْعَلَ. قَالَ: «إِنْ لَمْ تَعْقِرُوهَا أَنْتُمْ يُوشِكُ أَنْ يُولَدَ فِيكُمْ مَوْلُودٌ يَعْقِرُهَا»، قَالَ: مَا عَلَامَةُ ذَلِكَ الْمَوْلُودِ؟ فَوَاللهِ لَا نَجِدُهُ إِلَّا قَتَلْنَاهُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ غُلَامٌ أَشْقَرُ أَزْرَقُ أَصْهَبُ»، قَالَ: وَكَانَ في الْمَدِينَةِ شَيْخَانِ عَزِيزَانِ مَنِيعَانِ لِأَحَدِهِمَا ابْنٌ يَرْغَبُ عَنِ الْمَنَاكِحِ وَلِلْآخَرِ ابْنَةٌ لَا يَجِدُ لَهَا كُفُوًا، فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا مَجْلِسٌ، فَقَالَ، أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُزَوِّجَ ابْنَكَ؟ قَالَ: لَا أَجِدُ لَهُ كُفُوًا، قَالَ: فَإِنَّ ابْنَتِي كُفْءٌ لَهُ، وَأَنَا أُزَوِّجُ ابْنَكَ، فَزَوَّجَهُ فَوُلِدَ بَيْنَهُمَا ذَلِكَ الْمَوْلُودُ، وَكَانَ في الْمَدِينَةِ ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ في الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: «إِنَّمَا يَعْقِرُهَا مَوْلُودٌ فِيكُمْ»، فَاخْتَارُوا ثَمَانِيَةَ نِسْوَةٍ قَوَابِلَ مِنَ الْقَرْيَةِ، وَجَعَلُوا مَعَهُمْ شُرَطًا، فَكَانُوا يَطُوفُونَ في الْقَرْيَةِ، فَإِذَا وَجَدُوا امْرَأَةً تُمْخَضُ نَظَرُوا مَا وَلَدُهَا، فَإِنْ كَانَ غُلَامًا فَلَبِثُوا يَنْظُرُونَ مَا هُوَ، وَإِنْ كَانَتْ جَارِيَةً أَعْرَضُوا عَنْهَا، فَلَمَّا وَجَدُوا ذَلِكَ الْمَوْلُودَ صَرَخْنَ النِّسْوَةُ، قُلْنَ هَذَا الذي يُرِيدُ رَسُولُ اللهِ صَالِحٌ، فَأَرَادَ الشُّرَطُ أَنْ يَأْخُذُوهُ، فَحَالَ جَدَّاهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَقَالُوا: إِنْ كَانَ صَالِحٌ أَرَادَ هَذَا قَتَلْنَاهُ، وَكَانَ شَرَّ مَوْلُودٍ، وَكَانَ يَشِبُّ في الْيَوْمِ شَبَابَ غَيْرِهِ في الْجُمُعَةِ، وَيَشِبُّ في الْجُمُعَةِ شَبَابَ غَيْرِهِ في الشَّهْرِ، وَيَشِبُّ في الشَّهْرِ شَبَابَ غَيْرِهِ في السَّنَةِ، فَاجْتَمَعَ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ في الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ وَالشَّيْخَانِ، فَقَالُوا: نَسْتَعْمِلُ=

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن

=عَلَيْنَا هَذَا الْغُلَامَ لِمَنْزِلَتِهِ وَشَرَفِ جَدَّيْهِ فَكَانُوا تِسْعَةً، وَكَانَ صَالِحٌ لَا يَنَامُ مَعَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ، بَلْ كَانَ فِي الْبَرِّيَّةِ فِي مَسْجِدٍ يُقَالُ لَهُ: مَسْجِدُ صَالِحٍ فِيهِ يَبِيتُ بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ أَتَاهُمْ فَوَعَظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ، وَإِذَا أَمْسَى خَرَجَ فِيهِ يَبِيتُ بِاللَّيْلِ فَبَاتَ فِيهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَمْكُرُوا بِصَالِحٍ مَشَوْا، حَتَّى أَتَوْا على شِرْبٍ على طَرِيقِ صَالِحٍ، فَاخْتَبَأَ فِيهِ ثَمَانِيَةٌ، وَقَالُوا: إِذَا خَرَجَ عَلَيْنَا قَتَلْنَاهُ وَأَتَيْنَا أَهْلَهُ فَبَيَّتْنَاهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَاسْتَوَتْ عَلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعُوا وَمَشَوْا إِلَى النَّاقَةِ وهي على حَوْضِهَا قَائِمَةٌ، فَقَالَ الشَّقِي لِأَحَدِهِمْ: ائْتِهَا فَاعْقِرْهَا، فَأَتَاهَا فَتَعَاظَمَهُ ذَلِكَ فَأَضْرَبَ عَنْ ذَلِكَ، فَبَعَثَ آخَرَ فَأَعْظَمَ ذَلِكَ، فَجَعَلَ لَا يَبْعَثُ رَجُلًا إِلَّا يُعَاظِمُهُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا حَتَّى مَشَى إِلَيْهَا وَتَطَاوَلَ فَضَرَبَ عُرْقُوبَهَا، فَوَقَعَتْ تَرْكُضُ فَأَتَى رَجُلٌ مِنْهُمْ صَالِحًا، فَقَالَ: أَدْرِكِ النَّاقَةَ فَقَدْ عُقِرَتْ، فَأَقْبَلَ وَخَرَجُوا يَتَلَقَّوْنَهُ، يَا نَبِيَّ اللهِ: إِنَّمَا عَقَرَهَا فُلَانٌ لَا ذَنْبَ لَنَا، قَالَ: انْظُرُوا هَلْ تُدْرِكُونَ فَصِيلَهَا، فَإِنْ أَدْرَكْتُمُوهُ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهُ، وَلَمَّا رَأَى الْفَصِيلُ أُمَّهُ تَضْطَرِبُ أَتَى جَبَلًا يُقَالُ لَهُ: الْغَارَةُ قَصِيرًا، فَصَعِدَ وَذَهَبُوا يَأْخُذُوا، فَأَوْحَى اللهُ إلى الْجَبَلِ فَطَارَ فِي السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَنَالُهُ الطَّيْرُ»، قَالَ: «وَدَخَلَ صَالِحٌ الْقَرْيَةَ، فَلَمَّا رَآهُ الْفَصِيلُ بَكَى حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ صَالِحًا فَرَغَا رَغْوَةً، ثُمَّ رَغَا أُخرى، ثُمَّ رَغَا أُخرى، فَقَالَ صَالِحٌ: لِكُلِّ رَغْوَةٍ أَجَلُ يَوْمٍ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، إِلَّا أَنَّ آيَةَ الْعَذَابِ أَنَّ الْيَوْمَ الأَوَّلَ تُصْبِحُ وُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةً، وَالْيَوْمَ الثاني مُحْمَرَّةً، وَالْيَوْمَ الثَّالِثَ مُسْوَدَّةً، فَلَمَّا أَصْبَحُوا إِذَا وُجُوهُهُمْ كَأَنَّمَا طُلِيَتْ بِالْخَلُوقِ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ ذَكَرُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ، فَلَمَّا أَمْسَوْا صَاحُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَلَا قَدْ مَضَى يَوْمٌ مِنَ الأَجَلِ، وَحَضَرَكُمُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا الْيَوْمَ الثاني إِذَا وُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةٌ كَأَنَّمَا خُضِبَتْ بِالدِّمَاءِ، فَصَاحُوا وَضَجُّوا وَبَكَوْا وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَمْسَوْا صَاحُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَلَا قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مِنَ الأَجَلِ وَحَضَرَكُمُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا الْيَوْمَ الثَّالِثَ، إِذَا وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ كَأَنَّمَا طُلِيَتْ بِالْقَارِ فَصَاحُوا جَمِيعًا: أَلَا قَدْ حَضَرَكُمُ الْعَذَابُ فَتَكَفَّنُوا وَتَحَنَّطُوا وَكَانَ حَنُوطَهُمُ الصَّبْرُ وَالْمُرُّ، وَكَانَتْ أَكْفَانُهُمُ الأَنْطَاعَ، ثُمَّ أَلْقَوْا أَنْفُسَهُمْ بِالأَرْضِ، فَجَعَلُوا يُقَلِّبُونَ أَبْصَارَهُمْ إلى السَّمَاءِ مَرَّةً وَإِلَى الأَرْضِ مَرَّةً، لا يَدْرُونَ مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنَ الأَرْضِ خُشَّعًا وَفَرَقًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا الْيَوْمَ الرَّابِعَ أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ، وَصَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ صَوْتٌ فِي الأَرْضِ فَتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ»، قال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ جَامِعٌ لِذِكْرِ هَلَاكِ آلِ ثَمُودَ، تَفَرَّدَ بِهِ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، وَلَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ غَيْرَهُ وَلَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ إِخْرَاجِهِ، وَلَهُ شَاهِدٌ على سَبِيلِ الاخْتِصَارِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ دَلَّ على صِحَّةِ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ على شَرْطِ مُسْلِمٍ»، لكن الذهبي قال: أبوبكر بن عبدالله - أحد رجال السند - واهٍ، (المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ٢/ ٦١٧/ ح:٤٠٦٩).

كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف:٧٧]، ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود:٦٥]، فشرعوا في قتل نبيهم وأهله ليلًا، من خلال تدبير مؤامرة لتنفيذ ذلك، ثم اتفقوا على أن يُقسموا لِوليِّ دمه ما فعلوه: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[النمل:٤٨-٥٣]، وهكذا ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، فحل عليهم هذا العذاب الأليم في وقت قريب لم يتجاوز ثلاثة أيام، وبعد هذه الأيام القليلة أخذتهم ﴿ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[الأعراف:٧٨]، وأيضًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[القمر:٣١].

مدة دعوته في قومه وعمره:

ليس هناك خبر صحيح عن مدة دعوة صالح عليه السلام وعمره، لكن هناك رواية ذكرها الطبري تقول: إن بعض أَهْلِ العلم يروون أن صالحًا عليه السلام أَقَامَ فِي قَوْمِهِ عِشْرِينَ سَنَةً، وأنه تُوُفِّي بِمَكَّةَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً[(1)].

عصر ثمود:

من خلال ما يفهم من السياق القرآني عند ذكر صالح، عليه السلام وقومه «ثمود»، يُفهم أن عصر ثمود كان قبل وجود موسى عليه السلام وقومه، ومعروف تاريخيًّا أن موسى عليه السلام عاش في القرن الثالث عشر [ق.م]، وأن بعد ثمود أقوام لا يعلمها

(١) تاريخ الطبري، (١/ ٢٣٢).

إلا الله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩]، وعلى ذلك يمكن القول: إن عصر ثمود كان بعد عصر قوم عاد، وقبل القرن الثالث عشر[ق.م] على أقل تقدير، دون تحديده على وجه اليقين.

ويرى بعض المؤرخين أنه لا توجد أدلة علمية مؤكدة نستطيع أن نستند إليها في التأريخ لقوم ثمود، ومن ثم فإنه يرى ـ استنتاجًا ـ أن الثموديين بصفة عامة ربما كانوا يشغلون صفحات في التاريخ، منذ أوائل الألف الأول [ق.م]، وأنهم استمروا كذلك حتى القرن الخامس الميلادي؛ لأن لدينا كتابات آشورية تتحدث عن الثموديين صراحة منذ القرن الثامن [ق.م]، وبالتحديد منذ عهد سرجون الآشوري [٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م]، ولأن الذين حاربوا العاهل الآشوري لم يظهروا فجأة في التاريخ، وإنما لهم أسلاف عاشوا قبل ذلك بقرون لا ندري مداها على وجه التحقيق، وتحديد القرن الخامس الميلادي لأن لدينا نقشًا يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي [وبالتحديد إلى عام ٢٦٧م]، وكما أنهم لم يبدأوا فجأة، فإنهم لم يختفوا فجأة كذلك، ومن هنا قلنا: إنهم استمروا حتى القرن الخامس الميلادي، بل إن هناك ما يدل على أنهم كانوا في ذلك القرن فرسانًا في جيش الروم، وكانوا يعسكرون في مصر وفلسطين[(١)].

مرور النَّبيّ ﷺ على ديار ثمود وحديثه عنهم:

نزل رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحِجْرِ وهو في طريقه إلى تبوك [٩هـ]، والحجر هو موطن قوم ثمود، فخطب أصحابه فقَالَ ﷺ: «**لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ**

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٢٨١، ٢٨٢ .

صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ»، قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ»[1].

ويروي عبد الله بن عمر أنه عندما نزل المسلمون بالحجر مع رسول الله ﷺ اسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَاعْتَجَنُوا بِهِ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[2] ولَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالحِجْرِ قَالَ لأصحابه: «لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الوَادِي»[3].

حضارة ثمود:

ألمح القرآن الكريم إلى حضارة قوم ثمود في عدة مواضع، منها قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:٧٤].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٢٢/ ٦٦/ ح:١٤١٦٠)، والحديث رواه جابر بن عبد الله عن النَّبيّ ﷺ، قال محققو المسند: حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم، رجاله ثقات، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٣٧١/ ح:٣٣٠٤)، قال الذهبي: صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، (٤/ ١٤٩/ ح:٣٣٧٩).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: نزول النَّبيّ ﷺ الحجر، (٦/ ٧/ ح:٤٤١٩).

وتدل آثار ثمود على أنهم كانوا أصحاب حضارة قائمة على الاستقرار، والزراعة، وبناء القصور ونحتها في الجبال، ولذلك دلالات حضارية كثيرة، قال الله في ذلك: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٠]، وقال ﷻ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[الفجر:٩].

وتشير النقوش الثمودية إلى الحياة المستقرة التي كان يحياها القوم، ومن ثم فقد رأينا رسمًا يصور لنا عملية حرث الأرض، وهو عمل كثيرًا ما تتحدث عنه النقوش، كما كان البعض يوصف بأنه «أكار» أي: فلاح، كما، وردت كلمة: «عيان» بمعنى: سكة المحراث، وكل هذه ألفاظ تشير إلى مهنة الزراعة، كذلك الاسم «رال» الذي يعني قش، إنما يدل على زراعة أنواع مختلفة من الحبوب، والأمر كذلك في لفظة «زرأ» بمعنى: بذر[١].

وهناك ما يشير إلى أن القوم قد عرفوا زراعة العنب، بدليل وجود الاسم: «عناب» أي: تاجر العنب، ولعل هذا يجعلنا نميل إلى أن الرأي القائل: بأن زراعة الكروم لم تعرف في بلاد العرب إلا في القرن الرابع الميلادي إنما هو بعيد عن الصواب إلى حد كبير[٢].

وتشير الرسوم المتعددة لشجرة النخيل إلى أن ثمارها ربما كانت الغذاء الرئيس للثموديين، وهنا ما يشير إلى أن الثموديين قد عرفوا زراعة القطن كذلك، بدليل وجود الاسم: «برس» أي: شعر القطن، والاسم «هلق» أي: حلاج القطن،

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٢٨٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٤ .

الذي يشير إلى صناعته كذلك، كما أن هناك ما يشير إلى معرفة القوم بزراعة البصل والبخور والورود[1].

المجتمع الثمودي:

تدلنا الكتابات الثمودية على أن أصحابها إنما كانوا ـ في معظمهم ـ يعرفون القراءة والكتابة إلى حد ما، وقد سميت إحدى النساء «سحف»، أي: التي تخطئ عند القراءة ، كما أن هناك نصًّا يعرف منه أن فتاة صغيرة كتبت اسمها على الصخر، في حين كان والدها يراقبها عن قرب، فضلًا عن أن هناك من احترف مهنة الكتابة، بدليل وجود الاسم «كتب» أي: كاتب، هذا وقد كان القوم زراعًا، أقرب إلى الحضر منهم إلى أهل الوبر، وأن لهم مواطن استقرار ومعابد، وأن من بينهم من اشتغلَ بالتجارة، فضلًا عن الصيد الذي مارسه الثموديون، سكان مدين بصفة خاصة، وقد عثر على ثلاث رسومات في الجبال الداخلية لسفن كان يستعملها القوم في صيد الأسماك، وقد عثر على سفن من نفس الطراز في صخور وادي الحمامات في صحراء مصر الشرقية، بجوار بعض النقوش الثمودية، الأمر الذي يحمل على الظن بأنها مراكب استعملها القوم في عبور البحر الأحمر، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن فريقًا من المجتمع الثمودي إنما كانوا بدوًا رُحَّلًا، ومن بينهم من كان يعمل في تجارة القوافل، أو من «أهل العير» على حد تعبير النقوش[2].

---

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص٢٨٤، ٢٨٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٦، ٢٨٧ .

إبراهيم عليه السلام

هو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء، وهو الذي جمع خصال أمة كاملة من المؤمنين، وهو صاحب أعظم الابتلاءات، وهو الذي أنجبت دعوته خاتم النبيين وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين، محمد الصادق الأمين ﷺ.

المدة بين نوح وإبراهيم:

ثمة رواية عن النَّبيِّ ﷺ حدد فيها المدة بين آدم ونوح، وبين نوح وإبراهيم عليه السلام بأنها عشرة قرون، وذلك في أثناء سؤال أحد الصحابة له عن عدد الرسل والأنبياء، وعن هاتين الفترتين، فقد سأله الصحابي: كَمْ بَيْنَ آدم وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ ﷺ: «عَشْرة قُرُونٍ»، قَالَ: كَمْ بَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «عَشْرة قُرُونٍ»[1].

نسبه ووالده:

نسب العهد القديم إبراهيم عليه السلام إلى سام بن نوح، بواسطة سلسلة من الأجداد، فنص على أن: أبرام - إبراهيم - بن تَارح بن ناحور بن سَرُوج إلى أن يتصل النسب بسام بن نوح[2]، وأن تَارح - والد إبراهيم - عندما بلغ السبعين من عمره أنجب أبرام - إبراهيم - وناحور وهاران[3]، وولد هاران لوطًا، ومات هاران

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٢٨٨/ ح:٣٠٣٩)، وقد صححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم، أما الراوي فهو أبو أمامة.

(٢) العهد القديم: سفر التكوين، إصحاح ١١: ١٠ - ٢٧، وفي التوراة السامرية: «ترح بن نحور ... إلى سام بن نوح»، سفر التكوين، إصحاح ١١: ٢٧، وقد نقل المؤرخون هذا النسب عن العهد القديم، ومنهم اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر - بيروت - (١/ ٢٢)، المسعودي: مروج الذهب، (١/ ٤٤)، وابن كثير: البداية والنهاية: (١/ ٣٢٤).

(٣) سفر التكوين: إصحاح ١١: ٢٦، ٢٧.

قبل تارح أبيه في أرض مولده في أور الكلدانيين[1]، وأور الكلدانيين هي العراق، لكن خلاف المؤرخين في كون «أور» جنوب العراق، أم شمالها في الجزيرة الفراتية.

ـ وأخذ الرواة المسلمون برواية العهد القديم في نسب إبراهيم عليه السلام، فقد رواها عكرمة، وغيره، وقال عنها ابن كثير: «وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ السِّيَرِ وَالتَّوَارِيخِ وَالْأَخْبَارِ، وَصَحَّحَ ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ»[2].

أما ما يخص اسم والد إبراهيم عليه السلام، فهناك نصان صريحان وصحيحان ـ على الأقل ـ في تعيين والده بـ: «آزَرَ»:

ـ الأول: قرآني، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٧٤].

ـ الثاني: نبوي، وهو قول النَّبيّ ﷺ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعلى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ على الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»[3].

---

(١) سفر التكوين: إصحاح ١١: ٢٨.

(٢) البداية والنهاية، (١/ ٣٢٦)، لكن ابْن عَبَّاسٍ قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها: برزة في جبل يقال له: قاسيون، فرد عليه ابن عساكر قائلًا: الصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام؛ لأنه صلى فيه إذ جاء معينا للوط عليه السلام.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٤/ ١٣٩/ ح:٣٣٥٠) والحديث رواه أبو هريرة.

أما الآراء الأخرى لعلماء المسلمين، فقد اختلف أهل الرأي في اسم والد إبراهيم عليه السلام، إذ أوّل بعضهم اسم آزر في هذين النصين، وتبع بعض آخر هذا التعيين، فقال بعضهم: آزر هو اسم والد إبراهيم، ومن هؤلاء: مجاهد[1] والسُّدِّي ومحمد بن إسحاق[2] وقال بعض آخر: اسم أبيه تَارِحُ، وآزَرُ: اسْمُ صَنَمٍ، ومن هؤلاء: ابن عباس، ومُجَاهِدٌ[3]، وقال اليعقوبي أيضًا: إن اسم أبي إبراهيم تارح[4]، ورأي ثالث يقول: اسمه آزَرُ، وتَارِحٌ، مِثْلُ إِسْرَائِيلَ وَيَعْقُوبَ[5]، وقال به المسعودي أيضًا[6]، والذهبي[7].

أما الطبري فقال: أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ بِالصَّوَابِ مَنْ قَالَ: هُوَ اسْمُ أَبِيهِ؛ لَأنَّ اللهَ - تَعَالَى - أَخْبَرَ أَنَّهُ أَبُوهُ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْمَحْفُوظُ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ دُونَ الْقَوْلِ الْآخَرِ الذي زَعَمَ قَائِلُهُ أَنَّهُ نَعْتٌ. وردًّا على من قد يقول: إن علماء الأنساب يَنْسِبُونَ إِبْرَاهِيمَ إلى «تَارِح»، فَكَيْفَ يَكُونُ آزَرُ اسْمًا لَهُ؟! قال الطبري: غَيْرُ مُحَالٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْمَانِ، كَمَا لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي دَهْرِنَا هَذَا، وَكَانَ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَقَبًا، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ[8]، ويظهر من قول ابن كثير: «كَأَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ آزَرُ لخدمته ذلك الصنم»[9] ترجيحه لآزر كاسم لأبي إبراهيم، كما رجح

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٣/ ٢٨٨).

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (٩/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٣) المرجع السابق، (٩/ ٣٤٣، ٣٤٤)، وابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٣٢٤).

(٤) تاريخ اليعقوبي، دار صادر - بيروت (١/ ٢٢).

(٥) تفسير الطبري، (٩/ ٣٤٣).

(٦) مروج الذهب، (١/ ٤٤).

(٧) تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي - بيروت - ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، (١/ ١٩).

(٨) تفسير الطبري، (٩/ ٣٤٤).

(٩) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٢).

الطبري قبله، كما ناقش عدد من العلماء المعاصرين هذه المسألة، وكانت لهم فيها آراء[1].

قوم إبراهيم عليه السلام:

وأما قوم إبراهيم - كما يذهب بعض المؤرخين - فهناك من يجعلهم من المجموعة الآرامية، التي تزوج منها إسحاق ويعقوب، وسواء أصح هذا أم لا فإن قوم إبراهيم عليه السلام قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية، التي نشأوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة، ولعل في تفكير إبراهيم في إسكان زوجته المصرية وابنه إسماعيل منها في منطقة مكة المكرمة، هربًا من ضرتها سارة، لم يكن على الأرجح بمحض الصدفة؛ ذلك لأن الصدفة لم يكن لها محل في تنظيم مثل هذه الخلافات العائلية عند رؤساء العشائر الأقدمين، وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد اختار هذه المنطقة، فمما لا شك فيه أنه هو شخصيًّا كانت له صلات قرابة وصلات حلف وذمة مع سكانها، وإلا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته وابنه[2].

إلا أن سياق الأحداث الدينية، وكذلك البُعد الديني لشخصية إبراهيم عليه السلام كنبي، والظروف المكانية التي وضع فيها إبراهيم زوجته وابنه الرضيع، تجعل هذا الرأي بعيدًا عن الصواب، وذلك لما يأتي:

---

(١) ومن هؤلاء: عبد الوهاب النجار في «قصص الأنبياء» (ص١٠٦ -١١٠)، ورجح قول مجاهد وغيره: لم يكن بأبيه ولكن آزر اسم صنم، فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة، كأنه قال: وإذ قال إبراهيم أتتخذ آزر إلهًا، أي: أتتخذ أصنامًا آلهة، ويرى بعض المفسرين أن آزر من عمومة إبراهيم وليس الأب الصلب له، وبذلك يسلم لرسول الله ﷺ أنه نقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، (الشعراوي: قصص الأنبياء، ١/ ٤٦٣)، وهذا تأويل سديد، ومما يؤيد ذلك ما جاء في الحديث من قول إبراهيم: «أبي الأبعد».

(٢) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص١٢٢.

أولًا: أنه ثبت أن الله هو الذي أمر إبراهيم بوضع زوجه وابنه في هذا المكان، هكذا كان جواب إبراهيم عليه السلام على زوجه هاجر عندما سألته عن ذلك، كما جاء في الحديث الصحيح .

ثانيًا: لو كان لإبراهيم صلات قرابة وحلف في هذا المكان لما ترك زوجته وابنه الرضيع في هذا المكان القفر، بل لجعلهما بجوار وفي رعاية بعض أقربائه أو أحلافه، لا سيما وهما في هذا الضعف الشديد، وهذا المكان الذي ليس به حتى الماء.

واستنتاجًا لحيثيات هذا المؤرخ، فإنه يذهب إلى القول بأن إبراهيم الخليل كان عربيًّا خالصًا من سلالة العرب العاربة التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح، كما أنه سوف يكون أبَ العرب العدنانية الذين هم أبناء إسماعيل، وهو بهذا جد العرب، قبل أن يكون جد الإسرائيليين[1] .

عصره :

ثمة رواية اشتهرت عند المؤرخين مفادها أن إبراهيم عليه السلام ولد في عهد النمرود بن كنعان بن كورش، ويقال: إن النمرود هو الضحاك، وأن النمرود هذا هو أول ملك في الأرض شرقها وغربها، ويتصل نسبه بسام بن نوح، وهو أحد أربعة ملوك ملكوا الأرض كلها: نمرود، وسليمان بن داود، وذو القرنين، ونبوخذ نصر: مؤمنان وكافران[2]، وقد واجهت هذه الرواية نقدًا شديدًا من بعض المؤرخين[3] .

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص١٢٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ١٤٢، ١٤٣)، وابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ١٦٨) .
(٣) إذ يقول أحد ناقديها: إن تلك الأسطورة التي تتردد في المصادر العربية -دون غيرها من =

وبعد أن عرض أحدهم لاختلافات الآراء في عصر إبراهيم عليه السلام قال: ولهذا كله فليس أمامنا سوى أن نفترض - حدسًا عن غير يقين - أن الرأي الذي يجعل الخليل يعيش حوالي عام [١٩٠٠ ق.م] أقرب إلى الصواب من غيره، على أساس أن بني إسرائيل قد خرجوا من مصر في أخريات القرن الثالث عشر [ق.م]،

=المصادر التاريخية - عن الملوك الأربعة الذين حكموا الدنيا بأسرها لا تتفق والحقائق التاريخية أبدًا، فأول هؤلاء الملوك - وأعني به نمرود - قد لا يعلم أصحاب هذه الأسطورة أن التاريخ البابلي لا يعرف ملكًا بهذا الاسم - حتى الآن على الأقل - وأكبر الظن أنهم أخذوه من توراة يهود، حيث جاء فيها: «وكوش ولد نمرود»، على أن التاريخ يعرف بلدًا باسم «نمرود» على مجرى الزاب الأعلى، وقد كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية على أيام سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، وهي نفسها مدينة «كالح» في التوراة . وهكذا خلط كاتب سفر التكوين - كما يقول هذا المؤرخ - بين الملك والمدينة، ثم جاء مؤرخونا ونقلوا ما في التوراة .

وأما «نبوخذ نصر» - أو بختنصر كما يدعونه - (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م)، فلم يكن ملكه يزيد - بحال من الأحوال - عن سورية بمعناها القديم، فضلًا عن العراق، وربما تأثر الكتاب المسلمون بروايات التوراة عن «نبوخذ نصر»، الذي كتب له القضاء على البقية الباقية من الكيان السياسي لليهود في فلسطين، ثم القيام بالأسر البابلي المعروف في التاريخ، وهكذا تأثر بعض الكتاب بكتابات اليهود عن الرجل .

وأما سليمان بن داود عليهما السلام فإن المصادر التاريخية جميعًا بما فيها التوراة، تتفق - هذا إذا استثنينا المصادر العربية - على أن ملك النبي الكريم لم يتجاوز فلسطين بحدودها المعروفة، بل إن التوراة نفسها - على الرغم من المبالغات المعروفة عنها، بخاصة إذ كان الأمر يتصل بملك سليمان - ترى أن مملكة إسرائيل في أقصى اتساع لها، وفي أزهى العهود، إنما كانت «من دان إلى بئر سبع»، وهي حدود قد لا تشمل حتى فلسطين كلها .

وأما الإسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٢٣ ق . م)، إن كان هو المقصود بذي القرنين، وهو أمر تحيط به الشكوك، فلعله أكثر الأربعة اتساعًا في الملك، ولكنه بالتأكيد لم يملك الدنيا بأسرها، كما أنه لم يكن مؤمنًا، بل إن الرجل إنما كان يؤله في كل بلد تضعه الأقدار تحت حكمه، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - في بلاد العرب - ص ١٧ - ١٩). أما ما يخص ذي القرنين، فإن الرواية العربية والإسلامية - والتي سبق ذكرها عند الطبري وابن كثير - تقصد ذي القرنين الذي تحدث عنه القرآن الكريم في سورة الكهف، والذي يرجح - على رأي الكثير من العلماء - أنه الملك الفاسي «كورش - أو قورش» .

في عصر مرنبتاح [١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ق.م]، وأنهم جاءوا على أيام الهكسوس، حوالي عام [١٦٥٠ ق . م]، ولما كانت مدة إقامتهم في مصر ـ كما يحددها سفر الخروج ـ [٤٣٠] سنة، فإن قدوم إبراهيم إلى كنعان يصبح حينئذ في حوالي عام [١٨٥٠ ق . م]، ولما كان قد هاجر إلى كنعان، وهو في الخامسة والسبعين من عمره، فهو قد ولد حوالي عام [١٩٤٠ ق. م]، وبهذا يكون قد عاش في الفترة [١٩٤٠ ـ ١٧٦٥ ق . م]، على أساس أنه قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وعمره [١٧٥] عامًا(١).

التطلع إلى كيفية قدرة الله في إحياء الموتى:

كان إبراهيم عليه السلام مؤمنا بقدرة الله تعالى في إحياء الموتى إيمانًا ينأى عن الشك، بدليل الفهم الصحيح لقول الرسول ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ﴾ [البقرة:٢٦٠](٢)».

يقول بعض المفسرين: إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًّا؛ لأن رسول الله ﷺ قال «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» إذ قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ﴾[البقرة:٢٦٠]، ونحن المسلمين لم نشك في هذا الأمر؛ إذن فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى؛ لأن الرسول الكريم قال

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ١٢٦، ١٢٧، وتذكر التوراة أن إبرام قد ولد في بياض خرسان مع أبيه «ترح»، ثم أخرجه «ترح» مع «لوط» وبقية أهله إلى حران (التوراة السامرية: تكوين إصحاح ١١: ٢٧ـ٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، (٦/ ٣١/ ح:٤٥٣٧)، والحديث رواه أبو هريرة، ومسلم في «صحيحه»، بَابُ: زِيَادَةِ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ بِتَظَاهُرِ الْأَدِلَّةِ، (١/ ١٣٣/ ح:١٥١).

ـ ما معناه: إن كان هناك شك فنحن أولى بالشك من إبراهيم، وإبراهيم عليه السلام لم يشك؛ بدليل منطق الآية: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾، أي: إنه يطلب الحال التي تقع عليها عملية الإحياء.أما اطمئنان قلبه فإنه أراد أن يطمئن إلى الكيفية، ويطمئن إلى أنه أدار بفكرة الكيفيات التي يكون عليها الإحياء؛ لأنه لم يعرف على أي صورة يكون الإحياء. إن الاطمئنان هنا قادم لمراد في كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة[1]، وذكر البعض أنه أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين .

دعوته لأبيه:

توجه إبراهيم عليه السلام بدعوته أول الأمر ـ كما يدل السياق ـ إلى أبيه، مستخدمًا أسلوبًا عقلانيًّا، واستدلالًا منطقيًّا، في إطار من الأدب معه والرفق، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[مريم:٤١-٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[الأنعام:٧٤]، والملاحظ هنا أن آزر كان يعبد عدة آلهة،

---

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء: (١/ ٦٠٦، ٦٠٧).

وليس إلهًا واحدًا كما يشير النص القرآني: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾، وكذلك قوله ﷻ : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، وكما هو واضح من الآيات الكريمة فإن إبراهيم عليه السلام قد استخدم في دعوته لآزر أسلوب الرفق وإثارة العاطفة وتحريك المشاعر، عساه بذلك ينفذ إلى تلك القلوب القاسية التي ران عليها ما كسبت، وأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة، فيدخلها نور الإيمان فتهتدي من ضلالها المبين، وهكذا كان أسلوب إبراهيم عليه السلام: «يا أبت... يا أبت ... يا أبت ...»، كذلك كان الإقناع العقلي طريقته في دعوته هذه؛ فهذه الآلهة لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عمن يعبدها شيئًا. وأن إبراهيم قد أوتي من العلم ما لم يؤتَ آزر، واتباع ذي العلم يهدي إلى الصراط السوي، فضلًا عن ذلك، فإن عبادة الشيطان ـ ممثلة في تلك الآلهة ـ تؤدي إلى عذاب الله في الدنيا الذي يجعل عابدها وليًّا للشيطان. وفي غطرسة المتكبرين، وجحود الجاحدين، وإعراض الكافرين رد عليه آزر: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

وبأدبه المعهود وخلقه الجم، وهو أبو الأنبياء وخليل الرحمن وإمام الناس، وهو أمة في جماع خصال الخير، والأسوة التي ضربها الله لنا، يرد إبراهيم الخليل بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ليس هذا فحسب، بل قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، وقد صدق إبراهيم وعده فدعا له: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[الشعراء:٨٦].

وهنا نجد أنفسنا أمام قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة:١١٣]، ولم يترك القرآن الكريم برهة من الوقت

للحيرة أو التفكير بالتساؤل: كيف إذن يستغفر إبراهيم لأبيه آزر؟! والأول من المؤمنين - بل من أكثر ولد آدم إيمانًا - والثاني من المشركين، إذ يردف هذا القول بقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤].

ويوم القيامة لعل الأمر قد تغير عن الدنيا، وبنفس الروح يتوجه إبراهيم لربه - بعد طلب آزر منه ذلك - بألا يخزيه في أبيه، فقد قال الرسول ﷺ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»[(١)].

والأسوة ممتدة لأمة محمد ﷺ؛ اقتداء بفعل أبي الأنبياء والمؤمنين معه في مدلولات هذا النص القرآني: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:٤]

دعوته لقومه:

كانت دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه في إطار المنهج المعتاد لأنبياء الله ورسله مع أقوامهم وأممهم؛ من الدعوة بالرفق واللين، وإقامة الحجة ببطلان ما يعبدون

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قول الله ﷻ: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٢/ ١٠٣٣/ح:٣٣٥٠) الحديث رواه أبو هريرة.

من معبودات لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، وبالأحرى لمن يعبدونها، وبعضها تصنع بيد من يعبدونها، ثم إقامتها الحجة على أن هناك إلهًا واحدًا خلق كل شيء، وهو قادر على كل شيء، وليس له شريك أو مثيل، وجميع المخلوقات مأمورة بعبادته ﷻ وحده، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[الأنبياء:٥١-٥٦].

وقال ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[الشعراء:٦٩-٧٩].

وقال ﷻ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[العنكبوت:١٦-١٨].

وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ

ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

[الصافات:٨٣-٩٦].

وهكذا أخذ إبراهيم عليه السلام يحاور قومه ـ ساخرًا منهم ومما يعبدون ـ في هذه الأصنام والتماثيل التي اتخذوها آلهة من دون الله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء:٧٢، ٧٣]، وما كان جوابهم إلا أن: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء:٧٤]، ولم تكن هذه حجة لما يفعلون، ولا مبررًا لما يقترفون؛ لأن الإله لا يمكن أن يكون صنمًا يصنعه الناس أو تمثالًا ينحته عابدوه، وإنما هو الذي يخلق ويهدي .. ويُطعم ويسقي .. ويُمرض ويشفي .. ويُميت ويحيي.. ويغفر ويعفو، وهذه أوصاف إله إبراهيم ـ وإله العالمين ـ فهلا وعوا ذلك وأدركوه، وأخذوا به وطبقوه، بل في غفلة الغافلين، وجحود الجاحدين أبوا إلا أن يفعلوا كما فعل الأولون، وألا يقولوا إلا كما قال السابقون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

دحض لمعتقداتهم:

استخدم إبراهيم عليه السلام وسائله العقلية والواقعية، مثل سائر الأنبياء والرسل، لدحض معبودات قومه التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي لا تتسق مع فطرة سليمة ولا عقل قويم، ومن ذلك ما أثبته لهم إبراهيم عليه السلام واقعيًّا، ساخرًا ومتهكمًا، من أن هذه المعبودات تغيب ولا يبقى واحد منها ثابتًا ظاهرًا، مما ينفي عنها أدنى صفات الألوهية، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ

لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

[الأنعام:٧٥-٧٨].

فقد كان القوم يعبدون الكواكب والشمس والقمر، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد العقيدة، ولكن بأدب النبوة، ولذلك فإن هذا الأسلوب يقتضي أن يذكر الشيء وفيه نقص والناس لا تلتفت إليه، ولكن سياق الحركة يدل عليه، فكأن إبراهيم حين يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ يبدي استنكاره أن يكون هذا الكوكب إلهًا، وهو يتهكم على الذين يعبدونه، والدليل على ذلك هو سياق الحوار حين يقول: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾، وأفول النجم والقمر وغروب الشمس أمور شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات، فلا يمكن أن يكون قد فوجئ بأن النجم قد أفل، أو أن الشمس قد غابت، بل يعلم ذلك جيدًا؛ ولذلك فإن حواره كان سخرية منهم وتهكمًا عليهم، ولذلك أراد أن يلفتهم إلى هذه الحقائق التي غابت عن فطنتهم، ويقول لهم: كيف يمكن أن يغيب إله عن خلقه؟ وفي هذا تهكم وسخرية من قبيل قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[القصص:٦٢]، إذ ليس لله ﷻ شركاء، وكذلك: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩] فأي عز وأي كرم في المهانة التي يراها الكافر في النار؟! وكذلك قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ تهكم وسخرية، والدليل على ذلك أنه استخدم حقائق معروفة له من قبل؛ ليسخر من الكفار[1].

محاجة قومه له:

يصور القرآن الكريم محاجة قوم إبراهيم له في ربه، ويخوفونه من آلهتهم،

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (١/ ٤٩١-٤٩٣).

كما يستنكرون ما يدعوهم إليه إبراهيم عليه السلام من عبادة الله الواحد، ولكن إبراهيم ـ بما آتاه الله من حجة النبوة والعقل السليم والمنطق القويم ـ يستنكر موقفهم ويستعجب صدودهم عن دعوته لهم وسعيه لرشدهم وهدايتهم، وإخراجهم من هذا الضلال وذلك الطغيان المتمثل في عبادتهم ما ينحتونه بأيديهم مما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولم ينزل الله به سلطانًا، فمَنْ مِنَ الفريقين أحقّ بالأمن، إن كان لديهم علم أو عقل؟ قال تعالى مصورًا ذلك: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:٨٠-٨٣].

ولم تكن المحاجة ـ من قبل هذا الذي أتاه الله الملك أو من قبل قومه ـ بِدْعًا من علاقة الأنبياء بأقوامهم، فقد كانت إحدى الحلقات الثابتة في دعوة الأنبياء جميعًا، مع اختلاف الأسلوب وتباين المنطق، من قوم لآخرين، وقد باءت هذه المحاجة مثل غيرها من أمثالها بدحض مزاعم وادعاءات هذا الذي آتاه الله الملك، أو هؤلاء القوم؛ فبهت الأول، وخسر الآخرون: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨].

تحطيم إبراهيم للأصنام:

لم يكن من إبراهيم عليه السلام أمام هذا الجحود من قومه والكفر منهم، إلا أن يأتي على هذه القطع الحجرية وما شاكلها، لعل هذا الفعل الواقعي بهذه الآلهة يحرك العقول ويوقظ البصيرة لهؤلاء الجاحدين .

قال ﷻ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٨٨-٩٦].

وقال أيضا ﷻ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:٥٧-٦٧].

محاولة حرقه بالنار:

وعندما رجع هؤلاء الضالون إلى تلك الجذاذات أرادوا أن يحرقوا إبراهيم عليه السلام لما فعل بآلهتهم، بدلًا من أن يحرك لهم موقف آلهتهم ساكنًا في عقلهم أو شعورًا في قلبهم نحو الحق الظاهر، إذ لم يدافع أحد من هذه الآلهة المزعومة عن نفسه، وأخذوا يعدون العدة لإحراقه، وأتوا به وألقوه في نار أشعلوها، ولكن ربه نجاه وسلمه وخسف بهم: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[الأنبياء:٧٠].

وهكذا ثبت لهم أن رب إبراهيم عليه السلام هو الإله الحقيقي الجدير بالعبادة والتقديس، لا آلهتهم التي لم تستطع الدفاع عن نفسها، ومع ذلك فقد ران على

قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم يهتدوا ولم يعوا ولم يدركوا، أو هم أيقنوا وجحدوا.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٠]، و﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[الصافات:٩٧، ٩٨].

وعندما أُلقي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في النار استعان بربه ﷻ قائلًا: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**» كما قَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣][1]، وكانت كل المخلوقات تطفئ النار عن خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما عدا الوَزَغ، فإنه كان ينفخ عليه النار، وقد أمر النَّبيّ ﷺ بقتله، وقَالَ: «**كَانَ يَنْفُخُ على إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ**»[2].

المناظرة بين إبراهيم والذي آتاه الله الملك في إقليمه:

في صورة تكررت كثيرًا في التاريخ البشري، نقلت لنا النصوص الدينية وبعض مصادر التاريخ تلك الصور التي تجسد تلاقي الحق والباطل، ومواجهة العدل والظلم، ومقابلة الخير والشر، في صور متباينة وأشكال شتى. وفي هذا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» باب: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾، (٦/ ٣٩/ ح:٤٥٦٣)، هذا قول ابن عباس، وَالنَّاسُ في بداية الآية: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ـ كما يقول الطبري ـ هُمْ قَوْمٌ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ سَأَلَهُمْ أَنْ يُثَبِّطُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ خَرَجُوا في طَلَبِهِ بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ عَنْ أُحُدٍ إلى حَمْرَاءِ الأَسَدِ؛ وَالنَّاسُ الثَّاني: هُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ بِأُحُدٍ، (تفسير الطبري، ٦/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قوله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٤/ ١٤١/ ح:٣٣٥٩)

الإطار يلتقي نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي أتى حاملًا الحق، ناشرًا الخير، مقيمًا للعدل، مع أحد طغاة التاريخ البشري، الذي جسد الشر، وانتهج الظلم والطغيان، حتى ادعى الألوهية، مثلما فعل آخرون غيره، ومنهم فرعون موسى، في صورة أخرى نُقلت لنا عبر أصدق المصادر، وهو القرآن الكريم، كما سيأتي لاحقًا، هذا الطاغية الذي كان معاصرًا لإبراهيم عليه السلام وهو أحد جبابرة عصره، سمته المصادر العربية بـ: «النمرود»، واعتبرته ملكًا لبابل أيام إبراهيم، مع تعرض هذه الرواية للنقد من قبل المتخصصين في التاريخ القديم، ولعله الأكبر قوة وطغيانًا بين ملوك منطقته أو إقليمه؛ حيث آتاه الله الملك، وكان موضوع المناظرة هو قدرة رب إبراهيم، ورب العالمين ﷻ على فعل كل شيء، وبدأ إبراهيم ذلك بأن الله يحيي ويميت، ولما زعم هذا الطاغية القدرة على فعل ما يفعله رب إبراهيم، بهته إبراهيم بتحديه بأن يأتي بالشمس من المغرب؛ لأن الله يأتي بها من المشرق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

المؤمنون بإبراهيم:

يفهم من سياق بعض مواضع قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم أن هناك من آمن بدعوته وكان معه في نصح قومه وإرشادهم إلى اتباع دعوة إبراهيم، لكن دون معرفة عدد هؤلاء أو نسبتهم، كما في قوله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة: ٤].

ولم يصرح القرآن الكريم بغير لوط كمؤمن بدعوة إبراهيم: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[العنكبوت: ٢٦]، ثم آمن به أهل بيته؛ زوجتاه سارة وهاجر، وابناه إسحاق وإسماعيل، ورزق الله ابنيه النبوة.

زوجتاه سارة وهاجر:

أما زوجته الأولى فهي سَارَةُ، وهي بِنْتُ هَارَانَ الأكبر عم إبراهيم عليه السلام[1]، وقد وصفت سارة بأنها من أحسن الناس، وهذا عرَّضها لمحاولة إيذاء بعض الطغاة، ولكن الله نجاها، فـ«ذَاتَ يَوْمٍ أتى إبراهيم عليه السلام ومعه سَارَةُ على جَبَّارٍ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ: لَيْسَ على وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الكَافِرِ - أَوِ الفَاجِرِ - فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ»[2].

(١) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢٤٤)، وفي العهد القديم: «ساراي»، سفر التكوين: إصحاح ١١: ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٤/ ١٣٩/ ح:٣٣٥٨) النص لأبي هريرة.

أما زوجته الثانية فهي هاجر، وينص العهد القديم على زواج إبراهيم من هاجر، وينص على أن سارة زوجة إبراهيم أعطت هاجر لإبراهيم؛ ليتزوجها، وليس ليتخذها جارية له، يقول: «... **وأعطتها لرجلها أبرام؛ لتكون زوجة له**»[1].

وكانت سارة عقيمًا لا تلد، قال ﷻ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٨، ٢٩]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[هود: ٧١، ٧٢][2]، قِيلَ: كَانَتْ قَائِمَة مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ تَسْتَمِعُ كَلَامَ الرُّسُلِ وَكَلَامَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَقِيلَ: كَانَتْ قَائِمَة تَخْدُمُ الرُّسُلَ، وَإِبْرَاهِيمُ جَالِسٌ مَعَ الرُّسُلِ، وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَضَحِكَتْ﴾، قيل: ضَحِكَتِ الضَّحِكَ الْمَعْرُوفَ تَعَجُّبًا مِنْ أَنَّهَا وَزَوْجَهَا إِبْرَاهِيمَ يَخْدُمَانِ ضِيفَانَهُمْ بِأَنْفُسِهِمَا تَكْرُمَةً لَهُمْ، وَهُمْ عَنْ طَعَامِهِمْ مُمْسِكُونَ لَا يَأْكُلُونَ[3].

ما قيل عن كذب إبراهيم عليه السلام:

قَالَ أبو هُرَيْرَةَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ ﷻ، قَوْلُهُ: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾[الصافات:٨٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[الأنبياء:٦٣]، وقوله عن سارة: أُخْتِي[4]، وقال ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ

---

(١) إذ يعنونون بداية الإصحاح ١٦ من سفر التكوين بـ: «زواج إبراهيم من هاجر»، وهذا عنوان للمترجم العربي؛ لأن النص يقول: «أبرام» ولا يقول: إبراهيم، والنص المذكور من نفس الإصحاح، فقرة ٣.

(٢) نص العهد القديم على أنها عقيم، سفر التكوين، إصحاح ١١: ٣٠.

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (١٢/ ٤٧٢).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٤/ ١٤٠/ ح:٣٣٥٧).

إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: بَيْنَمَا إِبْرَاهِيمُ مَرَّ بِجَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ... فَذَكَرَ الحَدِيثَ، فَأَعْطَاهَا هَاجَرَ، قَالَتْ: كَفَّ اللهُ يَدَ الكَافِرِ وَأَخْدَمَنِي آجَرَ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بني مَاءِ السَّمَاءِ»[1].

اختتانه:

أما عن اختتانه ﷺ، فقد أخبر به رَسُولُ اللهِ ﷺ في قوله: «اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً بِالقَدُّومِ»[2].

هجراته:

إلى بلاد الشام: بعدما لاقاه إبراهيم ﷺ في موطنه - العراق - من قومه، وصدودهم عن الدعوة ومحاولة قتله حرقًا بالنار، رأى أن هذا الموطن لم يعد صالحًا للبقاء فيه، فضلًا عن تبليغ دعوته ونشر الحق والعدل في الأرض، فارتحل هو ومن معه، قَاصِدِينَ أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ، في فلسطين وبَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَقَامُوا بِحَرَّانَ، وهي أَرْضُ «الْكَشْدَانِيِّينَ» في ذَلِكَ الوقت، وَكَذَلِكَ أَرْضُ الْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ أَيْضًا، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ المعروفة بـ «الكواكب السَّبْعَةِ»، وَالَّذِينَ عَمَّرُوا مَدِينَةَ دِمَشْقَ كَانُوا على هَذَا الدِّينِ يَسْتَقْبِلُونَ الْقُطْبَ الشَّمَالِيَّ، وَيَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ؛ وَلِهَذَا كَانَ على كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ دِمَشْقَ السَّبْعَةِ الْقَدِيمَةِ هَيْكَلٌ لِكَوْكَبٍ مِنْهَا، وَيَعْمَلُونَ لَهَا أَعْيَادًا وَقَرَابِينَ، وَهَكَذَا كَانَ أَهْلُ حَرَّانَ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالأَصْنَامَ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ على وَجْهِ الأَرْضِ كَانُوا كُفَّارًا سِوَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَامْرَأَتِهِ، وَابْنِ أَخِيهِ لُوطٍ ﷺ، وَكَانَ الْخَلِيلُ ﷺ هُوَ الذي أَزَالَ اللهُ بِهِ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: النكاح، باب: اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها، (٧/ ٦/ ح:٥٠٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب قوله ﷻ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٤/ ١٤٠/ ح:٣٣٥٦) الحديث رواه أبو هريرة.

تِلْكَ الشُّرُورَ، وَأَبْطَلَ بِهِ ذَاكَ الضَّلَالَ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ آتَاهُ رُشْدَهُ في صِغَرِهِ، وَابْتَعَثَهُ رَسُولًا، وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا في كِبَرِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٥١]، أي: كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ[١].

وكانت هجرته الأولى عليه السلام إلى كنعان، وقد أرجع بعض المؤرخين هذه الهجرة إلى أسباب اقتصادية أو سياسية. ولكن النصوص القرآنية واضحة الدلالة في إرجاع هذه الهجرة إلى الأسباب الدينية، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الصافات:٩٩]، وأيضا: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[العنكبوت:٢٦]، وقد آمن معه ابن أخيه لوط عليه السلام وهاجر معه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:٧١]، وكانت معهما سارة زوجة إبراهيم[٢].

في النص الثالث كان الانتقال إلى أرض بارك الله فيها للعالمين، وهذه البركة دينية قبل أن تكون دنيوية، وهذا ما يتلاءم مع أبي الأنبياء وخليل الرحمن. وفي النصين الآخرين: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، و﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فالانتقال إلى الله، وليس إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها. ومن الطبيعي - وهذا حال الكثير من الأنبياء - أنه عندما يجد النبي صدودًا من قومه - بعد الاجتهاد في الدعوة - يتطلع إلى الانتقال إلى مكان آخر لعل الله يهدي به قومًا آخرين، فهذه رسالته في الأرض، وهي معيار حياته في حله وترحاله .

بالإضافة إلى ما ذكره المؤرخون من أن حاران - والتي تقع على بُعد ستين

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٣٢٤-٣٢٦).

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، دار التراث، (١/ ٢٧٠، ٢٧١)، وآمنت به سارة وهي ابنة عمه، وهي سارة بنت هاران الأكبر، عم إبراهيم، وقد قيل: إن سارة كانت ابنة ملك حران، السابق: (١/ ٢٤٤).

[٦٠] ميلًا إلى الغرب من تل حلفا ـ كانت في أثناء الهجرة حوالي [١٨٦٥ ق.م] وطوال القرنين [١٩ ، ١٨ ق.م] ـ مدينة مزدهرة، وتقع على طريق التجارة القادمة إليها من الشرق والغرب[١]. ومما يؤيد ذلك أيضًا ما ذكرته نصوص التوراة من أن الهجرة جاءت بأمر الله لإبراهيم، وأن إبراهيم بني المذابح لله في هذه الأرض[٢].

إلى مصر: أما الهجرة إلى مصر، فإن جل المؤرخين ينقلون ما جاء في التوراة من أن السبب إليها كان الجوع الذي حل بأرض كنعان «وكان جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر؛ للمجاورة هناك، إذ عظم الجوع في الأرض»[٣].

وكان مجيؤه إليها ـ على قول البعض ـ على الأرجح والمشهور أيام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى في القرن العشرين قبل مولد المسيح؛ حيث أقبل على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر وتصدر عنها بما تحمل من عروض تحتاج إليها مصر، أو تطلبها سوريا وفلسطين[٤]. وقد ربط معظم المؤرخين هذه الرحلة بما جاء في الحديث النبوي المشهور من أنه عليه السلام قدم أرض جبار ومعه سارة، فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عليه السلام قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ**

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ١٣٣ .

(٢) التوراة السامرية: سفر التكوين، إصحاح ١٢: ١، ٧، ٨.

(٣) التوراة السامرية: تكوين ١٢: ١٠ .

(٤) أحمد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٩ .

الْجَبَّارِ أَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لا ينبغي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأُتِيَ بِهَا فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ إلى الصَّلاةِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلا أَضُرُّكِ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، فَلَكِ اللهَ أَنْ لا أَضُرَّكِ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، وَدَعَا الذي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا هَاجَرَ. قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ انْصَرَفَ، فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَ خَادِمًا»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بني مَاءِ السَّمَاءِ»[١].

ويرى البعض أن إبراهيم ﷺ لم يكذب، ولم يخرج عن مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون، فلقد كانوا يطلقون على الزوجة في لغتهم ـ فضلًا عن لفظ: المرأة «حمة» و: «سة حمة»، أو: «هيمة وسهيمة» في اللهجة القبطية ـ لفظ: الأخت «سونة»، وهو نوع من التعبير عن المحبة والإعزاز، ولعل إبراهيم حين أقبل على مصر ورأى ما لقي الناس من آل فرعون وملئه قد آثر التورية والتعريض، فوصف زوجته سارة، وتحدث عنها على مألوفهم بأنها «سونة» بمعنى: الزوجة ومعنى: الأخت جميعًا، حيث أوقع ـ أو وقع ـ في روع المصريين بلكنته الأجنبية، وما عسى أن رأوا من معاملته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصيل للفظ الأخت، لا إلى المعنى المجازي[٢].

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، بَابُ: مِنْ فَضَائِلِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ، (٤/ ١٨٤٠/ ح:٢٣٧١) والحديث رواه أبو هريرة.

(٢) أحمد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٢٠، ٢١ .

إسماعيل وأمه في وادي مكة:

لما كانت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لا تلد أشارت على زوجها بأن يتزوج هاجر؛ عسى أن تلد له، وهو ما تم بالفعل، ورزق الله إبراهيم ابنًا سماه إسماعيل. وهنا بدأت سارة تبدي عدم التوافق النفسي مع هاجر، فطلبت من إبراهيم عليه السلام أن يبعدها عنها، فتوجه إبراهيم عليه السلام بأمر من الله - تعالى - بهاجر وابنها الرضيع - إسماعيل - إلى وادٍ غير ذي زرع ولا ماء؛ حيث اقتضت حكمة الله تعالى التي شملت الأم وابنها، ذلك، واستجاب الله تعالى لدعاء نبيه إبراهيم عليه السلام فتحول هذا الوادي إلى أقدس وأهم بقاع الأرض، تؤُمه الناس وتأتيه من كل فج عميق؛ ليشهدوا منافع لهم، وأصبح الابن وأمه نواة لأبرز أمم الأرض التي ملأت الأرجاء وعمت الأنحاء، وأصبح البلد آمنًا مطمئنا يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان.

وقد توجه إبراهيم عليه السلام بالدعاء إلى الله تعالى الذي استودعه ابنه وأمه قائلًا: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾

[إبراهيم: ٣٧].

ومن هذا المنطلق كان الاعتقاد أن الخليل عليه السلام قد أقدم على ما أقدم عليه من رحلته إلى الحجاز بزوجه وولده؛ امتثالًا لأمر الله، ورغبة في نشر الإيمان بالله في بيئة جديدة، وفي مناخ جديد بعد أن قام بذلك في العراق وفي سورية وفي مصر، وليربط ولده وبكره بما ارتبط به هو من قبل، فإبراهيم عليه السلام يرجع في نسبه الأول إلى العرب العاربة، التي هاجرت من جزيرة العرب، وإبراهيم عليه السلام قد ولد ونشأ في العراق، وهاجر إلى الشام ثم إلى مصر، ومن مصر إلى فلسطين ثانية، ثم من فلسطين إلى الحجاز، ومن الحجاز إلى فلسطين، وأما إسماعيل عليه السلام فقد كان

نصفه مصريًّا، ونصفه عراقيًّا، وقد ولد في الشام وعاش في الحجاز، وتزوج من يمنية ـ أو مصرية ـ طبقًا لرواية التوراة، وتخريجًا من هذا فإن إسماعيل رمز العروبة كلها، رمز لعروبة العراق، ورمز لعروبة الشام، ورمز لعروبة مصر، ورمز لعروبة الجزيرة العربية، ولعل هذا ما يميزه على أخيه إسحاق، الذي اقتصرت حياته ومماته على جزء من الشام فحسب، ولم يتصل بقرابة من دم، أو صلة من نسب، بغير عشيرة أمه، حيث تزوج من ابنة خاله لابان[1].

وقد وردت لنا هذه القصة بتفصيلها بطريق صحيح، بواسطة ابن عباس رَضِوَاللَّهُ عَنْهُمَا إذ قال: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا على سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وهي تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ في أعلى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الذي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الذي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا في السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ:

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص١٥٩ .

يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**»، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ على المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَه - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هي بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ** - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ - **لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**»، قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ على مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وهي تُحِبُّ الإِنْسَ**»، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلَامُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ،

وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ على امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ على اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ**»، قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ، وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِي هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ على مَا حَوْلَهَا، قَالَ:

فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يأتي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧][1].

قصة الذبيح:

لعل قصة الذبيح هي أشد الحلقات ابتلاء في حياة النَّبيّ إبراهيم عليه السلام؛ فقد كانت بلاء مبينًا لهذا الشيخ الذي رُزق ابنه هذا على كبر وقد بلغ معه السعي، ولكن البلاء واجه إيمانًا أقوى منه، وقد اقتضت حكمة الله أن يكون الابتلاء على قدر الإيمان، كما أن هذه القصة مثلت خلافًا قديمًا ـ مستمرًّا ـ بين المسلمين من جهة واليهود والنصارى من جهة أخرى؛ بحيث يذهب المسلمون إلى أن الذبيح هو إسماعيل، في حين يرى اليهود والنصارى أنه إسحاق .

ـ الرواية الإسلامية:

سجل القرآن الكريم هذه الواقعة، دون ذكر اسم من أمر إبراهيم بذبحه ـ إسماعيل أم إسحاق، ولعل ذلك يرجع إلى منهج القرآن في ذكر الأسماء، لكن

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشي، (٤/ ١٤٢/ ح:٣٣٦٤)، قال ابن كثير، بعد ذكره هذا الحديث، وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُوَشَّحٌ بِرَفْعِ بَعْضِهِ، وَفِي بَعْضِهِ غَرَابَةٌ، وَكَأَنَّهُ مِمَّا تَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، (البداية والنهاية، ١/ ٢٥٧)، لكن مصدر الإسرائيليات والعهد القديم ـ ذكر هجرة إبراهيم مع أبيه وزوجه سارة ولوط عليه السلام، من أور الكلدانيين ـ موطنه في العراق ـ إلى حاران، ثم إلى أرض الكنعانيين ـ الشام ـ (سفر التكوين: إصحاح ١١: ٣١ ـ ٣٢)، ولم يذكر قصة ذهابه بزوجه هاجر وابنه إلى مكة، عندما ذكر قصتها مع هاجر وإبراهيم وحملها وولادتها، (سفر التكوين: إصحاح ١٦).

السياق القرآني يظهر أن المقصود هو إسماعيل، يقول ﷻ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[الصافات:٩٩-١٠٧].

- وكما يذكر البعض، فإن الله ﷻ يقول: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات:١١٢]، فكيف يأمره الله بذبحه، وقد وعده أن يكون نبيًّا؟! ثم إن البشارة بإسحاق إنما كانت مقرونة بولادة يعقوب منه، فلا يُناسبها الأمر بذبحه مراهقًا، ومن هنا استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل، وليس إسحاق، حيث يقول ﷻ: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝﴾ [هود: ٧١]، فكيف تقع البشارة بإسحاق، وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟! هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة[(١)].

- وفي إطار السُّنَّة النبوية، وفي أثناء مجلس لمعاوية ذكر الذبيح، فذكر بعض أهل المجلس أن رَجُلًا قال للنبي ﷺ: «يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ»، فَضَحِكَ، فَقال بعض أهل المجلس: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - يخاطبون معاوية بن أبي سفيان - مَا الذَّبِيحَانِ؟ فَقَالَ: «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَإِسْمَاعِيلُ»[(٢)]، وقال الحاكم النيسابوري: كُنْتُ أَرَى مَشَايِخَ الْحَدِيثِ قَبْلَنَا وفي سَائِرِ الْمُدُنِ التي طَلَبْنَا الْحَدِيثَ فِيها وَهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ الذَّبِيحَ

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ١٧٢ .
(٢) الطبري: تفسير الطبري، دار هجر، (١٩/ ٥٩٧)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك،» لكن الذهبي قال: إسناده واهٍ، (٢/ ٦٠٤/ ح:٤٠٣٦) .

إِسْمَاعِيلُ، وَقَاعِدَتُهُمْ فِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»، إِذْ لَا خِلَافَ فِي أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ[1].

- ويؤكد العلماء المسلمون - كما سبق - أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهذا ينسحب على سلفهم وخلفهم معًا، وهذا لا ينفي أن ثمة روايات ذهبت إلى أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، كما احتج به اليهود والنصارى، فقد أورد الطبري ست عشرة [١٦] رواية تقول بأن الذبيح هو إسحاق[2]، وكذلك ذكر إحدى وعشرين [٢١] رواية تقول بأن الذبيح هو إسماعيل[3].

كما عرض ابن كثير لهذه المسألة مستقصيًا إيَّاها وذاهبًا إلى أن الذبيح هو إسماعيل، وذكر أن القول بأن إسحاق هو الذبيح محكي عن كعب الأحبار، كما ذكر من روى عنه ذلك من الرواة، وقال: إن هذه إحدى روايتين عن ابن عباس، والصحيح عنه أنه إسماعيل[4].

وقد ذكر ابن كثير أن عمر بن عبد العزيز سأل أحد علماء اليهود الذين أسلموا: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه، فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه؛ لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم[5].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٠٩/ ح:٤٠٤٨) .

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ١٥٨-١٦٠) .

(٣) المرجع السابق: (١/ ١٦٠-١٦٢)، وقد أيد الطبري كون الذبيح هو إسحاق، السابق (١/ ١٥٨، ١٦٢ ، ١٦٣).

(٤) البداية والنهاية، (١/ ١٧٨-١٨٢)

(٥) المرجع السابق، (١/ ١٨٢) .

ـ رواية أهل الكتاب:

يرى علماء أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ أن الذبيح هو إسحاق ـ كما سبق ـ ولهم على ذلك أدلة أهمها ما يأتي:

١ـ العهد القديم، حيث جاء فيه النص الآتي: **«خذ ابنك وحيدك، إسحاق الذي تحبه، وانطلق إلى أرض المُريّا، وقدمه مَحرَقةً على أحد الجبال الذي أهديك إليه»**[(١)].

٢ـ العهد الجديد، وفيه: **«وبالإيمان إبراهيم أيضًا، لَمَّا امتحنه الله قدَّم إسحاق ابنه، فإنه إذ قَبِل وعود الله قدَّم ابنه الوحيد ذبيحة»**[(٢)].

٣ـ إن إسحاق قد ولد بطريقة خارقة للطبيعة.

٤ ـ إن إسماعيل ابن جارية، وإسحاق ابن الزوجة الشرعية .

٥ـ ما ذكرته بعض الروايات الإسلامية عن كعب الأحبار من أن الذبيح هو إسحاق.

نقد هذه الرواية: ما يخص النصين التوراتيِّ والإنجيليِّ من أن ابنه الذي أمر بذبحه هو وحيده، هذه الصفة لا تنطبق على إسحاق البتة طوال حياة إبراهيم عليه السلام، بل إنها تنطبق على إسماعيل لمدة أربع عشرة [١٤] سنة، هي بداية حياته قبل أن يأتي إسحاق ليكون ثانيًا طول حياة إبراهيم، وليس وحيد إبراهيم.

وينص العهد القديم على أنه عندما بشر الله إبراهيم بأنه سيولد له ولد من سارة اسمه إسحاق، كان لإبراهيم تسع وتسعون [٩٩] سنة، وسارة تسع وثمانون [٨٩] سنة، على أن مولد إسحاق سيوافق مائة [١٠٠] سنة لإبراهيم، وتسعين

(١) سفر التكوين٢٢: ٢ .
(٢) الرسالة إلى العبرانيين ١١: ١٧ .

[٩٠] لسارة، وينص أيضًا على أنه لما كان لإبراهيم تسع وتسعون [٩٩] سنة كان لابنه إسماعيل ثلاث عشرة [١٣] سنة يقول النص: «فقال الله: حقًّا إن سارة زوجتك ستلد لك ابنًا ويدعى اسمه إسحاق، وأثبت عهدي معه عهد الدهر ولنسله بعده، وفي إسماعيل استجبت منك، هو ذا باركته وأثمره وأكثره جدًّا جدًّا اثنا عشر رئيسًا يولد، وسأجعله شعبًا عظيمًا»[1]، «**فخر إبراهيم على وجهه وعجب، وقال في سره: هل ابن مائة سنة ألد وأيضا سارة بنت تسعين سنة تلد؟!**»[2].

وعندما توفي إبراهيم عليه السلام على سن مائة وخمس وسبعين [١٧٥] سنة ـ كما يقول العهد القديم ـ دفنه إسحاق وإسماعيل ابناه: «**وهذه أيام سني حياة إبراهيم الذي عاش مائة سنة وسبعين سنة وخمس سنين .... ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه في مغارة المضعفة، في حقل حفرون بن ظاهر الحيثي**»[3]، وبهذا فقد امتدت حياة إسماعيل طوال حياة أبيه وبعده، وعلى هذا لا يمكن أن يوصف إسحاق بأنه وحيد أبيه، وإنما ذلك لإسماعيل.

ـ ينص إنجيل برنابا على أن الذبيح إسماعيل، إذ يقول: «فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلًا: «خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل؛ لتقدمه ذبيحة»[4].

ـ وأما ما يخص كون ولادة إسحاق عليه السلام، أمرًا خارقًا للطبيعة؛ فهناك من الأمور ما هو أشد منه خرقًا للطبيعة، وإن كان هذا لا يعد غريبًا إذا أسند إلى قدرة الله، كما هي الحال في ولادة إسحاق وغيره، فآدم عليه السلام من قبل ولد بدون

(١) التوراة السامرية: تكوين ١٧: ١٩، ٢٠
(٢) المرجع السابق، تكوين ١٧: ١٧.
(٣) التوراة السامرية، تكوين ٢٥: ٧ـ ٩.
(٤) إنجيل برنابا: ترجمة خليل سعادة، دار الفتح للإعلام العربي ـ القاهرة ـ الفصل ٤٤ فقرة ١٠.

أب أو أم، ويحيى بن زكريا عليهما السلام من بعد، ولد وكانت أمه عاقرًا، وأبوه شيخًا: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٧-٩]، وكذلك ولادة عيسى عليه السلام التي مثلت معجزة تفوق ولادة إسحاق عليه السلام: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[التحريم:١٢].

وأمام هذه الصور تكون ولادة إسحاق مساوية لولادة يحيى بن زكريا عليهم جميعًا السلام، ولكنها أقل خرقًا للطبيعة بمراحل كثيرة من خلق آدم من قبل، وولادة عيسى من بعد .

ـ أما ما يتعلق برواية كعب الأحبار من كون إسحاق هو الذبيح، فإن كعب الأحبار معروف في مدرسة النقد التاريخي بأنه أحد أبرز الرواة المتأثرين والناقلين عن أهل الكتاب، وما يروى عنه هو وآخرون ممن أسلم من أهل الكتاب، مثل وهب بن منبه مصدر شك، أكثر من كونه مصدر قبول .

ـ أما ما يخص قولهم، إن إسماعيل ابن الجارية، وإسحاق ابن الزوجة الشرعية فإن هناك من يذهب إلى أن هاجر ربما كانت ابنة واحد من كبار رجال الدين المصريين، على أساس أنهم الطبقة المنتظر أن يكون الخليل أكثر اتصالاً بها. ومن الآراء أيضًا من يذهب إلى أنها أميرة مصرية وقعت في أيدي العماليق ثم

أهديت إلى إبراهيم، ومنها أنها أخت زوج فرعون، ومنها أنها ابنة أحد ملوك مصر[1].

(١) يذكر بعض المؤرخين أن مفسري التوراة من المسيحيين يريدون أن يصبغوا النصوص بالصيغة المسيحية؛ ذلك لأن المسيحية ـ فيما يرى آباء الكنيسة وفقهاؤها ـ تحرم تعدد الزوجات، فجعلوا من هاجر جارية، وسارة زوجة شرعية، وفاتهم أن الأسرة الإسرائيلية كانت تقوم على تعدد الزوجات، كما كانت تساوي بين هؤلاء الزوجات في الحقوق والواجبات، وإن كان عددهن يتفاوت قلة وكثرة، حسب ثروة الزوج ومكانته، ولو أن علماء التلمود كانوا يحددون للرجل أربع زوجات فقط، وللملك ثماني عشرة زوجة، كما أن قانون الملوك يمنعهم من المبالغة في اقتناء الزوجات، كما جاء في النص: «ولا يكثر له نساء: لئلا يزيغ قلبه»، وقد استغل بعض الإسرائيليين هذا الحق، فبالغوا فيه، إذ «كان لجدعون سبعون ولدًا خارجون من صلبه؛ لأنه كانت له نساء كثيرات»، وقد تزوج داود من نساء كثيرات، فضلًا عن الإماء والسراري، وفاق سليمان جميع أقرانه، إذ «كانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري» ـ كما يرون، وإذا ما عدنا إلى عصر الآباء الأوائل ـ كما يسمونه ـ فإننا نجد أن الخليل نفسه يتبع هذا المبدأ، فيجمع بين هاجر وسارة، ثم بين قطورة وحجورة، كما يجمع يعقوب ـ أبو الآباء ـ والذي حمل الإسرائيليون اسمه ـ بين نساء أربع؛ بين راحيل وليئة وزلفة وبلهة، وكان منهن أبناؤه الاثنا عشر، ثم جمع موسى ـ صاحب التوراة ـ بين صفورة ابنة كاهن مدين، وبين المرأة الكوشية التي ثار عليه أخواه من أجلها، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص١٦٧، ١٦٨).

وهكذا يتضح أن مبدأ تعدد الزوجات ـ كما يقول جوستاف لوبون ـ كان شائعًا كثيرًا لدى بني إسرائيل على الدوام، وما كان القانون المدني أو الشرعي ليعارضه، سواء أكان ذلك للأنبياء أو غير الأنبياء، وسواء أكان ذلك في عصر الآباء الأول أو عصر الملكية، حتى حدده الربانيون بأربعة، وإن أطلقه القراءون. وإن التفسير الذي قدمه صاحب «الرسالة إلى أهل غلاطية» إنما يقدم الصورة المسيحية ـ وليست اليهودية ـ للزواج، وأنه لأمر مناف للعقل ـ فضلًا عن المنطق والدين ـ أن نطبق شريعة دين على شريعة دين سبق، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ١٦٨).

إن هاجر وسارة رضي الله عنهما كانتا زوجة فاضلة للخليل عليه السلام، ولكل منهما من الحقوق والواجبات ما للأخرى، وأن الأمر كذلك بالنسبة لابنيهما النبيين الكريمين، كأبناء يعقوب الاثني عشر، وهم في نفس الوقت رءوس الأسباط الاثني عشر، هم كما نعلم ـ وبنص التوراة نفسها ـ من زوجاته الأربعة (الحرائر والجواري)، ولم يقل واحد من العلماء، أو رجال اللاهوت من اليهود =

رفع قواعد البيت الحرام:

البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس في الأرض، تؤمه الناس من كل حدب وصوب على اختلاف معتقداتهم، وتباين أجناسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦]، وتاريخ وضعه مجال تباين لآراء العلماء، وبمرور الزمان وظروف المكان كان البيت الحرام قد طمر بعضه وتهدم بعضه الآخر، وفي زمن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان أمر الله له برفع قواعد هذا البيت .

كانت البداية عندما أتى إبراهيم بزوجه هاجر وابنه إسماعيل الرضيع عليه السلام إلى مكة التي كانت آنذاك وادي ليس به زرع ولا ماء، فوضعهما في هذا المكان واستودعهما الله، ودعا لهما قائلًا: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧].

ثم غاب إبراهيم عليه السلام عنهما، وعاد عندما شاء الله له أن يعود. وقد أمر الله إبراهيم عليه السلام برفع قواعد بيته المحرم في هذا الوادي، فامتثل إبراهيم أمر ربه ودعا ابنه إسماعيل، الذي كان قد بلغ من الكبر ما يمكّنه من مساعدة أبيه .

واقتضت حكمة الله أن يسكنَ إبراهيمُ زوجَه وابنَه عند بيته المحرم، الذي يؤمه الناس جميعًا من كل فج عميق؛ ليجمع الله لإبراهيم اهتمامه بالبيت الحرام

=والنصارى: إن أبناء يعقوب من الجاريتين ـ بلهة وزلفة ـ أقل مرتبة من إخوتهم أبناء السيدتين ـ لينة وراحيل ـ هذا إذا سلمنا جدلًا بأن أم إسماعيل كانت جارية لسارة، كما أن إسماعيل إنما كان بكر إبراهيم، وللبكورية في بني إسرائيل شأن عظيم، وحقوق كثيرة، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ في بلاد العرب، ص١٦٩) .

ورعايته لِابنه وزوجه في مكان واحد، وهو أقدس وأطهر بقاع الدنيا، وهو مركزها جغرافيًّا، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[الحج:٢٦]، وبمرور الزمان وظروف المكان كان البيت الحرام قد طمر بعضه وتهدم بعضه الآخر، فكان أمر الله لنبيه برفع قواعد هذا البيت.

وقد جاء في قول ابن عباس ﷺ أن إبراهيم عليه السلام «قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبني هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إلى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ على مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يأتي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبني وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ»[(١)].

وقد أخبرنا الله ﷻ برفع قواعد بيته الحرام بواسطة نبييه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٧-١٢٩].

ثم أمر الله ﷻ نبيه إبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشي، (٤/١٤٢/ح:٣٣٦٤).

مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾[الحج:٢٧-٢٩].

وقد استجاب الله لنبيه إبراهيم عليه السلام حين دعاه بالأمن والرزق للمؤمنين من أهل بلد البيت الحرام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[البقرة:١٢٦]، فمكَّن الله لهم ورزقهم من الثمرات: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[القصص:٥٧].

وذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «**ألم تَرَى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم**»، فقالت: يا رسول الله، ألا تَرُدها على قواعد إبراهيم؟ فقال: «**لولا حِدْثَانُ قومك بالكفر لفعلتُ**»[(١)].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، (٦/ ٢٠/ح:٤٤٨٤).

لوط عليه السلام

نسب لوط ونشأته:

ينسب «العهد القديم» لوطًا إلى آل بيت إبراهيم عليهما السلام، فينص على أنه ابن أخيه، يقول النص: «ولد تارحُ أبرام وناحور وهَارَان، وولد هاران لوطًا»[1]، «ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض مولده أور الكلدانيين»[2]، وأور الكلدانيين في العراق. وقد تبنت المصادر العربية رواية العهد القديم، فذكرت أن لوطًا ابن هاران بن تارح، وأن هاران أخو إبراهيم[3].

هجرته مع إبراهيم عليهما السلام:

كان لوط الوحيد الذي نص عليه القرآن الكريم -صراحة- كمؤمن بإبراهيم عليه السلام، وذلك في المرحلة الأولى في العراق، وقد هاجر معه إلى حرّان ثم إلى الشام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[العنكبوت:٢٦]، فنجاه الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام إلى الأرض المباركة في الشام، ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:٧١].

---

(١) سفر التكوين: إصحاح ١١: ٢٧ .

(٢) سفر التكوين: إصحاح ١١: ٢٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢٤٤)، وابن كثير: التفسير، (٣/ ٢٩٨)، وزادت الرواية تفصيلًا، أن ناحور أبو بتويل، وبتويل أبو لابان، وربقا ابنة بتويل امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب، وليا وراحيل زوجتا يعقوب ابنتا لابان، وقد آمنت به سارة وهي ابنة عمه، وهي سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم -كما سبق، وكانت لها أخت يقال لها: ملكا امرأة ناحور، (الطبري: السابق، ١/ ٢٤٤).

بعثته:

في دار الهجرة الجديدة، تلك الأرض المباركة، أعد الله ﷻ لوطًا ليكون رسولًا، فآتاه الله حكمًا وعلمًا: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء:٧٤]، ثم أوحى إليه وجعله من المرسلين: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٣٣]

موطن قوم لوط:

ذكرت رواية «العهد القديم» أن أبراهم - إبراهيم - سكن أرض كنعان، أما لوط فقد «**اختار لنفسه حوض الأردن كله**»، و«**أقام لوط في مدن السهل حيث نصب خيامه بجوار سدوم، وكان أهل سدوم متورطين في الشر وخاطئين جدًا لدى الرب**»[1].

وقد عبر القرآن الكريم عن موطن قوم لوط بـ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾[النجم:٥٣]، وأيضًا بـ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾[التوبة:٧٠]، قال قَتَادَة: «﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ هُمْ قَوْمُ لُوطٍ»، وكَانَتْ قَرْيَاتٍ ثَلَاثًا، فَجُمِعَتْ لِذَلِكَ، وجُمِعَتْ بِالتَّاءِ على قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝﴾، وبعض المصادر العربية توحد المسمى في النص القرآني ونص «العهد القديم»، مثل الطبري الذي قال إن ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ **هي قرية قوم لوط** «سدوم»[2]، وهي موطن البحر الميت بالأردن .

قوم لوط وجرائمهم:

أُرسل لوط عليه السلام إلى أمة من أسوأ أمم التاريخ البشرى اعتقادًا وسلوكًا وخلقًا، ومما عرفوا به من فساد المعتقد وجرائم الخلق والسلوك:

---

(١) سفر التكوين: إصحاح ١٣: ١١-١٣.

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (٢٢/ ٩٠).

١ ـ أنهم كانوا يخالفون الطبيعة البشرية في أمر من أشد الأمور فسادًا، وهو أنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، كأول أمة في تاريخ البشرية تفعل ذلك، بل من العالمين، قال ﷻ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف:٨٠، ٨١]، وقال ﷻ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥، ١٦٦].

٢ ـ أنهم كانوا يقتلون ويسرقون ويقطعون الطريق، ويجاهرون بكل أنواع الفساد والمنكر في مجالسهم وأنديتهم، كما أخبر القرآن الكريم على لسان لوط ؊: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت:٢٩]، أَيْ: يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ فَيَقْتُلُونَ وَيَأْخُذُونَ الْأَمْوَالَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي مَجَالِسِهِمُ التي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا، لَا يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، قال مجاهد: كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي الْمَلَإِ[1].

٣ ـ كانوا يعملون الخبائث، وكانوا قوما فاسقين: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾[الأنبياء:٧٤]، والقرآن الكريم ـ هنا ـ يصفهم جميعًا بصفتين جامعتين لأسوأ الأخلاقيات والسلوكيات البشرية: «فعل الخبائث» و«الفسق».

٤ـ نص «العهد القديم» على ما كان عليه قوم لوط من الشر والخطأ البالغين، إذ قال: «وكان أهل سدوم متورطين في الشر وخاطئين جدًّا لدى الرب»[2].

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٦/ ٢٧٦).

(٢) سفر التكوين: إصحاح ١٣: ١١ ـ ١٣.

دعوة لوط عليه السلام لقومه:

كغيره من المرسلين أخذ لوط يدعو قومه بالأسلوب الدعوي والمنهج المعهود لدى رسل الله أجمعين؛ وذلك بأن يعرفهم أنه رسول من رب العالمين، أرسل إليهم ليبصرهم بما يعتقدون ويفعلون مما لا يتفق مع الفطرة السليمة والعقل القويم، ثم يبين لهم آثار ذلك وعواقبه، ويدعوهم إلى ترك كل ذلك، ومنه ترك هذه «الفاحشة»، واتباع ما يأتيهم به من رب العالمين، وهذا مما يعرض له القرآن الكريم من نصوص في نبأ لوط مع قومه:

- قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف:٨٠، ٨١].

- وقال أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء:١٦٠-١٦٦].

- وقال سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

[النمل:٥٤، ٥٥].

جواب قومه:

كان جواب قوم لوط عليه السلام امتدادًا لمواقف أسلافهم من أقوام المرسلين السابقين، المكذبين لهم الجاحدين لآياتهم، فقد كان جواب قومه تكذيب رسولهم

ـ أو رسلهم، كما أخبرنا الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٦٠][1]، ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾[القمر:٣٣]، ثم تحول موقفهم من مجرد التكذيب إلى تهديد لوط عليه السلام بإخراجه من القرية: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾[الشعراء:١٦٧]، وبالطبع لم ينتهِ لوط من تبليغه رسالة ربه إليهم، ودعوتهم إلى الإجابة لها، بل إنه حذرهم وأنذرهم من بطش الله وعقابه لهم حال إعراضهم: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦]، فكان قرارهم إخراج لوط وآله من القرية: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢]، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾

[النمل:٥٦].

عندئذ ـ ولما استنفذ لوط كل وسائل الدعوة معهم وأدرك أنهم لن يستجيبوا له، أعلن إنكاره لعملهم، ودعا ربه أن ينجيه وأهله من العقاب الذي سيحلُّ بهم، ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾[الشعراء:١٦٨-١٧٠].

المؤمنون بلوط عليه السلام:

لم يؤمن بلوط إلا أهل بيته: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦]، إلا امرأته العجوز لم تؤمن به: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾

---

(١) روى الطبري في قوله ﷻ: ﴿رُسُلُهُمْ﴾ بالجمع، والْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ وَاحِدٌ، أي: أَتَى كُلَّ قَرْيَةٍ مِنَ الْمُؤْتَفِكَاتِ رَسُولٌ يَدْعُوهُمْ إلى الله، فَتَكُونُ رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ إِلَيْهِمْ لِلدُّعَاءِ إلى اللهِ ﷻ عَنْ رِسَالَتِهِ رُسُلًا إِلَيْهِمْ، (تفسير الطبري، ١١/ ٥٥٥).

[الصافات:١٣٥]، بل كانت عونًا لقومه في إجرامهم، فوصفت بالخيانة، حتى إن الله تعالى ضربها، مع امرأة نوح مثلًا للذين كفروا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠]، وليس المقصود بالخيانة هنا فعل الفاحشة، كما هو متعارف عليه؛ لأن نساء الأنبياء معصومات من ارتكاب هذه الفاحشة، وقد جاء هذا على لسان ابن عباس رضي الله عنهما، إذ قال: «ما بغت امرأة نبيّ قط»[1].

العقاب:

عندئذ حل العقاب على هؤلاء القوم، وأتى أجل القرية الموعود؛ لتكون آية للعالمين، فأرسل الله ملائكته لإهلاك هذه القرية وأهلها، فمروا في طريقهم بإبراهيم عليه السلام، فأقام لهم ضيافة، ظنًّا منه أنهم ضيوف، فأعلموه أمرهم وما أرسلوا له، وهو إهلاك قوم لوط عليه السلام، وبشروه بغلام عليم، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[الذاريات:٢٤-٣٤]، و﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾

[العنكبوت:٣١].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٢/ ٤٣٠)، و(٢٣/ ١١٢).

فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم في إهلاك القرية؛ لأن بها لوطًا وآله، ولوط هو رسول الله وابن أخي إبراهيم، فقال لهم -في حواره معهم: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾[العنكبوت:٣٢]، قالوا: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[العنكبوت:٣٢]، ثم قالوا له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[هود:٧٦].

ثم واصل رسل الله القيام بما كلفوا به تجاه هذه القرية وأهلها، والتقوا بلوط عليه السلام، فحسبهم ضيوفًا -مثل عمه إبراهيم عليه السلام- فخاف من خزي أهل قريته لهم بأفعالهم الشنيعة وسلوكهم البغيض، وخاصة أن الملائكة كانوا على هيئة من الجمال والحسن ما يزيد عزم هؤلاء الأشقياء المفسدين على إيذائهم، واغتم لوط لما قد يقع لضيوفه، حتى إنه عرض عليهم بناته ليتزوجوهم؛ درءًا لذلك، لكنهم أبوا وحاولوا الوصول إلى غرضهم البغيض الذي اعتادوه؛ كما أخبر الله في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود:٧٨-٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

[الحجر:٦٧-٧١].

لكن الملائكة طمأنوه وأعلموه أنهم رسل ربه، وأن هؤلاء المفسدين لن

يصلوا إليهم، بل إنهم مكلفون بتدميرهم، وأمروه بالخروج من قريتهم هو وآله إلا امرأته، ليلًا، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود:٧٧-٨١].

أما العقاب فكان من أشد ما عوقبت به الأمم في التاريخ البشري؛ حيث أخذتهم الصيحة، ثم رفعهم جبريل عليه السلام بقريتهم لمسافة لا يعلمها إلا الله، ثم طواها وجعل عاليها سافلها، ثم ألقاها، وأمطرها الله بحجارة من سجيل؛ لتذوق مصيرًا من أشد ما عوقب به أهل الأرض: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[الحجر:٧٣، ٧٤][1]، و﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾

[هود:٨٢].

وقد روى الطبري أن جبريل عليه السلام أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم اتبعهم الحجارة[2].

(١) وقد صوب الطبري رأي من قال بأنها حجارة من طين؛ لقول الله ﷻ: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[الذاريات:٣٣، ٣٤]، تفسير الطبري، (١٢/ ٥٢٧).

(٢) تاريخ الطبري: (١/ ١٨٢).

الوعيد الإلهي ودروس التاريخ:

كما كان عقاب هؤلاء القوم وقريتهم بالغ الشدة، كذلك كان أثرهم الباقي في التاريخ بالغ السوء، سيء السيرة، نتن الرائحة، وموقع عقابهم «سبيل مقيم» طريقًا مستمرًّا، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[الصافات:١٣٧، ١٣٨].

وعقابُهم آية للمتأملين والمعتبرين وللمؤمنين وللذين يخافون العذاب الأليم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر:٧٥-٧٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[الذاريات:٣٧].

ـ وهذه العقوبة الإلهية هي جزاء دنيوي لهؤلاء المجرمين، وهي وإن بعد زمنها ونأى مكانها إلا أنها ليست من الظالمين ببعيد: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٣][1].

---

(١) «مُّسَوَّمَةً» أي: وهي مُعَلمَة مَخْتُومَة، عَلَيْهَا أَسْمَاءُ أَصْحَابِهَا، كُلُّ حَجَرٍ مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، (الطبري: تفسير الطبري، ١٢/ ٥٣٠، وابن كثير: تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٤٠).

إسماعيل عليه السلام

مولده ونشأته عليه السلام:

عندما جاء إبراهيم عليه السلام إلى مصر، ومعه زوجه السيدة سارة، حاول ملك مصر أن يؤذيها، فكف الله شره عنها، وأهداها السيدة هاجر .

وكانت سارة زوج إبراهيم عليه السلام لا تلد، ومن ثم فقد طلبت من زوجها أن يتزوج هاجر؛ عسى أن تلد له، ففعل عليه السلام، فرزقه الله ولدًا سماه إسماعيل، وكعادة النساء تحركت غيرتها تجاه هاجر، فطلبت من إبراهيم عليه السلام أن يبعدها عنها[1]، فتوجه إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إلى مكة، ووضعهما عند بيت الله المحرم، «وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ»[2]، حيث اقتضت حكمة الله تعالى ـ التي شملت الأم وابنها ـ ذلك. ودعا إبراهيم عليه السلام ربه لهما ولمكة، فاستجاب الله تعالى دعاء نبيه، فتحول هذا الوادي بهذه الحالة القفر إلى أقدس وأهم بقاع الأرض، وأكثرها جذبًا للناس، بِمُقَوِّمِها الديني؛ ففيها بيت الله الذي يؤمه الناس وتأتيه من كل فج عميق؛ ليشهدوا منافع لهم، وأصبح الابن وأمه نواة لأبرز أمم الأرض التي ملأت الأرجاء وعمت الأنحاء، كذلك أصبحت مكة بلدًا آمنًا مطمئنًا يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان، وكان دعاء إبراهيم عليه السلام إلى ربه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ

(١) تقول التوراة السامرية في سبب ذلك: «ونظرت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم متضاحكًا، فقالت لإبراهيم: اطرد هذه وابنها، إذ لا يرث ابن الأمة هذه مع ابني إسحاق»، إصحاح ٢١: ٩-١٠.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشي، (٤/ ١٤٢/ ح:٣٣٦٤).

ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧].

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ، سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ... فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلَامُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ[1].

رؤيا إبراهيم عليه السلام ذبح ابنه إسماعيل:

شاء الله تعالى أن يبتلي خليله إبراهيم -وهو شيخ كبير- بأمر ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام الذي رُزق به على كبر، وقد بلغ معه السعي، وكان البلاء على قدر الإيمان، فواجهه إبراهيم عليه السلام بإيمان قوي، كما واجه ابنه الأمر بالطاعة والاستجابة لما أُمِرَ به أبوه[2].

لكن الله نجى الأب من هذا البلاء المبين، ونجى الابن من الذبح، وفداه بذبح عظيم، وقد عرض القرآن الكريم هذا النبأ في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشي، (٤/ ١٤٢/ ح:٣٣٦٤).

(٢) هذه القصة مثلت خلافًا قديمًا - مستمرا - بين المسلمين من جهة وأهل الكتاب - اليهود والنصارى - من جهة أخرى؛ فذهب المسلمون إلى أن الذبيح هو إسماعيل، في حين ذهب اليهود والنصارى إلى أنه إسحاق، ولكن الصحيح الثابت هو إسماعيل، كما أنف الذكر .

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

[الصافات:١٠١-١٠٧].

زواجه من جرهم، وتواصله مع والده، وبناء البيت الحرام:

يقص ابن عباس رضي الله عنهما هذه المرحلة فيقول: «لَمَّا شب إسماعيل عليه السلام زَوَّجه بنو جرهم امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، وجاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، أخبرته، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أخرى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ على امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ على اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ» قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيل أخبرته، فقَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَك، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قريبًا مِنْ زَمْزَمَ، فقَالَ له: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِي هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ على مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يأتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبني وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧]، قَالَ:

فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

وقد عهد الله ﷻ إلى إسماعيل مع أبيه عليهما السلام بتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود، كما قام عليه السلام مع أبيه برفع قواعد البيت الحرام؛ ليكون منارة الحاجين من المؤمنين، ومقصد العاكفين من العابدين.

نبوة إسماعيل عليه السلام ورسالته، ودعوته لقومه:

كان إسماعيل عليه السلام من رسل الله الذين نص القرآن عليهم، ووصفهم بالنبوة والرسالة معًا، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٥٤]، وهو نبيٌّ ووالده نبي.

ولم تبين لنا النصوص الصحيحة تفاصيل دعوة إسماعيل عليه السلام والقوم الذين أرسل إليهم، كما هو الحال مع جُلّ الأنبياء والرسل الذين نص عليهم القرآن الكريم، لكنه ـ وكما بين القرآن الكريم آنفًا ـ وصف بأنه كان رسولًا نبيًّا، ولو وصف بأنه نبيٌّ فقط كان ثمة قبول بأنه يمكن ألا يكون قد كُلِّف بتبليغ رسالة إلى قوم أو أمة بعينها، على رأي من قال بأن النَّبيّ أُوحي إليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ ـ كما سبق عند الحديث عن الفرق بين النَّبيّ والرسول، أما وقد ثبت أنه رسول فإنه لا مندوحة من كون هناك قوم حمل إليهم إسماعيل عليه السلام رسالة من الله ﷻ وبلغها لهم.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشي، (٤/ ١٤٢/ ح:٣٣٦٤).

ومن دلائل دعوته إلى قومه:

١ ـ أمره لأهله بالصلاة والزكاة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[مريم:٥٥].

٢ ـ ما ذكرته الآثار من جهاده لأعداء الله ونصره عليهم، ومن ذلك قول كعب: «كَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ نبي اللهِ الذي سَمَّاهُ صَادِقَ الْوَعْدِ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ يُجَاهِدُ أَعْدَاءَ اللهِ وَيُعْطِيهِ اللهُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ وَالظَّفَرَ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَرْبِ على الْكُفَّارِ لَا يَخَافُ في اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[١]؛ ولعل من دلالات ذلك وصف الرسول ﷺ لإسماعيل بأنه كان راميًا، فذات يوم خَرَجَ ﷺ فقال لقَوْم مِنْ أَسْلَمَ وهم يَرْمُونَ: «ارْمُوا بني إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ارْمُوا، وَأَنَا مَعَ بني فُلَانٍ»، فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا لَكُمْ لا تَرْمُونَ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ! قَالَ: «ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ»[٢].

٣ ـ أنه وجد في قوم ليس فيهم نبي أو رسول؛ حيث لم تذكر الروايات الصحيحة ـ ولا غيرها تقريبًا ـ وجود نبي في منطقة مكة وما حولها قبيل ـ أو في عصر ـ إسماعيل عليه السلام، ولهؤلاء القوم من قبائل جرهم وغيرهم من العرب، ولعل ما يقوي هذا الاتجاه هو ما وصل إلينا من الحالة الدينية الحنيفية التي كان عليها بعض العرب في مكة قبيل بعثة النَّبيّ ﷺ، فقد كانوا على ملة إبراهيم عليه السلام، كما يقول كثير من العلماء والمؤرخين، وكان منهم ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٠٣/ ح:٤٠٣٣)، قال الذهبيُّ إسناده ضعيف، وهذه الرواية على ضعف سندها يمكن قبولها؛ لاحتمال صحة متنها الذي تقوية تلك المتون الصحيحة التي تعد إطارًا أو سندًا له.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ: قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، (٤/ ١٤٧/ ح:٣٣٧٣)، والراوي هو سلمة بن الأكوع، الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ١٠٣/ ح: ٤٢٦٥)، قال الذهبي: على شرط ومسلم.

نفيل، وغيرهما، والمُرَجح أن هذه الحالة ـ من خلال تلك المعطيات وغيرها ـ من أثار دعوة إسماعيل عليه السلام في هذه المنطقة، ولهؤلاء القوم.

وقد ذهب بعض العلماء إلى تقنين الأمر، ومنهم ابن كثير الذي قال: «كان إسماعيل رسولًا إلى تلك الناحية ومن والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن»[(١)].

ما وصف به إسماعيل عليه السلام:

يوصف النَّبيّ أو الرسول بكل الفضائل وبكل صفات الخير والصلاح، على المستوى البشري، وإسماعيل عليه السلام نبيٌّ ورسول، ومن ثم فقد وصف بذلك كله، مثل باقي الأنبياء والرسل، وقد نص القرآن الكريم على بعض تلك الصفات والفضائل التي نعت بها إسماعيل عليه السلام وهي من متلازمات النبوة، منها:

١ ـ أنه من الأخيار: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [سورة ص:٤٨].

٢ ـ أنه من الصابرين : ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥].

٣ ـ أنه من الصالحين ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:٨٦].

٤ ـ أنه صادق الوعد: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم:٥٤].

٥ ـ أنه حليم: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات:١٠١].

---

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٢١٩).

وصية النَّبيّ ﷺ بأهل مصر:

أوصى رَسُولُ اللهِ ﷺ خيرًا بأهل مصر؛ إكرامًا لأم إسماعيل، فقال ﷺ: «إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»، قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَالرَّحِمُ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ[(١)].

إسماعيل عليه السلام والعربية:

هناك روايات ثبتت صحتها تقول إن إسماعيل عليه السلام تعلم العربية من قبيلة جرهم، ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما عن إسماعيل عليه السلام: «شَبَّ الغُلَامُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ»، أي: من جرهم[(٢)]، كذلك ثمة روايات مفادها أن إسماعيل أول من تكلم العربية، ومن تلك الروايات ما رواه علي بن الحسين، عن آبائه، عن النَّبيّ ﷺ قال: «**أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة**»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، تحقيق: حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ (١٩/ ٦١)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٠٣/ ح:٤٠٣٢)، قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم، وذكره الهيثمي، وقال: رواه الطبراني بإسنادين؛ أحدهما رجال الصحيح، (مجمع الزوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي ـ القاهرة ـ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ١٠/ ٦٣/ ح:١٦٦٧٩، ١٦٦٨٠)، وفي رواية عبد الرزاق عن ابن جريج: «**أوصى بالقبط خيرًا فإن لهم قرابة**»، (المصنف: تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ ١٠/ ٣٦١/ ح:١٩٣٧٢)، والذمة: العهد والأمان.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشي، (٤/ ١٤٢/ ح:٣٣٦٤).

(٣) الجاحظ: البيان والتبين، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب ـ بيروت ـ ط١، ١٩٦٨م، ص٥٢٥، وابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٤٤٤)، والسيوطي: التوشيح شرح الجامع الصحيح، تحقيق: رضوان جامع رضوان ـ الرياض ـ ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، (٥/ ٢١٧٠)، وقال السيوطي: إن سند الزبير بن بكار لهذا الحديث في «النسب» حسن، ومن الروايات الضعيفة في ذلك قول جابر ابن عبدالله رضي الله عنهما: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَلَا: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، ثُمَّ قَالَ =

وفاته عليه السلام:

ذكر ابن كثير أن إسماعيل عليه السلام دفن بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعًا وثلاثين [١٣٧] سنة[١].

=رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُلْهِمَ إِسْمَاعِيلُ هَذَا اللِّسَانَ إِلْهَامًا»، قال الذهبي: مدار الحديث على إبراهيم بن إسحاق العسيلي وكان ممن يسرق الحديث، (الحاكم: المستدرك، (٢/ ٤٧٦/ ح:٣٦٤١)، ومنها ما نسب لابن عباس رضي الله عنهما من قوله: «أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَوَضَعَ الْكِتَابُ على لَفْظِهِ وَمَنْطِقِهِ، ثُمَّ جُعِلَ كِتَابًا وَاحِدًا مِثْلَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْمَوْصُولُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ»، (المستدرك، ٢/ ٦٠٢/ ح:٤٠٢٩)، قال الذهبي عبدالعزيز بن عمران واهٍ. وقد أشار ابن حجر إلى تلك الروايات، ثم قال: «قوله ـ أي: قول ابن عباس ـ وتعلم العربية منهم فيه إشعار بأن لسان أمه وأبيه لم يكن عربيًا وفيه تضعيف لقول من روى أنه أول من تكلم بالعربية، وقد وقع ذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الحاكم في المستدرك بلفظ: أول من نطق بالعربية إسماعيل، وروى الزبير بن بكار في النسب من حديث عليّ بإسناد حسن قال: أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، وبهذا القيد يجمع بين الخبرين، فتكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان، لا الأولية المطلقة، فيكون بعد تعلمه أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة فنطق بها، ويشهد لهذا ما حكاه بن هشام عن الشرقي بن قطامي أن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم، ويحتمل أن تكون الأولية في الحديث مقيدة بإسماعيل بالنسبة إلى بقية إخوته من ولد إبراهيم؛ فإسماعيل أول من نطق بالعربية من ولد إبراهيم، وقال ابن دريد في كتاب الوشاح: أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ثم إسماعيل، قلت وهذا لا يوافق من قال: إن العرب كلها من ولد إسماعيل، (ابن حجر: فتح الباري، دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٣٧٩هـ ٦/ ٤٠٣) . قال جواد علي: والعربية المحضة هي العربية الخالصة، وهي العربية الأصيلة عربية إسماعيل، وقد نعتت بالعربية المتينة، وهناك من يقول: إن «يعرب» هو أول من أعرب في لسانه، وإنه أول من نطق بها، (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ١/ ١٤) .

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٢١٩).

إسحاق عليه السلام

لم يُذْكَر نبي الله إسحاق عليه السلام في القرآن الكريم والسنة النبوية إلا من خلال مضامين قليلة، لكنها شملت أهم موضوعات حياته وصفاته التي يُعنى بها القرآن الكريم في ذكره للأنبياء والرسل، وهذه الموضوعات هي:

أولًا: البشارة بإسحاق:

بشر الله نبيه إبراهيم بابنه الثاني إسحاق على كبر، وقد بارك الله على إسحاق وعلى إبراهيم عليهما السلام، وكان من ذريتهما المحسن والظالم، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾[الذاريات:١١٢، ١١٣].

وقد تعجب إبراهيم عليه السلام من هذه البشارة؛ لأنه سيُولَدُ له ولد على كبر سنه، لكن عجبه يجعله لا يغفل قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيء، وأمر إسماعيل ليس ببعيد منه، فقد جاءه أيضًا على كبر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾

[الحجرات:٥١-٥٦].

وكانت زوجه السيدة «سارة» عجوزًا عقيمًا، ومن ثم فقد عجبت من بشارة الملائكة لها بذلك: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:٧١]، ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الذاريات:٢٩، ٣٠].

ثانيًا: تزكية الله ورسوله لإسحاق والثناء عليه وصفاته:

ومن ذلك:

١ـ الهداية، قال ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأنعام:٨٤].

٢ـ الصلاح، قال ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾[الأنبياء:٧٢]، وقال ﷻ: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

[الصافات:١١٢].

٣ـ العلم، قال ﷻ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾

[الذاريات:٢٨].

٤ـ الكرم، قال النبي ﷺ: «**الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ**»[1].

ثالثًا: نبوته ودعوته:

من أهم الموضوعات التي عرضها القرآن الكريم في نبأ إسحاق عليه السلام النص على نبوته في مثل قوله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات:١١٢].

ومن مقتضيات النبوة أو الرسالة دعوة الناس وهدايتهم، بواسطة وحيٍ من الله ﷻ، ومن متطلبات الدعوة ـ وخاصة لمقام النبوة ـ أن يكون صاحبها إمامًا صالحًا يفعل الخير، ويقيم فرائض الدين، فضلا عن كونه عابدًا لله ﷻ، وهذا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، (٤/ ١٥١/ ح:٣٣٩٠).

ما نص عليه القرآن الكريم بالنسبة لإسحاق، مع أبيه إبراهيم وابنه يعقوب عليه السلام في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٢، ٧٣].

أما عن دعوة إسحاق عليه السلام فهي نفس دعوة أبيه إبراهيم، وأخيه إسماعيل، وابنه يعقوب، وكل أنبياء الله ورسله، ليست اليهودية ولا النصرانية، ولكن ملة إبراهيم حنيفًا، وهي الإسلام، كما في قوله تعالي: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة:١٣٠-١٤١].

يعقوب عليه السلام

يعقوب عليه السلام هو أحد أنبياء الله، وقد سماه القرآن إسرائيل - أيضًا - في موضعين؛ الأول قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾[آل عمران:٩٣]، والثاني قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾[مريم:٥٨].

دعوته عليه السلام لقومه:

مثل بعض الأنبياء لم تذكر لنا النصوص الدينية تفاصيل دعوة يعقوب عليه السلام إلى قومه بمحاورها المعروفة في منهج الأنبياء، ولا تفاصيل طبيعة قومه الذين أرسل إليهم، لكن ما ذكرته تلك النصوص هو تأكيد نبوته، ومضمونها الرئيس الذي يتسق مع دعوة كل الأنبياء والرسل، وكذلك بعض من دعاهم أو أوصاهم بذلك. ويمكن معرفة محاور دعوته في ضوء ما جاء في النصوص الصحيحة من خلال الآتي:

أولًا: الدعوة إلى ما دعا إليه الأنبياء من قبله؛ أبوه إسحاق، وعمه إسماعيل، وجده إبراهيم، بل جميع الأنبياء والرسل قبله عليهم السلام؛ وهو الإسلام بمعناه العامّ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢، ١٣٣].

ثانيًا: لم يكن يعقوب أو أبناؤه من الأسباط، كما لم يكن إبراهيم وابناه

إسماعيل وإسحاق يهودًا أو نصارى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ذرية يعقوب:

أخبرنا الله ﷻ أن أولاد يعقوب عليه السلام اثنا عشر، بما فيهم يوسف عليه السلام، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وذكرت رواية العهد القديم أسماء أبناء يعقوب عليه السلام وأمهاتهم[١] كالآتي[٢]:

ـ تزوج يعقوب «لَيْئَة» فأنجب منها: ١ـ رأُوبين [ومعناه: هو ذا الابن] ٢ـ شِمْعُون [ومعناه: سميع] ٣ ـ لاوِي [ومعناه: مُتَّحِد] ٤ـ يهوذا [ومعناه: حَمْد][٣] ٥ ـ يَسَّاكَرَ [ومعناه: يعمل بأُجرة] ٦ـ زَبُولُون [ومعناه: إقَامَة]، كما أنجبت ابنة سمتها «دِينَة»[٤].

---

(١) تذكر رواية العهد القديم أيضًا: أن يعقوب كان ابن أخت لآبان، الذي سيصبح حماه، وأنه تعرف على لآبان وابنتيه «الكبرى: ـ أيضًا ـ والصغرى: راحيل» من خلال سقايته لغنم راحيل، حيث عرفها أنها ابنة خاله، فأخذته إلى أبيها الذي رحب به أشد ترحيب، لأنهما كانا مفترقين، ثم مكث عنده شهرًا، ثم عرض عليه لآبان أن يكون لخدمته وله مقابل، فعرض عليه يعقوب أن يكون المقابل زواجه من ابنته الصغرى «راحيل»، حيث أحبها منذ أن رآها، فوافقه خاله لآبان، فخدمه يعقوب سبع سنين، لكن لآبان زوجه ابنته الكبرى «لَيْئَة» دون أن يعرف يعقوب، لكنه اكتشف ذلك في الصباح، ورأى أن خاله خدعه، فبرر له خاله أن ليس من عاداتهم أن يزوجوا الصغرى قبل البكر، وطلب منه إكمال أسبوع الصغرى ثم يزوجه الكبرى، ففعل يعقوب وتزوج الكبرى، وخدم خاله سبع سنين أخرى، (العهد القديم: سفر التكوين، إصحاح ٢٩: ٩ ـ ٣٠).

(٢) وذكورًا جميعًا في سفر التكوين: إصحاح ٣٥: ٢٣ ـ ٢٦.

(٣) سفر التكوين: إصحاح ٢٩: ٣٢ ـ ٣٥.

(٤) سفر التكوين: إصحاح ٣٠: ١٧ ـ ٢١.

- وتزوج من «راحيل» فأنجبت له: ١ـ يوسف [ومعناه: يَزِيدُ][(١)] ٢ ـ بنيامين [ومعناه: ابن يميني][(٢)].

- ثم تزوج يعقوب جارية «لَيْئَة» واسمها «زِلْفَة»، بطلب من «لَيْئَة»، فأنجبت له: ١ـ جَادا [ومعناه: فأل حسن، أو كتيبة قادمة] ٢ ـ أَشِيْرَ [ومعناه: سعيد أو مغبوط][(٣)].

- كما تزوج من جارية «راحيل» واسمها: «بِلْهَة» بطلب من «راحيل»، وأنجب منها: ١ ـ دانا [ومعناه: قاضٍ] ٢ ـ نَفْتَالِي [ومعناه: مُصَارَعَتي][(٤)].

وقد ذكرت المصادر العربية ذرية يعقوب وزوجاته، استنادًا إلى رواية العهد القديم[(٥)].

---

(١) سفر التكوين: إصحاح ٣٠: ٢٢ ـ ٢٤ .
(٢) سفر التكوين: إصحاح ٣٥: ١٨ .
(٣) سفر التكوين: إصحاح ٣٠: ٩ ـ ١٣ .
(٤) سفر التكوين: إصحاح ٣٠: ١ ـ ٨ .
(٥) من أقدم من روى ذلك محمد بن إسحاق، (الطبري: تاريخ الطبري، ١/ ١٩٠، ١٩١، ورواه أيضًا ابن كثير: البداية والنهاية، ١/ ٢٢٠، ٢٢١).

يوسف عليه السلام

نسبه ومولده:

أخبرنا رسول الله ﷺ بنسب يوسف عليه السلام مُثْنِيًا عليه وعلى سلسلة نسبه الشريف، حيث قال ﷺ: «**الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ**»[(1)].

ولد يوسف عليه السلام في أرض الكنعانيين -فلسطين- التي هاجر إليها جده إبراهيم من قبل، واستقر فيها، وولد فيها أبوه يعقوب وجده إسحاق من قبل، وكان يوسف واحدًا من اثني عشر ولدًا، هم أولاد النَّبيّ يعقوب عليه السلام، من أربع أزواج، وكان ليوسف شقيق واحد، وهو بنيامين -على رواية «العهد القديم».

«وَإِلَى هؤلاء الاثني عشر تُنْسَبُ أَسْبَاطُ بني إِسْرَائِيلَ كُلُّهُمْ، وَكَانَ أَشْرَفُهُمْ وَأَجَلُّهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ يُوسُفَ عليه السلام، وَقَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إلى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ نبي غَيْرُهُ وَباقي إِخْوَتِهِ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِمْ»[(2)].

الرؤيـــة:

رأى يوسف عليه السلام في منامه وهو صغير رؤيا كان لها دلالة قوية في حياته المستقبلية، وقد أدرك يعقوب عليه السلام هذه الدلالة، فأوصى ابنه بعدم قصها على إخوته، وقد سجل لنا القرآن الكريم تلك الرؤية وتوصية أبيه له، وتبشيره إياه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ

(1) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: 7]، (4/ 151/ ح:3390)، والحديث رواه ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، (1/ 458، 459م).

وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٤-٦].

قال المفسرون، وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير هذه الرؤية، وقد عرّفه أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة في الدنيا والآخرة؛ بحيث يخضع له أبواه وإخوته، وأوصاه بكتمانها وألا يقصها على إخوته؛ كي لا يحسدوه ويبغوا له الغوائل، ويكيدوا له أنواع الحيل والمكر[(١)].

وكان يعقوب عليه السلام ـ كما يقول الرازي ـ شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب بالأمارات الكثيرة[(٢)].

تآمر إخوته عليه:

يقصُّ علينا القرآن الكريم هنا صورة مما تسول له الأنفس البشرية من شرار الأمور وسيء الخصال، وذلك في دائرة تتصف بأنها من أوثق الصلات وأقوى العواطف وأشد الروابط، وهي دائرة الأخوة، والصورة هنا ليوسف عليه السلام مع إخوته، إذ يقص علينا القرآن الكريم نبأ تآمر أخوة يوسف عليه السلام عليه، يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).
(٢) مفاتيح الغيب، (١٨/ ٨٩).

وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف:٧-١٨].

وهما أحب إلى أبيهما منهم؛ لأنهما ـ يوسف وأخيه ـ صغيران، وهذه مسألة أوجدها الله في قلوب البشر دون اختيار منهم حتى في الحيوانات، ما دام الابن صغيرًا وضعيفًا وفي حاجة إلى الرعاية، فإنه يتمتع بحماية الأب والأم حتى يكبر[١].

وهكذا استشرى الحسد وكبر الكيد ليصل الأمر إلى القتل أو الإبعاد عن الأب المحب، وما نقموا منه إلا أنه كان صغيرًا محبوبًا من أبيه، وهم يظنون في فعلهم هذا صلاح أمرهم، بل لقد ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ وراحوا إلى أبيهم طالبين منه أن يرسله معهم يرتع ويلعب، مستأمنين عليه وناصحين وحافظين له، هكذا يزعمون، وقد نالوا ما طلبوا، مع خوف أبيهم وحرصه وتحذيره لهم، فسولت لهم أنفسهم أمرًا كانوا عازمين عليه من قبل، فألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا إلى أبيهم متمثلين له حزنًا وبكاءً، قاصّين عليه من وحي أنفسهم ومن هوى شياطينهم، ممثلين بقميص عساه أن يبرئ ساحتهم عند أبيهم، لكن أباهم النَّبيّ عليه السلام لم يكن في غفلة من أمرهم وما سولت لهم

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (٢/ ٨٩٣).

أنفسهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨] وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فهذه البداية لتحقيق الحكم والعلم وإتمام النعمة، ولتحقق الرؤيا التي قصَّها على أبيه من قبل.

حسنه:

ثبت من كافة الطرق الدينية والتاريخية أن يوسف عليه السلام كان على درجة كبيرة من الحسن، ولم يُعهد أن اتُّصف أحد من بني آدم بمثل حسنه، عدا رسول الله ﷺ الذي تفرد بالحسن من بني البشر، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بحسن يوسف عليه السلام عندما رآه في السماء الثالثة، في رحلة المعراج؛ قال ﷺ: «... **ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام إِذَا هُوَ قَدِ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ**»[(١)]، كذلك وصفت أمه بالحسن، حيث قال ﷺ: «**أُعطيَ يوسف و أمه شطر الحُسْن**»[(٢)].

كما أن رواية العهد القديم أكدت جمال أمه «راحيل» وأن يعقوب أحبها عندما رآها أول مرة، عندما كانت ترعى غنم أبيها، وأنه سقى لها غنمها، ثم اتفق مع والدها «لآبان» أن يتزوجها، على الرغم من أنها كانت أصغر من أختها البكر «لَيْئَة» التي لم تكن قد تزوجت بعد[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، (١/ ١٤٥/ ح:٢٥٩).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٢٢/ ح:٤٠٨٢)، رواه أنس بن مالك، وصححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم.

(٣) تقول رواية العهد القديم: «وأما راحيل، فكانت جميلة الصورة وحسنة المنظر، فأحب يعقوب راحيل، وأجاب يعقوب خاله: أخدمك سبع سنين لقاء زواجي براحيل ابنتك الصغرى»، (سفر التكوين: ١٩: ١٧ـ١٨).

نبوتـــه:

كان يوسف عليه السلام مسلمًا مثل أبيه وسائر الأنبياء والرسل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

وقد أثبت القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة رسالة يوسف عليه السلام، فقال تبارك وتعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[غافر: ٣٤].

وقد بيّن يوسف أسس دعوته ومصادرها في عدة مواقف، منها في أثناء وجوده في السجن، حيث فسر رؤيا صاحبيه المسجونين معه، ثم عرفهم دعوته ودعاهم إليها، قال تبارك وتعالى على لسانه: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٣٧-٤٠].

وفي السُّنَّة: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ**» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نبيُّ اللهِ، ابْنُ نبيِّ اللهِ، ابْنِ نبي اللهِ،**

ابْنِ خَلِيلِ اللهِ»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ، إِذَا فَقِهُوا»[1].

وقد ذهبت طائفة من العلماء وأيدهم ابن كثير إلى أن يوسف ﷺ هو الوحيد بين أخوته الأحد عشر الذي أوحي إليه، وباقي إخوته لم يوحَ إليهم، وذكر ابن كثير أن من استدل على نبوتهم بقوله ﷻ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بالقوي؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء[2].

حال مصر زمن دخول يوسف إليها:

كان دخول يوسف ـ على المشهور ـ أيام احتلال الهكسوس مصر، وكانوا أسيويين ساميين، أو تبينت فيهم العناصر السامية من سوريا وفلسطين، وقد دخلوا مصر في أواخر الأسرة الرابعة عشرة غزاة، يغريهم ضعف البلاد السياسي، وتغريهم ثروتها وخصب أراضيها، وتدفعهم من أراضيهم ظروف طبيعية صعبة، ساد فيها الجفاف وحل القحط الذي امتد حتى شمل مصر في أعقاب مجيء يوسف بسنين، ويذكر المؤرخ المصري القديم «مانيتون» أن هؤلاء القوم أخضعوا مصر بسهولة دون قتال، فأحرقوا المدن ونقضوا المعابد واستغلوا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، (٤/ ١٤٩/ ح:٣٣٨٣).

(٢) البداية والنهاية، (١/ ٢٢٥).

الناس استغلالًا وحشيًا، فقتلوا بعضهم وأسروا أزواجهم وأبناءهم، ثم هذبتهم الحياة المصرية المستقرة والمترفة، فتلقب ملوكهم بألقاب ملوك مصر، وتسموا بأسمائهم، واتخذوا آلهتهم، ثم سلكوا مسلك التعايش السلمي مع عواهل مصر، وقد وصل الهكسوس إلى القوصية، واتخذوا عاصمتهم في شرق الدلتا في مدينة «حوت وعرة» ـ هوارة، وفتحوا أبواب مصر الشرقية لهجرة العناصر السامية والكنعانية من بني جلدتهم، وكان منهم الرعاة، ما جعل «مانيتون» يفسر الهكسوس بـ: «ملوك الرعاة»، وفي هذا الزمان الذي أظل مصر أقبل يوسف عليها «وكان الذي اشتراه فوطيفارع»، وهو اسم مصري مصحف عن: «بادى بارع» بمعنى: عطية رع[(١)].

دخول يوسف إلى مصر:

شاءت إرادة الله ﷻ أن يدخل يوسف مصر أسيرًا تم شراؤه بثمن بخس؛ بدراهم معدودة، ليصبح بعد ذلك على خزائن الأرض عزيزًا مكرمًا، يتحكم في أقوى اقتصاد في الأرض، فقد دل الله عليه قافلة من المسافرين من الشام إلى مصر، فعثروا عليه عندما طلبوا الماء من بئر على الطريق، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:١٩-٢١].

أي: إنهم باعوه بثمن بخس؛ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة؛

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ٢٧، ٢٨ .

خوفًا من أن يأتي ذووه أو أهله ويأخذوه منهم ، فأسرعوا ببيعه بأي ثمن ليفوزوا بالمال، وكان العبد في مثل هذه السن يساوي أكثر من ذلك، لكنهم أخذوا دراهم معدودة، ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، أي: لم يكونوا يرغبون فيه ولا في الإبقاء عليه[1].

ويذكر البعض أن اسم عزيز مصر الذي اشترى يوسف آنذاك «فوطيفارع»[2]، وقد أوصى هذا العزيز امرأته به فقال لها ـ كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ وذلك لحاجتهما إليه في أحد أمرين: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في أي شيء، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ حيث دلت أقول العلماء على أن العزيز لم يكن ينجب، وقد روعي يوسف أحسن رعاية وأكرم في مثواه، وقد أرجع يوسف هذا الفضل لصاحبه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[يوسف:٢٣]، وقد آتاه الله حكمًا، أي الحكمة العملية أو النبوة، وكان معلمًا، أي: آتاه الله الحكمة النظرية أو علم الدين كما ذكر بعض المفسرين[3].

قصته مع امرأة العزيز:

مثل جُلّ الأنبياء والرسل ـ أو كلهم، تعرض يوسف عليه السلام لعدة محن وابتلاءات، منها: محنة شديدة في بيت من اشتراه ورباه وأسكنه معه في قصره، وكل هذا لم يلقَ بالًا ولا اعتبارًا ممن تسببت في تلك المحنة، فلم تراعِ العلاقة المركبة بالغة الحساسية بين هؤلاء الثلاثة الذين دخلوا في هذه المحنة، وهم يوسف عليه السلام والعزيز صاحب مصر، وزوجته، وبالإضافة إلى تلك الاعتبارات،

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، (٢/ ٩٣٣، ٩٣٤)، ويذكر البعض أن في بخس الثمن دليلًا على زيادة المعروض للبيع من العبيد في ذلك الزمان، (أحمد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٣٠)
(٢) أحمد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٣٠.
(٣) الرازي: مفاتيح الغيب، (١٨/ ١١١).

فإن الاعتبار الأقوى والأكثر حساسية، والأبعد دينًا وخلقًا، مقامُ النبوة الذي كان فيه يوسف عليه السلام؛ لذا عُصِمَ من الخطأ والوقوع في الفاحشة، لكن بقيت الاعتبارات البشرية لطبيعته، تلك التي حاول أن يحوم حولها بعض المتأولين والمفسرين، وغيرهم، بل بعضهم قد وقع فيما عساه أن تجنح إليه تلك الطبيعة، ضاربين صفحًا عن مناعة العصمة وقوة حصانتها.

وفي إطار تلك الطبيعة البشرية يأتي يوسف الشاب الذي أوتي شطر الحسن، فلم تحسَّ نساء المدينة بتقطيع أيديهن من فرط حسنه، لما أخرجته لهنَّ زوجة العزيز؛ حتى لا يلقين اللوم عليها فيما فعلت، لكن يوسف عليه السلام مع ذلك كان - مع عصمة الله تعالى له - قد تربى على جميل الخلق وحسن الفعال، من منطلق طبيعته في مرحلة إعداده للنبوة، ومن كونه ابن نبي الله يعقوب، فلم يحرم من دعواته له، وهو الغائب عنه المشتاق إليه، وأيضا من منطلق تلك التربية الحسنة التي نالها يوسف في بيت العزيز، وقد ذكّر وأقر بها، فقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾[1].

أما امرأة العزيز، فهي سبب هذه المحنة التاريخية مع أحد أنبياء الله، وفي بيت وزير لدولة لعلها أكبر دول الأرض آنذاك، وقد بدا من سياق منطقها في الرد على من لامها - من زوجها أو نساء المدينة أو غيرهن - أن لها من المبررات ما يمكن أن تسند خطأها عليه، فيوسف شاب فائق الحسن يعيش معها في قصرها، وقد ربته وأحسنت إليه، وقد تظن أنه غلامها تملكه في كل شيء، حتى قالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢].

(١) قال مجاهد، وغيره: أي سيدي زوج المرأة أحسن منزلتي، وأكرمني، وائتمنني، فلا أخونه، (الطبري: تفسير الطبري، ١٣/ ٧٩).

لكن من غرائب الزمن وعجائب الأمم أن يُحمّل الشريف خطايا السفيه، وأن يعاقب الضعيف بذنب ذي السلطان، وهذا ما حدث مع يوسف العفيف الشريف في هذا القصر الظالم أهله.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[يوسف:٢٣-٢٩].

سبقت الإشارة إلى ما نسبه بعض المتأولين من المفسرين وغيرهم إلى يوسف في هذه المحنة من تصرفات وسلوكيات لا تتسق مطلقًا مع مقام النبوة، ولا حتى مع ما عُهد على يوسف من حسن التربية ورفيع الأخلاق، وقد ذكر ابن كثير أن أكثر أقوال المفسرين هنا منقولة من كتب أهل الكتاب، وقال: إن الإعراض عنها أولى بنا، والذي يجب أن يُعتقد أن الله ﷻ عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾[يوسف:٢٤، ٢٥]، أي: هرب منها طالبًا الباب؛ ليخرج منه فرارًا منها، فأتبعته في أثره[1].

---

(١) البداية والنهاية، (١/ ٢٣١).

لكن ثمة عوامل بالغة وقطعية التأكيد على براءة يوسف عليه السلام مما نسب إليه، مما يُعد في حق البشر العادين من الصغائر، فضلًا عما علا ذلك، ومن تلك العوامل:

أولًا: أن ما نسب إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، إذا فُهِم على أنه هَمٌّ منه تجاه امرأة العزيز، فلن يزيد على كونه هَمًّا نفسيًّا، أي حدثته نفسه بذلك، لا هَمًّا واقعيًّا، وذلك لما يأتي:

١ـ لو كان هَمًّا واقعيًّا لما كان قد استبق هو الباب عندما همت به هي، ثم تابعته هي حتى قدت قميصه من دبر، كما نص القرآن الكريم: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾[يوسف:٢٥].

٢ـ أن الهَمَّ الواقعي يدخل في إطار غواية الشيطان، خاصة في مثل هذه المواقف، والشيطان كان قد استثنى عباد الله المخلصين من غوايته لهم؛ لعدم استطاعته ذلك، في أثناء حواره مع رب العالمين، إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩، ٤٠]، ويوسف ـ فضلًا عن كونه نبيًّا معصومًا ـ لا يستطيع الشيطان غوايته، فهو أيضًا من «المخلصين» الذين أعلن الشيطان عدم استطاعته غوايتهم: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤]، وقد حكم من حُكِّمَ في الواقعة بصدق يوسف عليه السلام وبراءته، وتكذيب امرأة العزيز، وأكد زوجها كذبها وأنه من كيد النساء: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾

[يوسف:٢٦-٢٨].

كذلك لم تدافع هي عن نفسها وتقول: إنه هَمَّ بها وراودها عن نفسها، ولكنها

برأته وصدقته واعترفت بأنها هي من راودته عن نفسه، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

٣ ـ أن عناية الله كانت تحوط نبيه وتعصمه من مجرد الخطأ والسوء، وليس فقط من الوقوع في كبائر الإثم مثل هذه الفاحشة وغيرها: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤]؛ لأنه لا يمكن ـ أو حتى يُتخيل ـ أن يترك الله نبيه يقع فريسة لكيد النساء وغواية الشيطان، حتى في أدنى مراحل ذلك.

ثانيًا: إذا صح أنه كان هَمًّا نفسيًّا، حدثته به نفسه، فهذا أمر قد تجاوز الله عنه، ما لم يتحول إلى عمل أو كلام؛ لأن المرء لا يملك هذه المرحلة من نفسه، فعن رب العزة ﷻ أن العبد إذا «**هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**»[1]، وعن النبيّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»[2]، ومع الأنبياء أولى.

موقف عزيز مصر من فضيحة زوجته:

لم يكن موقف عزيز مصر بالمستوى الذي يتناسب مع هذه الفضيحة التي

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٥/ ٣٨٤/ ح:٣٤٠٠)، والحديث رواه ابن عباس، عن النبيّ فيما يرويه عن ربه، إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري في «صحيحه»، باب: مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ، (٨/ ١٠٣/ ح:٦٤٩١)، ومسلم في «صحيحه»، باب: إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ، (١/ ١١٨/ ح:١٣١)، واللفظ للثلاثة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٦/ ١٢٨/ ح:١٠١٣٦)، والحديث رواه أبو هريرة، إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري في «صحيحه»، باب: الطَّلَاقِ فِي الإِغْلَاقِ وَالكُرْهِ ...، (٧/ ٤٦/ ح:٥٢٦٩)، ومسلم في «صحيحه»، باب: تَجَاوُزِ اللهِ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَالْخَوَاطِرِ بِالْقَلْبِ إِذَا لَمْ تَسْتَقِرَّ، (١/ ١١٦/ ح:١٢٧)، واللفظ للبخاري، وفى رواية أحمد: «ما لم تعمل به أو تَكَلَّمْ»، وفى رواية مسلم: «ما لم تعمل أو تكلم به».

علم بها القاصي والداني، بل كان موقفًا مخزيًا، ليس فيه شيء من نخوة الرجولة، ولا استنفار الغيرة، ويبدو أن زوجة العزيز كانت على علم بحاله ويقين بموقفه المتوقع، ومن ثم كان هذا حافزًا لها على فعلتها، وقد سجل القرآن الكريم موقف العزيز بجلاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[يوسف:٢٨، ٢٩].

انتشار الفضيحة وموقف امرأة العزيز ونساء المدينة:

انتشرت فضيحة امرأة العزيز في أرجاء المدينة، ويبدو أنه كان للنساء تعاطٍ خاصٌّ مع مثل هذه الوقائع؛ من الغمز واللمز والمكر والتشهير، وغير ذلك، ولعل هذا ما جعل موقفهن هذا مع موقف امرأة العزيز جديرًا بأن يسجله القرآن الكريم؛ لتأكيد وبيان الكثير من الحكم في هذه المحنة، كذلك يبدو من خلال السياق القرآني أن المراودة المفردة تحولت إلى موقف جماعي قد لا يبعد كثيرًا عن المراودة؛ حيث تقطيع الأيدي من فرط الإعجاب، ووصفه بأنه ملك، وكذلك قول يوسف بصيغة الجمع: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]، كذلك قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾[يوسف:٣٣]، وقوله ﷻ: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾[يوسف:٣٤]، ثم ما ظهر في حديثه مع رسول العزيز عندما استدعاه لتفسير رؤيته، ثم في حديث العزيز مع نساء المدينة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف:٥٠، ٥١].

وقد قص علينا القرآن الكريم تعاطي نساء المدينة مع هذه الفضيحة، وموقف

امرأة العزيز منهن ومن يوسف، واستغاثة يوسف بربه منهنَّ واستجابته ﷻ في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يوسف: ٣٠-٣٤].

دخول يوسف السجن وتفسيره للأحلام ودعوته إلى الله:

على الرغم من ثبوت براءة يوسف عليه السلام من كل الاتجاهات، وأظهرها اعتراف امرأة العزيز ببراءته وتكذيب نفسها، دخل يوسف السجن، وهو البريء وسُكِت عن المذنب، ليحمل البريء جريمة المذنب أمام الناس، ويبرأ المذنب في أعينهم، ولكن الله أراد أن يدخل السجن، ويمر من خلاله بمرحلة مهمة في حياته، يفسر فيها الأحلام لصاحبيه في السجن، ويدعو فيه إلى عبادة الله وحده، وترك ما عداه من معتقداتٍ، ما أنزل الله بها من سلطان، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[يوسف:٣٥-٥٣].

وهكذا صار يوسف عليه السلام يعلم تأويل الأحاديث وعُرِفَ بذلك، وهو ما ذكره له أبوه من قبل عندما قص عليه رؤيته: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن

تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٦]، ثم قال يوسف: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧]؛ وذلك لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، وكان على ملة آبائه الأنبياء - إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهو أمر حتميٌّ لهم ولغيرهم من الناس، ما كان لهؤلاء ولا لغيرهم أن يشركوا بالله شيئًا، وهكذا كان علمه بتفسير الأحلام المدخل لدعوة هؤلاء القوم - داخل السجن وخارجه - لعبادة الله وبيان بطلان ما يعبدون من دون الله، وإقامة الحجة عليهم: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف:٣٩، ٤٠].

كما تأكدت براءة يوسف من نساء المدينة: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف:٥١]، وكذلك من امرأة العزيز صاحبة الواقعة، التي قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

وقد أثنى النَّبيُّ ﷺ على صبر يوسف وجلده في السجن، حتى إنه عندما استدعاه الملك وأمر بإخراجه من السجن لم يتلهف الخروج مثل أيِّ مسجون، بل طلب دليل براءته، حيث قَالَ ﷺ: «**لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِي**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ﴾ [يوسف: ٥٠]، (٦/ ٧٧/ ح:٤٦٩٤)، والحديث رواه أبو هريرة، وهذا من باب تواضعه ﷺ.

دعوة يوسف ورسالته:

كما مر في نبأ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فإنهم كانوا جميعًا على الإسلام بمعناه العام، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده عامة، وهؤلاء الأنبياء وصَّوا به ذريتهم، كما نص القرآن الكريم، فكان الجميع على دين الإسلام، ومن هؤلاء يوسف الذي وصَّاه أبوه يعقوب عليه السلام ـ مع إخوته ـ بالإسلام، فشهد يوسف وإخوته أنهم يعبدون إله أبيهم وآبائه وهم له مسلمون، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقد كان السجن مرحلة بارزة في حياة يوسف عليه السلام من حيث أحداثها، ومنها دعوته أهل السجن إلى الله وترك معتقداتهم المتعددة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكان مدخله إلى ذلك تفسيره لأحلام بعض المسجونين معه: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٧-٤٠].

وكان يوسف دائمًا شاكرًا لأنعم الله، مقرًّا بفضله ومَنِّه، داعيًا أن يثبته على الإسلام، وأن يتوفاه عليه، ومن ذلك قوله بعد تمكين الله له في الأرض، وتغيير

حاله من الأسير الضعيف والمتهم المسجون إلى صاحب رأي ومنزلة في حكم مصر، بل يتحكم في ﴿خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[يوسف:٥٥]، وهي صياغة قرآنية لها مدلولها حتى وإن صرفت إلى خزائن مصر فقط: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

وقد ذكَّرَ مؤمن آل فرعون قومه برسالة يوسف إليهم، وموقفهم منه، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[غافر:٣٤].

يوسف على خزائن الأرض:

شاء من بيده ملكوت كل شيء ومن يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ﷻ أن يمكن لنبيه ورسوله يوسف بعد هذه المراحل من المعاناة بدءًا من غدر إخوته به وإلقائه في الجب، ثم بيعه صغيرًا أسيرًا إلى عزيز مصر، ثم فتنة امرأة العزيز، ثم محنة السجن؛ فقد استدعاه الملك وطمأنه، بل أثنى عليه، وعَرَّفه أنه ـ لدى الملك ـ ذو مكانة عالية ومنزلة سامية، فطلب يوسف عليه السلام من الملك أن يحكمه في الجانب الاقتصاديّ لمصر؛ لأهمية هذا الجانب وخطورته، ولأن يوسف أفضل من يتولاه؛ لما كان معروفًا عن سيرة يوسف وأخلاقه وخبرته؛ وقد دلل يوسف على طلبه بأنه يجمع أهم صفتين فيمن يمكن أن يتولى هذه المسئولية، وهما: الحفظ والعلم: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥]، فجعله عزيز مصر على خزائن الأرض كما طلب، فكان حفيظًا عليها .

حتى إن بعض الروايات تذهب إلى أن العزيز فوض أمر مصر كله ليوسف عليه السلام، و«ملك يوسف مصر»[1]، وقد سجل القرآن الكريم وضع تمكين يوسف في مصر في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[يوسف: ٥٠-٥٧].

يقول الفخر الرازي أن كلمة ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب[2]، أما طلبه للإمارة وتزكيته لنفسه بأنه حكيم عليم، فذلك التصرف كان ـ كما يقول الرازي ـ واجبًا عليه لوجوه:

الأول: أنه كان رسولًا حقًا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

والثاني: أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما يفضي إلى هلاك الخلق، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتي بطريق يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ ص٣٣.
(٢) مفاتيح الغيب: (١٨/ ١٥٩).

مستحسن في العقول، وإذا ثبت هذا فإنه ﷺ كان مكلفًا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[1].

أما قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، أي: حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها، ويقال أيضًا: حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجتهم[2].

وكان يوسف ﷺ من قبل قد علم شئون البلاد ونظمها، وطرائق عيشها وأساليب أهلها فيها، وذلك بحكم إقامته بها في خدمة العزيز مدبرًا أمور بيته متحملًا ما يُسْنَد إليه من وظائف وأعباء، وكان يدرس ما يجري أمام عينيه، فأحصى مناصبها وأشدها في ذلك الزمان خطرًا[3]، وقد نجى الله مصر على يد نبيه يوسف ﷺ من ويلات الجوع والقحط التي ضربت إقليمها، بفضل التدابير الاقتصادية التي اتخذها يوسف، وبفضل حفظه وخبرته اللتين قدمهما مسوغًا لعزيز مصر عندما طلب منه أن يجعله على ﴿خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾، بل إن مصر أصبحت ملجأ للبلاد التي ضربها القحط والجوع، إذ أتى أهلها إلى مصر ليتزودوا بما يحتاجون، وفي مجيء إخوة يوسف إلى مصر لهذا الغرض نموذجٌ لذلك: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].

ومما ذكرته المصادر العربية من إصلاحات يوسف وإدارته في مصر: أنه حفر

(١) الرازي: مفاتيح الغيب: (١٨/ ١٦١).
(٢) أحمد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٤٩ .
(٣) المرجع السابق نفسه.

عدة خلجان في الفيوم، منها خليج اللاهون، وخليج عرف بالخليج الشرقي، وآخر عرف بالخليج الغربي، كل هذا في سبعين يومًا، فلما رآها الملك قال لوزرائه: هذا عمل ألف يوم، فسُميت الفيوم، كما يروى[1].

مجيء إخوة يوسف إلى مصر:

بعد تولي يوسف أمور مصر الاقتصادية واستقرارها ونهضتها، وفي حين من الدهر ضرب الجدب والقحط مصر وبعض البلاد المجاورة ومنها كنعان، وهي بلاد يوسف القديمة، التي مازالت بلاد أبيه وإخوته، فجاء إخوته - مثل غيرهم من النَّاس - إلى مصر ليتزودوا بحاجتهم منها من الغلال وغيرها، حيث كانت مخازن مصر عامرة بغلالها وأقواتها بفضل سياسة يوسف عليه السلام وإدارته.

وعندما قدم إخوته عليه عرفهم وهم له منكرون، وقد سألهم عن أحوالهم فعرفوه أنهم اثنا عشر ولدًا، أحدهم فقد صغيرًا، وأبوهم شيخ كبير، وكان يحبه كثيرًا، وأنهم أتوا يلتمسون الميرة من مصر، فجهزهم يوسف عليه السلام وأكرمهم، ثم طلب منهم أن يأتوه بأخيهم الذي استبقاه أبوه عنده ولم يتركه معهم في رحلتهم إلى مصر، وهو بنيامين شقيق يوسف، وهددهم إن لم يأتوه به فلن يكيل لهم مرة أخرى ولا يقربون[2].

وقد أمر يوسف عليه السلام غلمانه أن يضعوا المقابل الذي دفعوه لهذه الغلال والطعام في رحالهم دون علمهم؛ خوفًا من ألا يكون عند أبيه أموال؛ نظرًا لظروف الجدب والقحط، أو توسعة على أبيه وإخوته، أو لعلهم يعودون بسببه مرة أخرى ليردوه إلى يوسف[3]. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٣٥.

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (١٣/ ٢٢٣، ٢٢٤)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٤/ ٣٩٨).

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (١٣/ ٢٢٧ - ٢٢٩).

لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[يوسف:٥٨-٦٢].

وأمام هذا الطلب ـ بل الشرط ـ من يوسف لإخوته اضطروا إلى محاولة تلبيته من خلال مراودة أبيهم، وهم أصحاب سابقة معه في هذا الأمر؛ حيث أخذوا ابنه الأصغر ولم يردوه وادعوا أنه أكله الذئب، وما زال أبوهم يعانى ألم فراقه، لكنَّ أباهم ذكرهم بسابقتهم مع أخيه يوسف، ولكنهم ما زالوا به حتى أرسله معهم بعد أن أخذ عليهم موثقًا من الله ليأتون به أباهم، ثم استودعهم الله وودعهم وأوصاهم، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف:٦٣-٦٨].

ودخل إخوة يوسف عليه ومعهم أخوهم، وقد رتب يوسف عليه السلام أمرًا ليبقي معه أخاه هذا، فجعل السقاية ـ أو الصواع ـ[1] في رحله، وكان الحكم على من

(١) قيل بمعنى واحد، وهو: الإناء الذي يشرب فيه الملك، وقيل يوسف، (الطبري: تفسير الطبري، دار هجر، ١٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦)، ومع أن هناك قراءات مختلفة في «صواع» منها: «صَاع» =

وجد هذا الشيء في رحله أن يُسْتَرق عند الملك جزاء فعلته، وهكذا وقع الأخوة العشرة في ضائقة شديدة، فهذه هي المرة الثانية التي يأخذون فيها أخًا لهم من أبيهم ثم يفقدونه، قصدًا أو بغير قصد، وقد أخذ عليهم أبوهم موثقًا من الله، ولم يكن هناك بُدٌّ من الرجوع إلى أبيهم دون أخيهم، حيث قصوا عليه ما حدث لهم، فقال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

ثم طلب منهم أن يرجعوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه، وألا ييأسوا من روح الله، فرجع الأخوة وفي هذه المرة عرَّفهم يوسفُ عليه السلام ما فعلوه معه قديمًا فعرفوا أنه يوسف وأقروا بخطئهم، وبتفضيل الله له عليهم، فعفا عنهم يوسف ثم طلب منهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، وقد فصل القرآن الكريم هذه المرحلة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ

=و«صَوْع»، إلا أن الطبري قال: إن الذي عليه قراءُ الأمصار وإجماع الحجة هو: «صُوَاع الملك»، وهو: الإناء الذي كان يوسف يكيل به الطعام، (الطبري السابق: ١٣/ ٢٤٩).

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ
أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن
وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ
كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا
فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا
عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ
أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ
يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ
تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ
أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ
فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا
ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي
ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾
قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن
يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ
أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا
وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ
رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ
أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ

ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يوسف:٦٩-٩٨].

مجيء أهل يوسف إليه في مصر:

شاءت إرادة الله أن يلتقي النبيَّان الأب مع الابن بعد هذا الغياب الطويل، وبعد ما عاناه الأب من فقد ابنه المحبب إلى قلبه، والذي ابيضت عيناه من حزنه عليه، بل كاد أن يكون من الهالكين، لكنه صبر صبرًا جميلًا واستعان بربه على هذا الفقد، وكان لسانه وحاله يقولان: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، وكان ابتلاؤه على قدر مقام الأنبياء وإيمانهم، فرحم الله ضعفه واستجاب لتضرعه واحتسابه، وحفظ له ابنه ورزقه بسطة في الحسن والعلم والحكم ثم رده إليه ردًّا جميلًا، فسبحان من لا تضيع ودائعه .

ودخل يعقوب عليه السلام ومعه أولاده مصر، وكان في استقبالهم ـ كما يقول المفسرون ـ يوسف عليه السلام، وعزيز مصر على رأس الحاشية والجنود والعظماء وأهل مصر، فرفع أبويه على العرش ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾، فتحققت بذلك رؤياه التي قصها على أبيه من قبل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف٩٩-١٠١].

شعيب عليه السلام

قوم شُعيب وموقعهم:

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريبًا من بحيرة قوم لوط ـ البحر الميت، وكانت أرض مدين تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء، كما يذكر المؤرخون[١].

وقد ورد خبر «مدين» في غزوة «زيد بن حارثة» لجذام في «جسمي»، ويظهر من بعض الموارد الإسلامية أن «مدين» كانت في صدر الإسلام من أرض «جذام»، وأنها كانت إذ ذاك أكبر من «تبوك»، وبها بئر روي أنها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام[٢].

ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المدينيِّين إنما كانت تقع إلى الشرق من العبرانيين، والظاهر أن القوم قد توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، وسرعان ما اتخذوا لهم هناك مواطن جديدة، عاشوا فيها أمدًا طويلًا؛ حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة[٣].

وقد ذكر «بطليموس» موضعًا يقال له: «مودينا Modiana» على ساحل البحر الأحمر، يرى العلماء أنه موضع «مدين»، وهو ينطبق على موضع أرض مدين المعروفة في الكتب العربية، وذكر «يوسفوس فلافيوس» المؤرخ اليهودي المعروف مدينة سماها «Madiana»، وقال: إن موسى زارها[٤].

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٣٠٠.
(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، (٢/ ١٠٥).
(٣) محمد بيومي مهران: مرجع سابق، ص ٣٠٠، وما بعدها.
(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، (٢/ ١٠٦).

وهذا يدل على أن مدين إنما كانت معروفة بصفة عامة في أوائل التاريخ المسيحي، أما مدينة الحوراء - مدينة أهل مدين القديمة، التي تقع على مقربة من واحة البدع - فلم يكن الأنباط - حتى القرن الأول قبل الميلاد - قد قاموا بعد بتحصينها وتوسيعها؛ ولعل هذا هو السبب في أن الكُتّاب الذين عاشوا قبل هذه الفترة، لم يُعنوا بذكرها، على الرغم من معرفتهم بالإقليم الذي كانت تقع فيه[(١)].

والقرآن الكريم يسمي قوم شُعيب «مدين» و«أصحاب الأيكة»، والأيكة هي الغيضة من الشجر الملتف المجتمع - كما يقول المفسرون -[(٢)]، وقد عدَّهم بعض المفسرين أمتين، وأن شُعيب أرسل إلى أمتين من الناس[(٣)]، وأن إحداهما ليست ببعيدة عن الأخرى، فبعض الروايات تذكر أن أصحاب الأيكة هم أهل البادية[(٤)]، وبعض المفسرين يقول: إن أصحاب الأيكة كانوا في مكان قريب من مدين[(٥)].

في حين يذهب بعض آخر من المفسرين إلى أنهم أمة واحدة، ومن هؤلاء ابن كثير، إذ يقول: إن أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ هُمْ أَهْلُ مَدْيَنَ على الصَّحِيحِ، وَكَانَ نبيُّ اللهِ شُعيب مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هُنَا: أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ؛ لأَنَّهُمْ نُسِبُوا إلى عِبَادَةِ الأَيْكَةِ، وهي شَجَرَةٌ. وَقِيلَ: شَجَرٌ مُلْتَفٌّ كالغَيضة، كَانُوا يَعْبُدُونَهَا؛ فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء:١٧٦]، لَمْ يَقِلْ: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ»، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾[الشعراء:١٧٧]، فَقَطَعَ نِسْبَةَ الْأُخُوَّةِ بَيْنَهُمْ؛ لِلْمَعْنَى الذي نُسِبُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَمْ

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٣٠٠ .
(٢) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٣٢٢)، و(١٤/ ٩٩).
(٣) المرجع السابق، (١٤/ ١٠٠)، والشعراوي: تفسير الشعراوي، (١٣/ ٧٧٤٩) .
(٤) المرجع السابق، (١٧/ ٦٣٣).
(٥) الشعراوي: تفسير الشعراوي، (١٣/ ٧٧٤٨) .

يَتَفَطَّنْ لِهَذِهِ النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أَهْلِ مَدْيَنَ، فَزَعَمَ أَنَّ شُعَيْبًا عليه السلام بَعَثَهُ اللهُ إلى أُمَّتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ثَلَاثِ أُمَمٍ"[1].

عصر أهل مديـن:

يدل السياق القرآني لقصص الأنبياء وأقوامهم أن قوم شُعيب عليه السلام ـ أو أهل مدين ـ جاءوا بعد ذكر قوم لوط وقبل ذكر قوم موسى عليه السلام، ومن نماذج ذلك:

١ ـ بعد ذكره تعالى لنبأ لوط وقومه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٨٠] ذكر تعالى نبأ شُعيب وقومه مدين، فقال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٨٥]، ثم ذكر ﷻ بعد ذلك نبأ موسى عليه السلام وفرعون، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:١٠٣].

٢ـ ذكر تعالى في موضع آخر أصحاب مدين بعد قوم إبراهيم، ولوط معاصر لإبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[التوبة:٧٠].

٣ـ وفي موضع ثالث ذكر الله ﷻ نبأ قوم لوط، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود:٧٧]، ثم ذكر نبأ قوم شعيب، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا

(١) تفسير ابن كثير، (٦/ ١٥٩).

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[هود: ٨٤].

٤ ـ وفي نفس الإطار يأتي قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾[الحج: ٤٢، ٤٣].

٥ـ ولعل ما يأتي في هذا الإطار تأكيد القرآن الكريم ـ على لسان شُعيب عليه السلام ـ أن قوم مدين كانوا قريبين من قوم لوط السابقين لهم، إذ يقول تعالى على لسان شعيب: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٩].

وإذا ما اعتُبر ـ كما يرى بعض المؤرخين المعاصرين ـ هذا القرب بين قوم شُعيب وقوم لوط قربًا زمانيًا، وأن عصر الخليل عليه السلام كان بين [١٩٤٠ـ ١٧٦٥ق.م]، وأن قوم لوط إنما كانوا معاصرين لإبراهيم عليه السلام أمكن القول: إن شعيبًا وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، بخاصة إذا ما كان صحيحًا ما ذهبت إليه نصوص التوراة من أن القوم إنما كانوا ينتسبون إلى مدين ـ أو حتى مديان ـ نسبة إلى ولد الخليل إبراهيم من زوجه الكنعانية «قطوره».

على أن هذا المؤرخ يقدر ـ ليس على سبيل اليقين ـ أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر [ق. م]، إذا ما كان صحيحًا ما ذهبت إليه بعض الروايات من أن «يثرون» كاهن مدين وصهر موسى إنما هو شُعيب نبي مدين العربي؛ وذلك لأن رحلة موسى إلى مدين بعد فراره من مصر ـ وكذا لقاءه مع

كاهن مدين بعد قيادته للخروج من مصر - إنما تمت في القرن الثالث عشر [ق.م][1].

أحوال قوم شعيب:

كان قوم شُعيب - أو أهل مدين - من الأقوام الذين عرفوا بفساد اجتماعيّ واقتصاديّ - أو تجاري على التحديد - يتصل بالمعاملات التجارية بينهم وبين غيرهم من الناس، وجاء هذا في إطار اشتغال هؤلاء القوم بهذا النشاط الاقتصادي، وساعدهم على ذلك موقع بلادهم على طرق تجارية تُعدُّ دولية آنذاك، واشتغالهم بهذا النشاط التجاري، وكان هؤلاء القوم في أعداد غفيرة، كما أكد قوله تعالى على لسان شعيب: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦] مما جعل فسادهم الاقتصادي - وعلى الأخص التجاري - والاجتماعيّ أيضا - فيما يتصل بهذا الجانب - كبيرًا.

وقد نهى القرآن الكريم عن هذا الفساد - بصوره المختلفة - في الكثير من مواضعه، وجَرَّمَ فاعليه، وذكر ﷺ صورًا من عقابهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣].

كما أن هذا الفساد متفشٍّ في المشتغلين بالتجارة في مختلف عصور التاريخ البشري، وله صور مختلفة تتحدث بتحديث الزمان وتباين المكان واختلاف الأحول، لكن الله ضرب لنا قوم شُعيب - أو أهل مدين - مثلًا لهؤلاء التجار المفسدين على مر التاريخ الإنساني، وفي ذلك دلالات كبيرة على كثرة فسادهم وقوة أثره، وعدم اعتبارهم.

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٣٠١، ٣٠٢.

أما عن موقع مدين التجاري وصلته بالطرق التجارية؛ فيذكر المؤرخون أن منطقة مدين تقع على الطريق الرئيس للتجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها عبر مكة ويثرب والساحل الشرقي للبحر المتوسط وحول خليج العقبة إلى مصر، ويبدأ هذا الطريق من عدن في بلاد اليمن متجهًا نحو الشمال إلى مأرب فنجران، ثم الطائف فمكة والمدينة وخيبر، فالعلا ومدائن صالح، وهنا ينفصل الطريق فيتجه فرع منه إلى تيماء صوب العراق، وأما الفرع الثاني فيستمر في نفس الاتجاه حتى البتراء، فغزة فبلاد الشام ومصر.

وهكذا كانت مدين تقع على أهم طريق من طرق النقل التجاري، ومن ثم فقد كانت آفة مدين إنما هي آفة كل المدن على مدرجة الطرق، ومن ثم فقد كانت قصتها في القرآن الكريم إنما هي قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق، وهكذا كانت رسالة شُعيب عليه السلام رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع في البيئة التي تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم[1].

دعوة شُعيب لقومه:

تضمنت دعوة شُعيب عليه السلام معالجة قضيتين أساسيتين:

- **القضية الأولى**: وهي القضية الأساسية والأولى لكل الأنبياء والرسل مع أقوامهم، وهي قضية العقيدة وفسادها عند أقوام هؤلاء الأنبياء، وأكثر أهل الأرض، ودعوتهم إلى ترك ذلك وهجرانه، وعبادة الله وحده، والإيمان برسولهم وما يأتيهم به من آيات ومعجزات، وما يدعوهم إليه، واجتناب ما ينهاهم عنه.

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص٢٩٩ ، ٣٠٠ .

ـ القضية الثانية: وهي ـ بالنسبة لقوم شُعيب ـ قضية اقتصادية تجارية، لها آثارها الأخرى، وخاصة في الناحية الاجتماعية.

القضية الأولى:

بدأت دعوة شُعيب عليه السلام للمستكبرين الكافرين من قومه برأس الأمر وسنامه؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهي دعوة جميع الرسل إلى أقوامهم. وقد نص القرآن الكريم على دعوة شُعيب إلى قومه في عدة مواضع، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:٨٥، ٨٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:١٧٦-١٨٠].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت:٣٦].

القضية الثانية:

أخذ شُعيب عليه السلام في القضية الثانية يدعوهم إلى تقويم أمرهم وإصلاح حالهم في تعاملهم مع الناس، لا سيما في الناحية التجارية؛ من عدم ظلم النَّاس في المكيال والميزان، وعدم الإفساد في الأرض، كما يوضَّح في الآتي:

- في قوله ﷻ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥].

- وفي قوله ﷻ: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

[الشعراء:١٨١-١٨٣].

وسائل شُعيب عليه السلام في دعوته:

يمكن تحديد الوسائل التي اتبعها شُعيب عليه السلام في دعوته لقومه في الآتي:

١- **أسلوب البيان**، أي بيان حقيقة ما هم عليه من فساد العقيدة وفساد العمل، وبيان صحة وصلاح العقيدة التي يدعوهم إليها، والتي تدعوهم إلى صلاح أعمالهم وتقويم سلوكهم، وإقامة الحجة على ذلك، ومما سجّله القرآن الكريم في ذلك:

- قوله ﷻ على لسان شُعيب -: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود:٨٨-٩٠].

٢- **أسلوب الترغيب**، وذلك من خلال بيان ما وعدهم الله به - حال إيمانهم - من صلاح في الدنيا ونعيم في الآخرة، ومن المعاني القرآنية الدالة على ذلك

الترغيب في عفو الله ورحمته قولهم لهم: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود:٩٠].

٣ـ **أسلوب الترهيب والوعيد**، أي: حال صدهم وعدم إيمانهم، وذلك بتخويفهم من الدنيا وعذابهم في الآخرة، مدللًا على ذلك بمصائر أقوام الأنبياء السابقين لهم، حيث حذرهم من عواقب مخالفته ورفضهم لدعوته، كما جاء في قوله ـ تعالى ـ على لسان شُعيب عليه السلام:

ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٩].

ـ وقوله ﷺ على لسانه أيضًا: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[هود:٩٣].

وبعد أن أدى شُعيب عليه السلام مهمته وبلغ رسالته بكل ما أوتي من حجة وبيان وآيات وبرهان، تركهم ولم يأسَ عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

موقف قوم شُعيب من دعوته:

استجاب بعض قوم شُعيب لدعوته فآمنوا برسالته، ولم يؤمن آخرون منهم، كما يبينه قوله لهم: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧]، وقد حاول الذين لم يؤمنوا من قومه أن يعيدوا الذين آمنوا إلى

الكفر بشعيب ودعوته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٠].

رد الكافرين منهم:

قام شُعيب عليه السلام بدوره الكامل في إبلاغ دعوة ربه بالوسائل المختلفة: البيان والترغيب والترهيب والوعيد كما ذكر آنفًا، فمن قومه من آمن ومنهم من كفر، أما الذين كفروا فكانوا مثل سابقيهم من أقوام الأنبياء والرسل الآخرين، كانت ردودهم وأساليبهم في رفض دعوة نبيِّهم متعددة، كلها من جنس الكفر والجحود والسخرية، بل والاستهزاء برسولهم وتهديده، من ذلك:

ـ السخرية والاستهزاء: مثل ما دار بين شُعيب وقومه من حوار وجدال تجلى فيه ما عرف عنهم من سخريتهم واستهزائهم بشعيب ودعوته، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود:٨٧].

ـ اتهام شُعيب بأنه بشر عادي، وأنه مسحور، وأنه كذاب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[الشعراء:١٨٥، ١٨٦].

ـ تكذيب الدعوة: كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦].

ـ تهديد شُعيب والمؤمنين بالقتل أو الطرد، كما في قوله تعالى على لسان قومه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[هود:٩١]، وقد تمادي القوم في جحودهم واستكبارهم وتهديدهم لنبيهم، كشأن الكثيرين من أقوام الأنبياء قبلهم مع

رسلهم، حيث خيروا رسولهم ومن آمن معه منهم بين الإخراج من موطنهم أو بلدهم والرجوع في ملتهم، وقد بين القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾

[الأعراف:٨٨، ٨٩].

إنزال العقاب بقوم شعيب:

لما بلَّغ شُعيب عليه السلام رسالة ربه بكل ما أوتي من وسائل التبليغ، وبلغ الحوار نهايته والجدال غايته، وبعد أن آمنت طائفة معه، وكفر الباقون، واستعجل الذين كفروا عذاب ربهم تكذيبًا وسخرية، وقالوا لشعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الشعراء:١٨٧]، جاء أمر الله بعقابهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[هود:٩٤، ٩٥].

وقد سمَّى الله تعالى عقاب قوم مدين بالآتي:

- الرجفة: كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١]، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[العنكبوت:٣٧].

- الصيحة: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤][(١)].

والرَّجْفَةُ هي الزَّلْزَلَةُ الْمُحَرِّكَةُ لِعَذَابِ اللهِ[(٢)]، والصيحة كانت من السماء، أو صاح بهم جبريل[(٣)]، وقيل: الصَّيْحة هي من توابع الزلزلة[(٤)]، فأصبحوا موتى في ديارهم[(٥)].

أما أصحاب الأيكة فقد أهلكوا بـ«يوم الظلة» قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء:١٨٩]، وقد ذكر الطبري: أن أَصْحَابَ الأَيْكَةِ كَانُوا أَهْلَ شَجَرٍ مُتَكَاوِسٍ، وأَنَّهُ سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْحَرَّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، لَا يُظِلُّهُمْ مِنْهُ ظِلٌّ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ سَحَابَةً، فَحَلُّوا تَحْتَهَا

---

(١) وذكر البعض أن أنواع العقاب التي أنزلها الله ﷻ بالقوم لا تعني أنهم أقوام عدة، وإنما تعني أن الله قد أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ففي سورة «الأعراف» رجف القوم نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم، فقال ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾، فقابل الإرجاف بالرجفة، وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود:٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن قول ما قالوا، ومن ثَمَّ فقد جاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم، وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، حيث قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[الشعراء:١٨٧]، فقال الله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء:١٨٩]، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٣٢٢).

(٣) المرجع السابق، (١٠/ ٣٢٢).

(٤) الشعراوي: تفسير الشعراوي، (١٣/ ٧٧٥٥).

(٥) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٣٢٢).

يَلْتَمِسُونَ الرَّوْحَ فِيهَا، فَجَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا، بَعَثَ عَلَيْهِمْ نَارًا فَاضْطَرَمَتْ عَلَيْهِمْ فَأَكَلَتْهُمْ، فَذَلِكَ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[1].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٤/ ١٠٠).

أيوب عليه السلام

نسبه:

يرجع نسب أيوب إلى إبراهيم عليهما السلام، وقد نص القرآن على هذا النسب في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأنعام: ٨٤]، لكن ثمة اختلاف في نسبه قبل إبراهيم[١]، وذكر كثيرٌ من المؤرخين أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْعِيصِ بْنِ إِسْحَاقَ، وهو ما صححه ابن كثير[٢].

موطنه وعصره:

ذكر المؤرخون أن موطن أيوب عليه السلام كان في بلاد الشام، في منطقة «الْبَثَنِيَّة» بين دمشق والجابية، ويذكر المسعودي أنها من الأردن[٣]، وقيل: هي من نواحي دمشق[٤]، ويذكر وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق، وغيرهما أن «البثنية» كانت لأيوب، سهلها وجبلها، أعلاها وأسفلها[٥].

أما عصره فقد اختلف في تحديده، والراجح أنه كان بين يوسف وموسى عليهما السلام.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٣٢٢).

(٢) البداية والنهاية، (١/ ٥٠٨).

(٣) مروج الذهب، المكتبة الإسلامية ـ بيروت ـ بدون تاريخ الطبع، (١/ ٤٨).

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر ـ دمشق ـ ط١ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٩٣، وياقوت الحموي: معجم البلدان، (١/ ٣٣٨).

(٥) ابن قدامة المقدسي: الرقة والبكاء، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم ـ دمشق ـ الدار الشامية ـ بيروت ـ ط١ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٦، ابن حجر: فتح الباري، (٦/ ٤٢١).

نبوته عليه السلام:

كان أيوب عليه السلام أحد أنبياء الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾

[النساء:١٦٣].

ابتلاء أيوب عليه السلام:

يُعدُّ أيوب عليه السلام واحدًا من أشد أنبياء الله بلاءً، ومن أصبرهم على هذا البلاء، وقد ذكرت قصة أيوب في موضعين من القرآن الكريم:

ـ **الأول:** في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء:٨٣، ٨٤].

ـ **والثاني:** في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[سورة ص:٤١-٤٤][1].

ومن المعروف أن قصة أيوب عليه السلام دخلها كثيرٌ من الإسرائيليات والأخبار الواهية، التي تزعم تفاصيل ومضامين لا تليق بالنبي أيوب، ولا يرضاها الله تعالى لنبيه؛ وهذه الأخبار تسللت إلى كثير من المصادر، حتى بعض المعوّل عليها في قصص الأنبياء، مثل بعض مصادر التفسير والحديث والتاريخ الإسلامي. ولعل

(١) وهذان هما الموضعان اللذان ذكرت فيهما قصة أيوب عليه السلام في القرآن الكريم.

ما ذكره ابن كثير في أثناء عرضه لابتلاء أيوب عليه السلام من كونه «أُلْقِي على مَزْبَلَةٍ مِنْ مَزَابِلِ الْبَلْدَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا، وَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ سِوَى زَوْجَتِهِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ لَا تُفَارِقُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَّا بِسَبَبِ خِدْمَةِ النَّاسِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهِ قَرِيبًا»[1] يعد نموذجًا مخففًا لذلك، فلا يُقبل دينًا ولا عقلًا أن يكون هذا حال نبي الله، ولا أن يكون حال امرأته أن تخدم في بيوت النَّاس ثماني عشرة سنة، وغير ذلك مما لا يقره دين أو يقبله عقل.

وقد روى ابن كثير عن علماء التفسير والتاريخ وغيرهم، أن أيوب كان رجلًا كثير المال، ويملك كثيرًا من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة، وكان له كثير من الأولاد والأهلين، فسلب من ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع البلاء ولم يبقَ منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه[2].

وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَنْ حَالِ الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ على مَرَضِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ، غَيْرَ أَنَّ زَوْجَتَهُ حَفِظَتْ وِدَّهُ لِإِيمَانِهَا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ بِالْأُجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ، وَتَخْدُمُهُ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةٍ[3].

ومن المقبول - بل والطبعي - أن يحاول الشيطان أن يفتن نبي الله أيوب وهو في هذا الابتلاء الشديد، ببعض درجات الفتنة، مثل درجة التقصير في ذكر الله وحمده، ولا يقبل غير ذلك من الشيطان على نبي من أنبياء الله، مما جاء في بعض الروايات بالنسبة لنبي الله أيوب عليه السلام، تأويلًا لقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ٧٤).
(٢) البداية والنهاية، (١/ ٥٠٧، ٥٠٨)، وتفسير ابن كثير، (٧/ ٧٤).
(٣) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٧/ ٧٤).

رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾[1]، مثل قول قتادة والسُّدِّي والضَّحَّاك، وغيرهم: «ذَهَابُ الْمَالِ وَالأَهْلِ، وَالضُّرُ الذي أَصَابَهُ في جَسَدِهِ»[2]، وذلك لأن الله لم يجعل للشيطان سلطانًا على عباده، إلا من اتبعه من الغاوين، فالأولى أنبيَّاؤه المعصومون بعصمته والمحفوظون بقدرته: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[الحجر:٤٢][3].

وقد كان أيوب من المخلصين الصابرين الراضين بقضاء الله، فلم يجد الشيطان إلى قلبه أو لسانه سبيلًا، وقد أخبرنا الله ﷻ بصبره وطاعته مُثْنِيًا عليه: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾

[سورة ص:٤٤][4].

شفاء أيوب:

يقول ابن كثير: لَمَّا طَالَ الْمَطَالُ وَاشْتَدَّ الْحَالُ وَانْتَهَى الْقَدَرُ الْمَقْدُورُ وَتَمَّ الأَجَلُ الْمُقَدَّرُ تَضَرَّعَ إلى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]، و: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾[سورة ص:٤١]، قِيلَ: بِنُصْبٍ في بَدَنِي وَعَذَابٍ في مَالِي وَوَلَدِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَجَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ وَأَنْ يَرْكُضَ الأَرْضَ بِرِجْلِهِ فَفَعَلَ، فَأَنْبَعَ اللهُ عَيْنًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا فَأَذْهَبَ جَمِيعَ مَا كَانَ في بَدَنِهِ مِنَ الأَذَى، ثُمَّ أَمَرَهُ فَضَرَبَ الأَرْضَ في مَكَانٍ آخَرَ

(١) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢١٦).
(٢) سورة ص: من الآية ٤١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢١٦).
(٤) الطبري: تفسير الطبري، (٢٠/ ١٠٦، ١٠٧).

فَأَنْبَعَ لَهُ عَيْنًا أُخْرَى وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا، فَأَذْهَبَتْ مَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ مِنَ السُّوءِ، وَتَكَامَلَتِ الْعَافِيَةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[سورة ص:٤٢][1].

مدى حقيقة ما ورد في ابتلاء أيوب عليه السلام:

لم يصح مما ينسب للنبي ﷺ في قصة أيوب عليه السلام إلا القليل جدًا من النصوص، ولعل أهمها هذان النصان:

- قول النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»**[2].

- وقوله ﷺ: **«إِنَّ أَيُّوبَ نبي اللهِ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، قَدْ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: نَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَكَشَفَ عَنْهُ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ أَيُّوبُ: لا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ يَذْكُرَانِ اللهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي، فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِي حَقٍّ، وَكَانَ يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَت امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ**

---

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، (١/ ٦٤/ ح:٢٧٩)، والراوي هو أبو هريرة. وقد ذكر محمد عبد العال، أن هذا الحديث هو الوحيد الذي اتفق عليه العلماء في قصة أيوب، فيما يخص السنة النبوية، تاريخ الأنبياء، ص١٦٥ .

وَشَرَابٌ، فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أي بَارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نبيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللهِ على ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ أَحَدُهُمَا على أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى في أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَ»[1].

وهكذا عاش أيوب عليه السلام كما عاش سائر الأنبياء، فوجد في تلك الظلال الوارقة من الصبر سعادة روحية، جعلت من ألمه أملًا، وبدلت خوفه أمنًا، وحولت المتاعب والآلام إلى راحة وطمأنينة[2].

وقصة أيوب هي قصة الإيمان الكامل والصبر الجميل، وهي ترينا أن الصبر على الشدائد يصفي النفوس ويرفع الدرجات، ويعلي قدر الإنسان بين الناس، فيصبح أمامهم قائدًا وقدوة، ثم يكون له من الله خير العوض في الدنيا، وله بعد ذلك في الآخرة الجزاء الأوفى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧][3].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (٢٠/ ١٠٩)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٣٥/ ح:٤١١٥)، وقد صححه الحاكم والذهبي على شرط البخاري ومسلم، والراوي هو أنس بن مالك، و ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٧/ ٧٥)، والهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (٨/ ٢٠٨/ ح:١٣٨٠٠)، وقال الهيثمي: رَوَاهُ أَبُو يَعلى وَالْبَزَّارُ، وَرِجَالُ الْبَزَّارِ رِجَالُ الصَّحِيحِ، والورق: أي الدراهم .

(٢) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص ٢٦٣ .

(٣) المرجع السابق، ص٢٦٦، ٢٦٧.

ذو الكفل عليه السلام

ذُكِر «ذو الكفل» مرتين في القرآن الكريم، وذلك في سياق ذكر الأنبياء والرسل، والثناء عليهم، وذِكر ما يوصفون به من كونهم صابرين وأخيار، وقد جاء ذكر «ذو الكفل» في الموضعين الآتيين:

- في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص:٤٨].

أما عن اسمه، فقد ذكر الفخر الرازي أنه سمي: ذا الكفل؛ لقول المحققين أنه كان له ضعف عمل الأنبياء عليهم السلام في زمانه وضعف ثوابهم[(١)].

الاختلاف في نبوته:

ثمة خلاف بين المفسرين على نبوة «ذي الكفل»، فبعضهم قال: إنه نبي، ومنهم الحسن والأكثرون من العلماء[(٢)]، ومنهم من قال: إنه ليس نبيًّا، ولكنه كان ملكًا عادلًا وحكمًا مقسطًا وعبدًا صالحًا، ومنهم: أبو موسى الأشعريّ ومجاهد[(٣)]، وعَدَّ الفخر الرازي القول الأول أولى الأقوال، ودلل على ذلك بأمور، أهمها[(٤)]:

---

(١) مفاتيح الغيب، (٢٢/ ١٧٧).

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (١٦/ ٣٧٢)، والفخر الرازي: مفاتيح الغيب، (٢٢/ ١٧٧).

(٤) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، (٢٢/ ١٧٧).

أولًا: أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسماعيل وإدريس، والغرض ذكر الفضلاء من عباده، ليتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته .

ثانيًا: أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء؛ فكل من ذكره الله ﷻ فيها فهو نبيٌّ.

وقال ابن كثير: إنه نبي عند كثير من المفسرين[1]. والظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قُرِنَ مَعَ الْأنبياء إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ[2].

خلافته لليسع ونبوته:

قال ابن عباس: «إن نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله إليه إني أريد قبض روحك، فأعرض مُلْكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر، ويقضي بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك إليه؛ فقام ذلك النَّبيّ في بني إسرائيل وأخبرهم بذلك[3].

ثم تذكر رواية ابن عباس السابقة ما روي عن مُجَاهِدٍ من قوله: لَمَّا كَبِرَ الْيَسَعُ قَالَ: لَوْ أَنِّي اسْتَخْلَفْتُ على النَّاسِ رَجُلًا يَعْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِي حَتَّى أَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُ. قَالَ: فَجَمَعَ النَّاسَ، فَقَالَ: مَنْ يَتَقَبَّلُ لِي بِثَلَاثٍ أَسْتَخْلِفْهُ: يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، وَلَا يَغْضَبُ؟ فَقَامَ رَجُلٌ تَزْدَرِيهِ الْعَيْنُ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: أَنْتَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَلَا تَغْضَبُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَرَدَّهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَقَالَ مِثْلَهَا الْيَوْمَ الْآخِرَ، فَسَكَتَ النَّاسُ وَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَنَا، فَاسْتَخْلَفَهُ؛ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَقُولُ لِلشَّيَاطِينِ: عَلَيْكُمْ بِفُلَانٍ فَأَعْيَاهُمْ، فَقَالَ: دَعُونِي وَإِيَّاهُ، فَأَتَاهُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ كَبِيرٍ فَقِيرٍ، فَأَتَاهُ حِينَ أَخَذَ مَضْجَعَهُ لِلْقَائِلَةِ، وَكَانَ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِلَّا تِلْكَ

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٦٩).

(٢) المرجع السابق، (٥/ ٣٦٣).

(٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، (٢٢/ ١٧٧).

النَّوْمَةَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَظْلُومٌ، فَقَامَ فَفَتَحَ الْبَابَ، فَجَعَلَ يَقُصُّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي خُصُومَةً، وَإِنَّهُمْ ظَلَمُونِي، وتذكر الرواية أنه أخذ يكرر ذلك كل يوم في وقت قيلولة ذي الكفل حتى أغلق ذو الكفل الباب في هذا الوقت، فلما رآه ذو الكفل عرفه؛ لأن الباب مغلق، فَقَالَ: أَعَدُوُّ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْيَيْتَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَفَعَلْتُ مَا تَرَى لِأُغْضِبَكَ؛ فَسَمَّاهُ: ذَا الْكِفْلِ؛ لأَنَّهُ تَكَفَّلَ بِأَمْرٍ فَوَفَى بِهِ[1].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٦/ ٣٦٩ ـ ٣٧١)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٥/ ٣٦٤).

موسى وهارون عليهما السلام

بنو إسرائيل قبل موسى:

كان إسرائيل أو يعقوب عليه السلام على الإسلام، مثل أبيه إسحاق وعمه إسماعيل وجده إبراهيم، متمسكين به باقين عليه حتى توفاهم الله تعالى، وقد أوصوا به ذريتهم، كما أخبرنا الله تعالى في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

[البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

وعندما قدم أبناء إسرائيل عليه السلام مع أبيهم إلى مصر - في وقت الجدب الذي أصاب موطنهم في كنعان، وكانت مصر تحت احتلال الهكسوس - آواهم يوسف في مصر.

ويذكر بعض المؤرخين أن يوسف عليه السلام أنزلهم أرض جوشن في وادي طميلات؛ لأنها تناسبهم كرعاة للأغنام، ولأنهم كانوا يؤثرون الإقامة في مكان خاص بهم[(١)]. وقد عاش بنو إسرائيل في ظل الهكسوس الغزاة، حتى قامت ثورة التحرير التي حمل لواءها أبناء الصعيد في طيبة، وقامت الأسرة الثامنة عشرة، حوالي عام [١٥٧٥ ق.م]، وعلى رأسها أحمس، الذي تزعم طرد الهكسوس[(٢)].

وظل بنو إسرائيل على دين آبائهم وأجدادهم وهو الإسلام، وتبعتهم ذريتهم

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية في القرآن الكريم (في مصر)، ص١٣٧.

(٢) محمد بيومي مهران: السابق، ص١٣٨، وقد حكم الهكسوس مصر في الفترة من (١٧٢٥ - ١٥٧٥ق.م) تقريبًا، الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة.

من بعدهم إلى حين من الدهر؛ حيث تراخوا عن تمسكهم بالإسلام، وأخذوا ينحرفون إلى عبادة المصريين، كما تأثروا بهم في الديانة، فقد جاء في سفر يشوع: «والآن اتقوا الله واعبدوه بكل أمانة، وانزعوا الأوثان التي عبدها آباؤكم في شرقي نهر الفرات وفي مصر واعبدوا الرب»[1]، وهكذا كانت الفترة الأولى لبني إسرائيل في مصر فترة رخاء واستقرار قبل مرحلة الاضطهاد.

مرحلة الاضطهاد:

يبدو أنه لم يعرف على وجه اليقين القدر الزمني لمرحلة الاستقرار والنعيم لبني إسرائيل في مصر، منذ دخوله في أيام يوسف، عصر الهكسوس، لكن إذا صح أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني [١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق.م]، فيمكن تقدير هذه المرحلة بقرابة ثلاثة قرون؛ لأنهم دخلوا في عصر الهكسوس الذين طردوا من مصر عام [١٥٧٥ ق.م]، لكن على أيّ وضع فقد مروا بمرحلة اضطهاد وتعذيب على يد فرعون وقومه في مصر استمرت حتى خروجهم منها مع موسى عليه السلام.

ويصور القرآن الكريم حال بني إسرائيل واضطهاد فرعون وقومه لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[البقرة:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[إبراهيم:٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٤].

(١) سفر يشوع: إصحاح ٢٤: ١٤.

لكن الله ﷻ أراد أن يصل الإسلام إلى عقر دار حاكم مصر، بل أن يربي هو نبي الله الذي كان يعمل على قتله حتى قتل كل مولود في بني إسرائيل، وأن تعتنق زوجته هذا الدين، وأن تكون نهاية هذا الحاكم الفرعون على يد هذا النبي، وتدل الإشارات القرآنية على إيمان بعض المصريين سرًّا، مثل ما جاء في قصة مؤمن آل فرعون، الذي كان يكتم إيمانه، أو جهرًا، مثل سحرة فرعون الذين ناظرهم موسى عليه السلام.

أسباب اضطهاد فرعون وقومه لبني إسرائيل:

لم يكن المصريون يرحبون ببني إسرائيل، بل كانوا يبغضونهم ويستحقرونهم ويضطهدونهم، وذلك لأسباب، لعل أهمها:

أولًا: ولاء بني إسرائيل للهكسوس؛ حيث رجَّح البعض أنهم كانوا على تعاون مع الهكسوس الغزاة، كما تأثروا بهم، حتى في الديانة، فعبدوا آلهتهم الوثنية[1]. وذكر بعض آخر طبيعة ولاء بني إسرائيل لأنفسهم ومصالحهم بولائهم للهكسوس وملكهم الذي آواهم في مصر وإذ مثلوا بين يديه مع يوسف، ولعلهم كانوا حيث أقاموا شرقي الدلتا مع الهكسوس عونًا للهكسوس وحربًا على المصريين في حرب التحرير، وهم من أحذق خلق الله على التقلب والتلون، وإثارة القلاقل واستغلال الأزمات، إذ ذهب المصريون بقيادة أمراء طيبة، فشنوا على المحتلين حربًا أضرمها عليهم «سقن رع»، فما أن استشهد في القتال حتى خلفه على العرش والجهاد ولداه كاموس ثم أحمس، ولعلهم من ذلك ولما كانوا يبدون من هوى وميل نحو أعداء مصر، قد فقدوا ثقة المصريين، وظلوا بعامة موضع الحذر والشك[2].

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية في القرآن الكريم (في مصر)، ص١٣٩، ١٤٠.
(٢) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص٥٨، ٥٩.

ثانيًا: عِلْم فرعون بأن نهاية ملكه على يد مولود من بني إسرائيل؛ فقد روى ابْن إِسْحَاقَ وغيره أيضًا، «أَنَّهُ لَمَّا تَقَارَبَ زَمَانُ مُوسَى أَتَى مُنَجِّمُو فِرْعَوْنَ فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ مَوْلُودًا مِنْ بني إِسْرَائِيلَ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُهُ الذي يُولَدُ فِيهِ، يَسْلُبُكَ مُلْكَكَ وَيَغْلِبُكَ على سُلْطَانِكَ وَيُخْرِجُكَ مِنْ أَرْضِكَ، وَيُبَدِّلُ دِينَكَ، فَلَمَّا قَالُوا لَهُ ذَلِكَ أَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَوْلُودٍ يُولَدُ مِنْ بني إِسْرَائِيلَ مِنَ الْغِلْمَانِ، وَأَمَرَ بِالنِّسَاءِ يُسْتَحْيَيْنَ، وَيَأْمُرُ بِالْحَبَالَى فَيُعَذَّبْنَ حَتَّى يَطْرَحْنَ مَا فِي بُطُونِهِنَّ»[1].

يقول ابن كثير: «أَرَادَ فِرْعَوْنُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَنْ يَنْجُوَ مِنْ مُوسَى، فَمَا نَفَعَهُ ذَلِكَ مَعَ قَدَرِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الذي لَا يُخَالَفُ أَمْرُهُ الْقَدَرِيُّ، بَلْ نَفَذَ حُكْمُهُ وَجَرَى قَلَمُهُ فِي الْقِدَمِ بِأَنْ يَكُونَ إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ على يَدَيْهِ، بَلْ يَكُونُ هَذَا الْغُلَامُ الذي احْتَرَزْتَ مِنْ وُجُودِهِ، وَقَتَلْتَ بِسَبَبِهِ أُلُوفًا مِنَ الْوِلْدَانِ إِنَّمَا مَنْشَؤُهُ وَمُرَبَّاهُ على فِرَاشِكَ، وفي دَارِكَ، وَغِذَاؤُهُ مِنْ طَعَامِكَ، وَأَنْتَ تُرَبِّيهِ وَتُدَلِّلُهُ وَتَتَفَدَّاهُ، وَحَتْفُكَ وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ جُنُودِكَ على يَدَيْهِ؛ لِتَعْلَمَ أَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا هُوَ الْقَادِرُ الْغَالِبُ الْعَظِيمُ، الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ الْمِحَالِ، الذي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[2].

ثالثًا: لعل من ذلك أيضًا تذكير بني إسرائيل المصريين بيوسف النَّبيّ ودعوته لهم إلى عبادة الله وترك معتقداتهم وما يعبدون من دون الله، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[غافر: ٣٤].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١/ ٦٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير، (٦/ ٢٢٠).

ولادة موسى عليه السلام ونشأته:

يذكر المؤرخون أنه كان «لَا يُولَدُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مَوْلُودٌ إِلَّا ذُبِحَ، فَلَا يَكْبُرُ الصَّغِيرُ، وَقَذَفَ اللهُ فِي شُيوخ بني إِسْرَائِيلَ الْمَوْتَ، فَدَخَلَ رُءُوسُ الْقِبْطِ على فِرْعَوْنَ، فَقَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ وَقَعَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، فَيُوشِكُ أَنْ يَقَعَ الْعَمَلُ على غِلْمَانِنَا بِذَبْحِ أَبْنَائِهِمْ فَلَا تَبْلُغُ الصِّغَارُ وَتَفْنَى الْكِبَارُ، فَلَوْ أَنَّكَ كُنْتَ تُبْقِي مِنْ أَوْلَادِهِمْ؛ فَأَمَرَ أَنْ يُذْبَحُوا سَنَةً وَيُتْرَكُوا سَنَةً، فَلَمَّا كَانَ فِي السَّنَةِ التي لَا يُذْبَحُونَ فِيهَا وُلِدَ هَارُونُ، فَتُرِكَ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي السَّنَةِ التي يُذْبَحُونَ فِيهَا حَمَلَتْ بِمُوسَى»[1]

وينسب المؤرخون موسى إلى يعقوب بن إسحاق عليه السلام عن طريق هذه السلسلة من النسب: مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهِثَ بْنِ عَازَرَ بْنِ لَاوِي بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام[2].

أما عن مولده، فيذكر البعض أن مولده كان في عاصمة رمسيس الثاني [١٢٩٠ـ ١٢٢٤ق.م] الجديدة «بر رعمسيس» التي استقر فيها بعد حروبه الطويلة، وذلك بعد العام العشرين من حكمه، على الأرجح[3].

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم - بشيء من التفصيل - المرحلة الأولى من حياته عليه السلام منذ مولده إلى أن شب وبلغ أشده، والأحوال التي ولد فيها، وذلك في قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١/ ٦٤٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٣١).

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص٧٣.

وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[القصص:١-١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[طه:٣٧-٤١].

وهكذا وبوحي من الله ألقت أم موسى رضيعها في التابوت، ثم ألقت التابوت في الماء، وألقاه الماء بالساحل حيث قصر فرعون الموعود بموسى، وهكذا كان ماء النيل من المكلَّفين بتنفيذ إرادة الله ﷻ في إيصال موسى الرضيع إلى قصر فرعون، وأمرت أُمُّه أختَه أن تتبع أثره: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[القصص:١١]، ووصل التابوت إلى المكان الموعود، فالتقطه آل فرعون، وقد ألقى الله عليه محبة منه، وشاءت حكمته أن يصنع على عينه، وعندما رأته امرأة فرعون قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن

يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[القصص:٩]، أي: لفرعون، «لَا تَقْتُلُوهُ» لأنهم كانوا يقتلون الذكران، وتمنت أن يكون فيه نفع لهما، أو يتخذاه ولدًا وهم لا يشعرون بما ينضوي عليه مستقبل هذا الرضيع، وبحال فرعون معه، وربط الله على قلب أمه إذ أصبح فارغًا، وحُرِّمَت عليه المراضع إلا أمه، وقامت أخته بدور الوسيط - بعناية الله تعالى - بين آل فرعون وأمه؛ لإرجاع الرضيع إلى أمه؛ كي تكفله وتنصح له وهم لا يشعرون أيضًا، ونفذت إرادة الله بعودته إلى أمه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[القصص:١٣].

ونشأ موسى وتربى في قصر فرعون يحظى بالعناية والرعاية الفائقتين، ويتمتع بكل سبل الراحة مما لم يتمتع به خواص فرعون والمقربون منه.

قتل موسى عليه السلام أحد المصريين وخروجه من مصر:

كان لموسى عليه السلام في ديار مصر شأن ومكانة عالية بسبب تبني فرعون له وتربيته في بيته، وهذا انعكس على قومه من بني إسرائيل، فهم قومه ويمكن أن يلجئوا إليه وقت الضيق، وظاهريًّا هم الذين أرضعوه، وحدث أن رأى اثنين يقتتلان أحدهما مصري والآخر من بني إسرائيل، أي: من شيعته، فاستنصره الذي من شيعته، فأغاثه موسى، لكنه قتل المصري دون قصد منه؛ إذ لم يظن موسى أن وكزة يمكن أن تقتل رجلًا، وإنما أراد زجره وردعه؛ لأنه هو الأقوى، بدليل استغاثة الذي من شيعة موسى به، كما أن المصري هو صاحب البلد وصاحب القوة فيها، أما الذي من شيعة موسى فهو من القلة المستضعفة.

وانتهى الأمر على هذا النحو، وفي الصباح وموسى في حالة من الخوف والترقب من آثار ما حدث بالأمس، إذ كان خائفًا من فرعون وملئه أن يعلموا أن

هذا القتيل إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، فضلًا عن أخذهم بثأره، وخاصة أن من قتله من بني إسرائيل وهم القلة المستضعفة. وإذ هو على هذه الحال جاء الذي استنصره بالأمس - وهو الرجل الإسرائيلي - يستصرخه، أي: يصرخ به ويستغيثه على آخر قاتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره، وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾[القصص:١٨]، ثم لما أراد أن يبطش بذلك المصري قال: يا موسى، أتريد أن تقتلني، وقيل: إن الذي قال ذلك هو الإسرائيلي الذي اطلع على فعل موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلًا على المصري اعتقد أنه جاء إليه لمّا عنفه قبل ذلك بقوله: «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ»، فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي وقع بالأمس، فذهب المصري فاستعدى موسى عند فرعون، ولما علم فرعون أن موسى هو قاتل قتيل الأمس طلبه، لكن رجلًا وصل إلى موسى من طريق أقرب ساعيًا إليه، مشفقًا عليه، ناصحًا له أن يخرج من مصر، ومبلغًا له تآمر القوم لقتله[1]. قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:١٥-٢١].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٢٧٩).

الفترة التي قضاها في مديـن:

لما علم موسى عليه السلام من الرجل الناصح تآمر الملأ عليه ليقتلوه عزم على الخروج من المدينة؛ خشية أن يفتك به فرعون وملؤه، فتوجه تلقاء مدين؛ لأن الله أراد له ذلك؛ لأنه لو كان يقصد بلاد مدين على التحديد لما قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص:٢٢]. فكأنه رأى أمامه طريقًا فسار فيه؛ لأنه لم يكن عنده وقت للتفكير إلى أي بلد يذهب، وأي طريقة يسلك[1]. ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب قوم شُعيب عليه السلام، كما مر بنا في قصة نبي الله شُعيب عليه السلام.

وعندما وصل موسى عليه السلام إلى مدين وجد عند مقدمه إليها أُمّةً من الناس يسقون ماشيتهم من بئر، ووجد من دونهم امرأتين تمنعان ماشيتهما من الإقبال على البئر حتى ينصرف هؤلاء الرعاة، وكان طبيعيًا أن يسألهما ليساعدهما؛ لأنه مشهد يستدعي المداخلة وتقديم يد العون، فهو يتصف بخصال الخير والمروءة، وهذا أمر طبعيٌّ في رجل سيصبح نبيًا بعد ثماني سنين، وهو ـ أيضًا ـ حديث عهد بموقف أراد فيه نصرة مظلوم ـ كما رآه ـ فأخرجه هذا الموقف من مصر إلى هذا المكان.

وقد ذكرت له المرأتان في إيجاز يدل على وقارهما، وبمعنى ينم على مبررهما، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾[القصص:٢٣]، فهما لا يختلطان بالرعاة، وسبب خروجهما كبر سن أبيهما مما أقعده واستلزم خروجهما، كما أظهر موسى حينما

(١) الشعراوي: قصص الأنبياء، ص ٢٢٧.

سقى لهما مظهرًا قوته ـ دون قصد ـ فقد أزال غطاء البئر الثقيل بعد أن وضعه الرعاة حين صدروا عن البئر، ثم تولى موسى عليه السلام إلى الظل ودعا ربه، فجاءه الفرج مع إحدى هاتين المرأتين؛ حيث قصَّتا على أبيهما ما حدث، فطلبه ليجزيه أجر ما سقى لهما، وجاءته إحداهما تمشي على استيحاء، وأبلغته مطلب أبيها فذهب معها، وقص على الأب ما حدث له في مصر، فطمأنه قائلًا له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص:٢٥]، ثم طلبت إحداهما من أبيها أن يستأجره؛ لأنه يتميز بالصفتين اللازمتين في مثل هذا الأمر: «القوة والأمانة»، فضلًا عن أن حالهم ـ هما وأبوهما ـ تستدعي أن يقوم أحد برعاية ماشيتهم، والموقف الذي شهده موسى لهما دليل على ذلك، والأب يعلم أن موسى لا يملك شيئًا من المال بحاله هذه، ومن ثم فقد عرض عليه أن يتزوج إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج كحد أدنى، فإن أتمها عشرًا فهذا من عنده، وطمأنه بأنه لن يشق عليه وأنه من الصالحين، وأتم موسى الأجل[1]، وسار بأهله من عند الشيخ راجعًا إلى مصر.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا

---

(١) قال ابن عباس عندما سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «قَضَى أَكْثَرَهُمَا، وَأَطْيَبَهُمَا، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا قَالَ فَعَلَ»، (أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ: مَنْ أَمَرَ بِإِنْجَازِ الوَعْدِ، (٣/ ١٨١/ ح:٢٦٨٤). وذكر ابن كثير آثارًا كثيرة تدل على أنه قضى الأجل الأتم والأكمل، وهو العشر سنين، (البداية والنهاية، ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٣).

تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[القصص:٢٢-٢٨].

وقد تباينت آراء المفسرين والمؤرخين في شيخ مدين هذا، حيث قيل: اسمه شُعيب، ولكنه غير شُعيب النبي، وقيل: ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقد نص الحسن البصري ومالك بن أنس رضي الله عنهما على أنه شُعيب عليه السلام، وذكر ابن كثير أن هذا هو المشهور عند الكثيرين(١).

نبوة موسى وهارون وإرسالهما إلى فرعون وملئه:

بشر الله تعالى أم موسى بنبوة ابنها موسى بعد مولده، عندما أوحى إليها أن تلقيه في الماء إن خافت عليه من فرعون، وقد مر حال بني إسرائيل تحت حكم فرعون وما كان يفعله معهم من تذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم، فعندما ولد موسى عليه السلام كانت إرادة الله قد اقتضت أن يتربى وينشأ في قصر فرعون، وعم الله تعالى أمه برحمته وفضله، فربط على قلبها وأوحى إليها، وأمرها أن ترضعه فإن خافت عليه فلتلقه في الماء، وطمأنها تعالى بألا تخاف عليه، بل بشرها بردّه إليها وجعله من المرسلين، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧].

وتوجه موسى عليه السلام راجعًا إلى مصر بعد قضائه الأجل وزواجه من ابنة شيخ

(١) البداية والنهاية، (١/ ٢٨١).

مدين، حيث مقام أهله وقومه من بني إسرائيل، ولعل ما حدث بالأمس البعيد من قتل المصري وما ترتب على ذلك من إفشاء أمر موسي، لعل هذا وغيره يكون قد توارى في طيِّ النسيان أو الغفلة، أو تغير الحال بين الأمس واليوم، وقد صادفت إرادة موسى في العودة إلى مصر إرادة الله في ذلك، حيث كان موعد نبوته وأمره من قِبَل الله ﷻ بالتوجه إلى فرعون وملئه، ودعوتهما إلى عبادة الله وحده، وترك ما يعبدون من دونه، وذلك عند بلوغه جبل الطور بسيناء، إذ رأى نارًا بجانبه الأيمن، فترك أهله وتقدم هو ليعرف خبرها، أو يأتي بقبس منها، وعندما بلغ المكان ناداه ربه وأوحى إليه بأمره، ولكن موسى كان خائفًا من أن يقتله فرعون وقومه؛ ثأرًا لمن قتله موسى، وهم الجبارون الطغاة الذين استذلوا قومه وأذاقوهم سوء العذاب، والله أعلم بحاله، فأيده بمعجزتين حجة عليهم: عصاه وبياض يده من غير سوء، وشد عَضُدَه بأخيه هارون، كما قال ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾[مريم:٥٣]، وجعل الله لهما سلطانًا يحصنهما من وصول فرعون وملئه إليهما أو إيذائهم لهما، وبشرهما الله بالنصر والغلبة.

وبهذا التأييد وتلك المعية وهذه البشرى بالنصر توجه موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه، لا يتخلل الخوف قلبهما، ولا يعتريهما شك في انتصارهما على فرعون وملئه، وإقامة الحجة عليهم، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا

فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾

[القصص:٢٩-٣٥].

وفي تفصيل أكثر يقص الله ﷻ علينا هذا الحوار بينه وبين موسى عليه السلام، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه:٩-٣٦].

وقَالَ ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾[مريم:٥١-٥٣].

فذكره بالرسالة والنبوة والإخلاص والتكليم والتقريب، ومن عليه بأن جعل أخاه

هارون نبيًا[1]: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾[الشعراء:١٢-١٤].

نبوة هارون عليه السلام:

عندما كلم الله تعالى موسى عليه السلام في طور سيناء وكلفه بالنبوة والرسالة، وأرسله إلى فرعون وملئه، عندئذ طلب موسى من ربه تعالى أن يجعل له أخاه هارون وزيرًا، وأن يشد به أزره ويرسله معه إلى فرعون وملئه؛ لأنه أفصح منه لسانًا، وحتى يكون ردءًا له يصدقه إذا كذبوه، وغير ذلك، وقد سجل لنا القرآن هذا على لسان موسى عليه السلام وذلك في الآتي:

- قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه:٢٩-٣٥].

- وقال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[القصص:٣٤]، فأجابه الله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦].

- ثم قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[القصص:٣٥].

- وقال تعالى أيضًا: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾[مريم:٥٣].

وهكذا أعطى الله تعالى نبيه موسى عليه السلام ما طلب لأخيه هارون وزيادة، إذ جعله نبيًا، وهو ما لم يطلبه موسى، لكن عطاء الله كان أكبر وأكرم من طلب رسوله،

(١) هذا قول ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٣١).

وضرب موسى نموذجًا فريدًا في معنى الأخوة، وحب الأخ وتقريبه منه وإشراكه في أمره، واللجوء إليه عند الحاجة.

وَقَدْ سَمِعَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَجُلًا يَقُولُ لِأُنَاسٍ، وَهُمْ سَائِرُونَ فِي طَرِيقِ الْحَجِّ: أَيُّ أَخٍ أَمَنُّ على أَخِيهِ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِمَنْ حَوْلَ هَوْدَجِهَا: هُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ حِينَ شَفَعَ فِي أَخِيهِ أَنْ يَكُونَ نبيًّا يُوحَى إِلَيْهِ[1].

وبعد نبوة هارون عليه السلام كان أمر الله لموسى وهارون معًا، وتكليفهما بالرسالة إلى فرعون وقومه، وإلى هامان وقارون أيضًا: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه:٤٣-٤٧].

حال فرعون وجنوده:

- **ادعاء فرعون الألوهية:** كان فرعون واحدًا من أطغى حكام التاريخ، فقد ادعى الألوهية: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النزعات:٢٣، ٢٤]، بل ادعى أنه الإله الأوحد: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ [القصص:٣٨]، بل إنه أخذ يدلل على زعمه هذا، كما في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١].

- **استكبار جنود فرعون:** لم يختلف جنود فرعون كثيرًا عنه، في استكباره

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٦٠).

وظلمه وإجرامه، فهم الآلة التي ينفذ بها كل ذلك، ووصْف الله لهم بهذه الصفات يدل على أنهم لم يكونوا مجبرين، أو حتى غير راضين على ذلك، من ذلك:

ـ وصفهم بالخطأ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص:٨].

ـ وصفهم بالاستكبار: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[القصص:٣٩].

ـ وصفهم بالظلم: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:٤٠].

حال قومه:

أما قوم فرعون فقد وصفهم الله ﷻ ـ وهو أعلم بهم ـ بصفات:

ـ الإجرام: في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣].

ـ الفسق: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف:٥٤].

ـ الظلم: في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[الشعراء:١٠، ١١].

ويدل السياق القرآني ـ والتاريخي ـ على أن فرعون استخدم عدة وسائل لإقناع قومه بادعائه الألوهية، وتكذيب موسى وهارون عليهما السلام، أو لإخضاعهم على ذلك، من تلك الوسائل:

١ـ محاولات الاستدلال ـ غير العقلي ولا المنطقي ـ على ادعائه الألوهية

وتكذيب موسى عليه السلام، ومن ذلك بناء صرح لرؤية إله موسى؛ لأن ما أراده من صرح لن يتجاوز عشرات الأمتار - على أقصى تقدير - ولن يرى من خلاله شيئًا، كما قال تعالى:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨].

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٦، ٣٧].

فبني له هامان هذا الصرح فارتقى فوقه، «فَأَمَرَ بِنُشَّابَةٍ فَرَمَى بِهَا نَحْوَ السَّمَاءِ، فَرُدَّتْ إِلَيْهِ وهي مُتَلَطِّخَةٌ دَمًا - كما روي - فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتُ إِلَهَ مُوسَى، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ»[1]، حيث أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُظْهِرَ لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيبَ مُوسَى، وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨][2].

٢- الاستخفاف بقومه؛ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤].

٣- محاولة إقناع قومه بأنه لا يوصيهم إلا بما يراه هو صحيحًا أو مقتنعًا به، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

٤- إضلال قومه، كما قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٨/ ٢٥٦).
(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٦/ ٢٣٨).

ومعياره في ذلك أنه يريد أن يكون له الكبرياء في مصر، حتى لو كان ذلك على حساب الإيمان بالله، كما قال هو وملؤه لموسى وهارون: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس:٧٨]، ومن باب ذلك الإضلال ما جاء في الوسيلة السابقة، وهو محاولته إقناع قومه بأنه ناصح لهم، ويرشدهم إلى ما يراه صحيحًا.

وكانت طاعة قوم فرعون له عمياء، تنم عن بلاهة العقول وغشاوة القلوب، وفي رد الملأ الذي أورده القرآن الكريم وترديد رأي فرعون بلفظه ومعناه في وصف موسى بالسحر ما ينم على هذه البلاهة، وتلك التبعية العمياء؛ فقد وصفه فرعون لهم بقوله ﷻ: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾[الشعراء:٣٤]، فرددوا هم هذا الوصف بنصه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾[الأعراف:١٠٩].

دعوة موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه، والهدف منها:

أرسل الله ﷻ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه، كما شملت هذه الدعوة هامان وقارون، وقد جاء حديث القرآن عن هذه الدعوة ذاكرًا موسى مفردًا مرة، ومع أخيه هارون مرة أخرى، كما جاء ذكر فرعون مفردًا مرَّة، أو مع هامان وقارون مرة أخرى، مثل قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ۝٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾[غافر:٢٣-٢٥]. وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [يونس:٧٥].

أما الهدف من ذلك، فثمة اتجاه يذهب إلى أن إرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه كان لإنقاذ بني إسرائيل من فرعون وقومه وإرسالهم مع موسى، فمن ذلك قول بعض المفسرين المعاصرين في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الشعراء:١٦، ١٧]: يتضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى عليه السلام في القرآن أنه لم يكن رسولًا إلى فرعون وقومه؛ ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته، إنما كان رسولًا إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل؛ ليعبدوا ربهم كما يريدون.

وأيّد مؤرخ معاصر لهذا المعنى، إذ يذكر أن التوراة تزخر بالنصوص التي تدل على أن دعوة موسى عليه السلام إنما كانت تهدف إلى إخراج بني إسرائيل من مصر، وإطلاق سراحهم من عبودية المصريين، ويبدو هذا واضحًا في الإصحاحات العشرة الأولى من سفر الخروج، ومن ثم فالهدف من دعوة موسى ـ كما تصوره التوراة ـ إنما هو إخراج بني إسرائيل من مصر، وأن يقيهم شر العذاب المهين الذي كانوا يتعرضون له في أرض الكنانة[1].

ويقول في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[طه:٤٧]: في هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون؛ لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمرهم تدميرًا[2].

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٢٢٧ .
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٨ .

تحقيق ذلك:

ورد نبأ موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وهامان وقارون في القرآن الكريم في مواضع مختلفة وسياقات متباينة، وذلك على النحو الآتي:

- ذكر إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وهامان وقارون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]، فهذا لا يعني أن هارون لم يرسل مع موسى إلى فرعون؛ لأن ذلك ثبت في مواضع أخرى، منها قوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه:٤٣، ٤٤]، وهذا لا يعني أن موسى لم يرسل إلى هامان وقارون؛ لأن ذلك ثبت في مواضع أخرى منها الموضع والسياق السابق.

- ذكر دعوة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون بإرسال بني إسرائيل معهما: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الشعراء:١٦، ١٧]، وهذا لا يعنى إن رسالتهما اقتصرت على إرسال بني إسرائيل، لأن الهدف من الرسالة في شقه الأهم والأساس - كما هو في كافة رسائل الأنبياء والرسل - ثبت في مواضع وسياقات أخرى، منها:

أولًا: هناك مواضع وسياقات ذكر الله تعالى فيها إرسال موسى إلى فرعون وهامان وقارون، تؤكد أن دعوته موجهة إليهم في قضية الإيمان وليس في قضية إرسال بني إسرائيل معه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[غافر:٢٣-٢٥]، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم

بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ يتصل بقضية الإيمان، وكذلك ردهم على ما جاء به بقتل أبناء من آمن معه واستحياء نسائهم يؤكد دعوة موسى إليهم جميعًا.

ثانيًا: قوله ﷻ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:١٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:١٠٤]، وهذه هي القضية الأساسية، وتليها قضية إرسال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، كما جاءت في السياق القرآني في هذين الموضعين، وليس من المنطقي أن يكون هذا الخطاب لفرعون مجرد مدخل لقضية إرسال بني إسرائيل، لا سيما وفرعون يعدُّ نفسه إلهًا، فكيف يخاطب بهذا الخطاب إلا إذا كان المقصود منه قضية أخرى تُعدُّ فرعية بالنسبة لقضية الإيمان؛ ومن ثم كان الحوار والجدال معه والمناظرة مع سحرته عن هذه القضية؛ وقد قصَّ الله ﷻ علينا ما دار بين موسى عليه السلام وفرعون في هذه القضية، ومن ذلك:

- قوله ﷻ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾[طه:٤٩-٥٦].

- قوله ﷻ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾

[الشعراء:٢٣-٣٣].

ثالثًا: قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾[الدخان:١٧-٢١]، قال الطبري في قوله ﷻ: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان:١٩]، أي: أن لَا تَطْغَوْا وَتَبْغُوا على رَبِّكُمْ، فتَكْفُرُوا بِهِ وَتَعْصُوهُ، فَتُخَالِفُوا أَمْرَهُ[١].

توجه موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ودعوته:

توجه موسى وأخوه هارون عليهما السلام إلى هذا الطاغية الأكبر في الأرض آنذاك وإلى قومه؛ لتبليغهم رسالة ربهم، والتي تمحورت حول أمرين:

الأول: الإيمان بالله رب للعالمين، والكفر بما كان يعتقدونه من أُلوهية فرعون وغيره.

الثاني: إرسال بني إسرائيل مع موسى، وإخراجهم من مصر؛ كما جاء في قوله ﷻ:

- ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه:٤٢-٤٤].

(١) تفسير الطبري، (٢١/ ٣٠).

- ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[طه:٤٧، ٤٨].

وقد امتثل موسى وهارون عليهما السلام لأمر ربهما وذهبا إلى فرعون وأبلغاه دعوته تعالى، وقد قصَّ علينا الله ﷻ المناظرة التي حدثت بين موسى وهارون عليهما السلام من جانب، وفرعون وهامان - وأحيانًا فرعون وملئه - من جانب آخر، في عدة مواضع في القرآن الكريم، وبصيغ مختلفة حسب السياق القرآني، ومن ذلك: أن موسى وهارون عليهما السلام أتيا فرعون وبلغاه دعوة ربهما كما أمرهما في قوله ﷻ:

- ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:١٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:١٠٤]، وكان هذا الأمر مفاجئًا لهذا الطاغية الذي يدعي أنه إله؛ أن يَنقض دعوته ويَبطل زعمه رجلٌ من بني إسرائيل، هؤلاء الذين سماهم: شرذمة قليلين، والذين يعيشون في كنف سلطانه قلة مستضعفين، بل إن هذا الرجل - موسى عليه السلام - تربى ونشأ وكبر في قصره وفي نعمه، فبمنطقه ومنطق الطغاة والمتكبرين كيف يجرؤ مثل هذا على تكذيبه، وأمام ملئه وقومه، بل ينقض زعمه الذي هو مصدر سلطانه، وهو أنه إلهٌ للمصريين، إذ كان رده على موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:١٨-٢٢].

فكان رد فرعون هو منطق الطغاة والمتكبرين من كفار التاريخ وعتاة البشر، لمن هو دونهم في أمور الدنيا من الجاه والسلطان والغنى، لا سيما إذا كان قد

أسدى إليه خدمة ما في حياته، وفي حالة موسى عليه السلام لم تكن تربيته في قصر فرعون خدمة لموسى من قبل فرعون، وإنما هو فعل هذا تنفيذًا لإرادة الله تعالى، وكذلك لم يقتله كباقي أطفال بني إسرائيل خدمة له ولأهل بيته، كما جاء في منطق زوجته حين قالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[القصص:٩]، هذا هو الظاهر والذي ينبغي أن يحكم منطق فرعون حين يَمنُّ على موسى، كما حكاه القرآن الكريم في موضع آخر ـ سيأتي إن شاء الله ـ لكن الحقيقة التي تحكم منطق المؤمنين بالله وبإعجازه لفرعون وأمثاله من طغاة البشر، هي أن الأمر كله تم بتدبير الله، وأن فرعون وقصره ومن فيه كانوا مسخرين ومأمورين بتربية وتنشئة نبي الله الذي سيبلغ رسالته للمصريين، وينقذ بني إسرائيل ويقضي على جبروت وطغيان هذا الفرعون ووزيره هامان وجنودهما وقارون؛ وذلك إمعانًا في الإعجاز؛ فالإعجاز هنا ليس فقط نجاة موسى من مصير أقرانه من أطفال بني إسرائيل، بل تربيته وتنشئته في قصر هذا الذي ما قتل أطفال بني إسرائيل إلا من أجل ألَّا يكون فيهم موسى عليه السلام.

ثم انتقل فرعون إلى حوار موسى لمعرفة ما جاء به، فعرَّفه موسى هو وملأه ربَّ العالمين، وأنه ربُّ كل شيء وخالق كل شيء، وعرفهم بعض نعمه تعالى عليهم وعلى الخلق، لكن لما كان سؤال فرعون لموسى على سبيل الإنكار والسخرية والعجب، فقد انتهى هذا المقطع من الحوار بالتكذيب واتهام موسى بالجنون، وقد أخبرنا الله بهذا الحوار في قوله تعالى:

ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الشعراء:٢٣-٢٨].

- وقوله ﷻ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾[طه:٤٩-٥٦].

ثم انتقل فرعون إلى التهديد والوعيد، فأقام موسى الحجة عليه بما أيده الله به من معجزات علمها له ﷻ عند مخاطبته إيَّاه بالنبوة عند طور سيناء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾[الشعراء:٢٩-٣٣].

عندئذ عدَّ فرعون وملأُه هاتين المعجزتين سحرًا، وأن موسى وهارون ساحران، ولما كان المصريون بارعين في السحر، فقد تخيل لهم أن الأمر يسير في هزيمة موسى وهارون، وإظهار كذبهما وسحرهما أمام قوم فرعون، فتواعد فرعون مع موسى على يوم لهذه المناظرة، وجمع كبار سحرة مملكته، وجمع النَّاس لهذا المشهد المهيب، كما جاء في:

- قوله ﷻ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[الشعراء:٣٤-٤٠].

- وقوله ﷻ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ

بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه:٥٧-٦٠]، وقد تعجب موسى من عدِّهم الحق سحرًا: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٧٧، ٧٨].

وهكذا يكرر فرعون وملؤه حجج السابقين واللاحقين من الكافرين برسلهم، واعتماد مقياسهم في اتباع آبائهم، وجحود الحق من أجل الكبرياء والاستعلاء في الأرض، دون اعتبار للحق .

المناظرة بين موسى وسحرة فرعون وانتصار موسى عليه السلام:

جاء موسى وهارون عليهما السلام في الوقت المضروب للمناظرة، وجمع فرعون سحرته وملأه، وحشر الناس لمشاهدة المناظرة بين الحق والباطل، بين معجزة الله وسحر الساحرين، بين نبيَّيْن من أنبياء الله ـ موسى وهارون عليهما السلام ـ وبين واحد لعله أكبر طغاة التاريخ وأشهرهم، على الأقل في عصره، وكان الله مع الحق الذي أرسله من عنده ومع رسوليه، بل إنه تعالى كان يخاطب موسى في أثناء المناظرة ويطمئنه ويأمره بما ينبغي فعله، حتى انتهت المناظرة بانتصار الحق وسحق الباطل، كما أخبرنا الله تعالى في:

ـ قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾[الأعراف:١١٢-١١٩].

- وقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾[الشعراء:٤١-٤٥].

- وقوله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾

[طه:٦١-٦٩].

إيمان السحرة وعقاب فرعون لهم:

ليس من الغريب القول بأن السحرة فوجئوا بأن ما جاء به موسى ليس سحرًا كما كانوا يظنون، وإنما هو معجزة إلهية تؤيد صدق هذا المرسل من الله، إذ سُحِقَ ما فعلوه من السحر، وهم أربابه وأعلم الناس به، أمام هذه المعجزة، ولما كان الله قد أراد هدايتهم، ولم يكونوا من الساعين إلى الدنيا على حساب الآخرة، ولا إلى الباطل على حساب الحق، مهما كان الترغيب أو الترهيب، لما كان ذلك كذلك لم يتردد هؤلاء السحرة في الإذعان للحق والإقرار بهزيمتهم وبطلان سحرهم، والإيمان برب موسى ورب العالمين، دون اعتبار لفرعون وعقابه، وهم بذلك يجسدون نموذجًا مثاليًا في تاريخ البشرية لمن يؤمن بالله ورسله دون اعتبار

لما يلاقيه في سبيل ذلك، وهو هنا: التعذيب والقتل والصلب والتمثيل، كما أخبرنا الله في:

- قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٦].

- وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

[طه: ٧٠-٧٣].

- وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[الشعراء: ٤٦-٥١].

- وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

المؤمنون من قوم فرعون:

يمكن القول إن ثبات إيمان بعض من قوم فرعون من الفئات والأفراد يدل على إرادة الله لمجموعة من خير الناس في الأرض آنذاك - رجالًا ونساءً - بالهداية للإيمان، ويدل أيضًا على أثر دعوة موسى وهارون عليهما السلام في المصريين آنذاك، وأن من ظهر إيمانه منهم هو قليل من كثير، فهؤلاء الذين ظهر إسلامهم كانوا يعرفون بأنهم سيواجهون أسوأ مصير على الأرض، كما يتجلى لاحقًا في قصصهم إن شاء الله، ومع ذلك كان تمسكهم بالإيمان أقوى من هذا المصير الذي لا يقوى عليه إلا من اصطفاه الله للابتلاء.

سحرة فرعون:

كان السحرة أول من آمن من قوم فرعون في هذا الموقف، كما جاء في قول الله على لسانهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥١]، وكان إيمانهم هو الضربة القاصمة لأسطورة فرعون في نظر قومه، والبوابة الطبيعية لإيمان الآخرين من قوم فرعون؛ لأن بطلان سحرهم وعلو معجزة موسى كان بمثابة انتصار الحق على الباطل، وموسى وربه على فرعون وملئه، فآمن الباحثون عن الحق، ظاهرين أو مستترين، وقد سجل لنا القرآن الكريم قصة إيمان هؤلاء الأبرار، وتمسكهم بربهم ورب العالمين، مهما قضى فرعون فيهم، فإنما يقضي هذه الحياة الدنيا، وهي لم تعد تمثل لديهم مغنمًا ولا مطلبًا، إنما كان مطلبهم أن يغفر لهم ربهم.

- قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ

ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٠-٧٣].

- وقال ﷻ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦-٥١].

- وقال ﷻ: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

امرأة فرعون:

وممن آمن بموسى آسية امرأة فرعون، كما أخبر الله في قوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، أي: مَثَلًا لِلَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَوَحَّدُوهُ، امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ التي آمَنَتْ بِاللهِ وَوَحَّدَتْهُ، وَصَدَّقَتْ رَسُولَهُ مُوسَى، وهي تَحْتَ عَدُوٍّ كَافِرٍ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ، فَلَمْ يَضُرَّهَا كُفْرُ زَوْجِهَا، إِذْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً بِاللهِ، وَكَانَ مِنْ قَضَاءِ اللهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ لَا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، إِذْ قَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهَا، فَبَنى لَهَا بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ[1].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن آسِيَة امرأة فرعون واحدة من اثنتين كَمُلتا من النساء، وذلك في قوله ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ

(١) الطبري: تفسير الطبري، (٢٣/ ١١٤).

بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ على النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سَائِرِ الطَّعَامِ»[١].

كما أنها من أربع هن خير نساء العالمين، كما أخبرنا النَّبيُّ ﷺ في قوله: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»[٢].

وقد نصَّ النَّبيُّ ﷺ على أنها إحدى أفضل أربع نساء؛ إذ خَطَّ ﷺ في الأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ ثم قَالَ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ»[٣].

مؤمن آل فرعون ودعوته لقومه:

كما أخبرنا الله ﷻ بواحد ممن آمن به ﷻ وصدق موسى وهارون عليهما السلام، وقد فصَّل لنا ﷻ في خبره ونصحه ودعوته لقومه؛ حيث دعا قومه للإيمان بالله وتصديق موسى وهارون عليهما السلام، وحاورهم وجادلهم - كما يدل السياق القرآني - واستدعى الاستدلالات والحجج عليهم، وذكرهم بمصير المكذبين من أقوام الرسل السابقين، وذكرهم بإرسال يوسف عليه السلام إليهم وقوله لهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: فضل عائشة رضي الله عنها، (٥/ ٢٩/ح:٣٧٦٩)، رواه أبو موسى الأشعري.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٩/ ٣٨٣/ح:١٢٣٩١)، قال المحققون: صحيح على شرط الشيخين، رواه أنس بن مالك.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٤/ ٤٠٩/ح:٢٦٦٨)، قال المحققون: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، رواه ابن عباس.

هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[غافر:٣٤]، كما حذرهم من يوم القيامة، يوم لا عاصم لهم من الله.

ـ قال ﷺ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[غافر:٢٨-٣٤].

ـ وقال ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر:٣٨-٤٦].

ويروي ابن كثير أن هذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه، فَلَمَّا هَمَّ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِ مُوسَى عليه السلام وعزم على ذَلِكَ وَشَاوَرَ مَلأَهُ فِيهِ، خَافَ هَذَا الْمُؤْمِنُ على مُوسَى فَتَلَطَّفَ في رَدِّ فِرْعَوْنَ بِكَلَامٍ جَمَعَ فيه الترغيب والترهيب؛ فقال قوله على وَجْهِ الْمَشُورَةِ وَالرَّأْيِ[1]. وقد يكون لهذا الرأي وجاهته؛ إذ لم يكن أحد يجرؤ على المجاهرة بالإيمان، بل حتى نصح هؤلاء القوم ودعوتهم إلى الله، إلا شخص مقرب من فرعون نسبًا أو صداقة.

ماشطة ابنة فرعون:

أما هذه المرأة، والتي سماها النَّبيّ ﷺ: «ماشطة ابنة فرعون»، فهي واحدة من النماذج المؤمنة التي تُعدّ من الأكثر بلاءً وصبرًا وعزيمة في التاريخ، كما يبين حالها مع فرعون وما فعله معها ومع أولادها أمام أعينها من قتل بعذاب، وهي صابرة محتسبة، وقد قصّ علينا النَّبيّ خبرها، فقال ﷺ: «لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ التي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عليَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هي تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟! قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هي وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ. قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إلى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إلى

---

(١) البداية والنهاية، (١/ ٢٦٠).

صَبِي لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ»، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ»[1].

إيذاء فرعون لبني إسرائيل:

ككل جبار وطاغية في التاريخ البشري، وخاصة هؤلاء الذين يصدون رسل الله ويحاربون دعوتهم ويؤذونهم - أو حتى يقتلونهم - ومن استطاعوا ممن آمن معهم، كان فرعون واحدًا من أطغى هؤلاء الجبابرة المتكبرين، لم يدع شيئًا يمكن أن يلحق الأذى بموسى وقومه ومن آمن معه من آل فرعون وملئه إلا فعله؛ فقتل السحرة وصلَّبهم في جذوع النخل لما آمنوا، وعذب زوجته، وقتل ماشطة ابنته وأولادها لما آمنوا، وحاول قتل موسى عليه السلام.

وكان فرعون، بعد هزيمته أمام موسى وهارون وإظهار الحق له ولملئه وقومه، يعاود إذلال بني إسرائيل وتعذيبهم وقتل أولادهم واستحياء نسائهم، كما كان يفعل من قبل، وذلك بتحريض من ملئه؛ هؤلاء الذين خافوا على ضياع مكتسباتهم المادية والمعنوية إذا ذهب كبرياء فرعون وهيبته وسطوته على مصر؛ لأن مكتسباتهم مرتبطة بحال فرعون ووضعه، لكن موسى شد من أزرهم وأوصاهم بالاستعانة بالله والصبر، بل بشرهم - ولو على سبيل الاحتمال - أن الله سيهلك عدوهم ويستخلفهم في الأرض.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٥/ ٣٠، ٣١/ ح:٢٨٢١)، قال المحققون: إسناده حسن، والحاكم: المستدرك، (٢/ ٥٣٨/ ح:٣٨٣٥)، قال الذهبي: صحيح، واللفظ لأحمد بن حنبل، رواه ابن عباس رضي الله عنهما.

- وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[غافر:٢٣-٢٥].

- قال ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

[الأعراف:١٢٧-١٢٩].

فرعون يحاول قتل موسى:

وصل فرعون في مراحل حربه لموسى ودعوته أن أعلن أنه يريد قتل موسى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر:٢٦].

لكن هل يعني هذا الإعلان أنه فعلًا أراد أو عزم على قتل موسى، أم أنه يتظاهر بذلك أمام ملئه وقومه؟ الراجح الثاني، لأن فرعون يعلم أن موسى رسول من رب العالمين، وأن ربه يمكن أن ينتقم من فرعون عاجلًا إن شرع في ذلك، لا سيما وهو يعلم أن موسى على حق، وأنه مؤيد بالمعجزات كما رأى بعينيْه في المناظرة مع سحرته، وقد أخبرنا العليم الخبير بأن فرعون وملأه أيقنوا بحقيقة رسالة موسى ومعجزاته، في قوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل:١٤]، ولما وقع عليهم الرجز طلبوا من

موسى عليه السلام أن يدعو ربه؛ لكشف الرجز عنهم، مقابل إيمانهم به وإرسال بني إسرائيل معه، وهو ما حدث بالفعل من جانب موسى عليه السلام وربه تبارك وتعالى دون فرعون.

وَظُهُورُ الْفَسَادِ كَانَ عِنْدَهُ هُوَ تَبْدِيلُ الدِّينِ، كأنه يقول إِنِّي أَخَافُ مِنْ مُوسَى أَنْ يُغَيِّرَ دِينَكُمُ الذي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي أَرْضِكُمْ أَرْضِ مِصْرَ عِبَادَةَ رَبِّهِ الذي يَدْعُوكُمْ إلى عِبَادَتِهِ، وَذَلِكَ كَانَ عِنْدَهُ هُوَ الْفَسَادُ[1].

آيات الله في فرعون وقومه وعدم إيمانهم:

في مرحلة ما بعد إظهار الحق لفرعون وقومه بعد المناظرة مع السحرة، تمادي فرعون وملؤه ومن تبعهم في كفرهم وغيهم وطغيانهم؛ من إيذاء بني إسرائيل - كما سبق آنفًا - بل الإعلان عن إرادة قتل موسى، فضلًا عن استمرار الكفر بدعوة موسى إلى عبادة الله وحده وإرسال بني إسرائيل معه. وقد شاءت إرادة الله أن ينذر قوم فرعون بعديد من الإنذارات على يد موسى عليه السلام؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٣٠]، لكنهم لم يتذكروا ولم يزدجروا، حتى قضى الله على فرعون وجنوده بالغرق، كما قضى على قارون بالخسف، ولم يكن مصير هامان أفضل من ذلك.

وهذه الإنذارات لقوم فرعون هي في الوقت نفسه آيات مؤيدة لدعوة موسى وهارون عليهما السلام، وهي سبعة إنذارات وقعت على فرعون وقومه في هذه المرحلة، من جملة تسع آيات هي التي نص عليها القرآن الكريم تأييدًا لرسالة موسى عليه السلام، فقد أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه أيد نبيه موسى بتسع آيات بينات مؤيدة لصدقه ونبوته ودعوته لفرعون وقومه ومعهم هامان وقارون، ومع كثرة تلك الآيات، إلا أن فرعون وملأه وقومه أبوا إلا الجحود مع استيقانهم لها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ

(١) الطبري: تفسير الطبري، (٢٠/ ٣٠٩، ٣١٠).

ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء:١٠١، ١٠٢][1]، و: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[النمل:١٤][2].

وهذه الآيات ـ أو المعجزات ـ هي: عصا موسى ويده اللتان استخدمهما في المناظرة مع السحرة، ثم السبع آيات الأخريات، وهن: آيتا السنين ونقص الثمرات، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠][3]، والخمس الأخريات هي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، والتي جاءت في قوله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ١٣٣]، وقد ذكر المفسرون بعض التباين في تسمية وتقنين الآيات التسع المشار إليها، لكن هذا التباين لا يخرج ـ في جله على الأقل ـ عن هذه الآيات المذكورة[4].

وهذه الآيات لم تقع جملة، بل متفرقة، لعلهم يرجعون عن غيهم وطغيانهم، ويؤمنون برسالة موسى عليه السلام، فبعد أول آيتين في المناظرة مع السحرة أخذهم الله

---

(١) أي: هذه الآيات بصائر لمن استبصر، وهي لمن اهتدى بهن، و«مَثْبُورًا» أي: ملعونًا ممنوعًا من الخير، (الطبري، تفسير الطبري، (١٥/ ١٠٨).

(٢) قال الطبري: «وهى الآيات التسع»، تفسير الطبري، (١٨/ ٢٢)، «وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ» أي: أيقنتها قلوبهم وتبين لهم الحق، (السابق، (١٨/ ٢٣).

(٣) «بِٱلسِّنِينَ» أي: بِالْجُدُوبِ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ وَالْقُحُوطِ. يُقَالُ مِنْهُ: أَسْنَتَ الْقَوْمُ: إِذَا أَجْدَبُوا، وَاخْتَبَرْنَاهُمْ مَعَ الْجُدُوبِ بِذَهَابِ ثِمَارِهِمْ وَغَلَّاتِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلَ، (الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٣٧٤).

(٤) الطبري: تفسير الطبري، (١٥/ ٩٩ـ ١٠٢).

بالسنين ونقص الثمرات ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف:١٣٠]، وكانوا إذا جاءهم الخصب والرخاء وما يحبون في دنياهم قالوا: نحن أولى بها، وإذا أصابهم الجدبُ والقحط والبلاء يتشاءموا من مجيء موسى[١]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٣١]، وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما كانت الآيات التي سيأتي بها موسى في كمها أو كيفها، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[الأعراف:١٣٣]، لكنهم خضعوا عندما وقع عليهم الرجز، وأعلنوا لموسى أنهم سيؤمنون برسالته، ويرسلون معه بني إسرائيل إن هو كشف عنهم الرجز، فلما كشف الله عنهم الرجز نكثوا فانتقم الله منهم وأغرقهم، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٦][٢].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٣٧٦).

(٢) «والرجز» هو: عذاب الله الذي سلطه عليهم من الجراد والقمل، وقيل: كان طاعونًا، فمات سبعون ألفًا منهم وأمسوا ولم يدفنوا، فطلب فرعون من موسى عليه السلام أن يدعو الله أن يكشف هذا الرجز، قال الطبري: والصَّوَابُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ أَخْبَرَ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنَّهُمْ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ، وَهُوَ الْعَذَابُ وَالسُّخْطُ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ، فَزِعُوا إِلَى مُوسَى بِمَسْأَلَتِهِ رَبَّهُ كَشْفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّجْزُ كَانَ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ؛ لَأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ كَانَ عَذَابًا عَلَيْهِمْ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّجْزُ كَانَ طَاعُونًا. وَلَمْ يُخْبِرْنَا اللهُ أَيَّ ذَلِكَ كَانَ؟ وَلَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَيِّ ذَلِكَ كَانَ خَبَرٌ فَنُسَلِّمَ لَهُ. فَالصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ فِيهِ =

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٩][1].

المؤمنون بموسى من قومه وحالهم

أما المؤمنون بموسى من قومه، فهم قليلون، شأن جُلِّ رسل الله وأنبيَّائه، وقد أخبرنا الله ﷻ أنهم ذرية من قومه، وكانوا خائفين من أن يفتنهم فرعون في دينهم بتعذيبهم أو قتلهم، لكن موسى عليه السلام طمأنهم وقوّى عزيمتهم بالتوكل على الله، فأعلنوا توكلهم على الله واستجارتهم به؛ لنجاتهم من القوم الكافرين، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[يونس:٨٣-٨٦].

وكان الله ﷻ مع نبيه وعباده المؤمنين به، فاستجاب لتضرعهم، وعدم فتنتهم في دينهم، ونجاتهم من القوم الكافرين، فأُوحى إلى موسى وهارون أن يجعلا بيوت بني إسرائيل مميزة وبمعزل عن بيوت المصريين؛ استعدادًا للخروج عندما يأمرهم الله بذلك، وكذلك أمرهما الله بإقامة الصلاة وبشارة المؤمنين، قال ﷻ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس:٨٧].

=كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾، أي: لَمَّا حَلَّ بِهِمْ عَذَابُ اللهِ وَسَخَطُهُ، (تفسير الطبري، ١٠/ ٣٩٩-٤٠١).

(١) أي: «إِنَّا إِنْ آمَنَّا بِكَ وَاتَّبَعْنَاكَ، كُشِفَ عَنَّا الرِّجْزُ»، (الطبري، تفسير الطبري، ٢٠/ ٦٠٨)، وروى الطبري عن مجاهد في وجه تسميتهم لموسى بالساحر - وهم يدعونه لكشف العذاب عنهم - أنه يعني: «العالِم»، فهو ليس ذمًّا، تفسير الطبري السابق، ٢٠/ ٦٠٩).

دعاء موسى على فرعون وملئه:

ولما أيقن موسى عليه السلام من عناد فرعون وملئه وإصرارهم على الكفر وجحود الحق، بعدما استيقنته أنفسهم، دعا هو وهارون عليهم بالطمس على أموالهم والشد على قلوبهم، وأن يريهم الله العذاب الأليم، فاستجاب الله لهما، ولم يؤمنوا حتى رأوا العذاب الأليم وهو الغرق، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يونس:٨٨، ٨٩]، كما دعا عليهم بلسان حال الشكوى من إجرامهم وأن يخلصه الله وقومه منهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾[الدخان:٢٢].

نجاة موسى وقومه وغرق فرعون وجنوده:

ولما شكا موسى عليه السلام إلى ربه ـ وهو أعلم بذلك ـ ودعاه بأن هؤلاء القوم مجرمون: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾[الدخان:٢٢] استجاب له ربه ـ على التعقيب، أو صادف دعاؤه توقيت الله لخروج موسى ببني إسرائيل ـ فأمره بالخروج ليلًا ببني إسرائيل وأعلمه باتباع فرعون لهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[الدخان:٢٣]، فاستجاب موسى لأمر ربه وخرج ببني إسرائيل ليلًا ناحية البحر الأحمر، فأتبعه فرعون بجنوده، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء:٦١]، لكن موسى لم يكن خائفًا كبني إسرائيل، فهو يعلم أن الله معهم، وأنه تعالى لن يتركهم وسيهديه إلى ما يفعل: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء:٦٢]، فأوحى الله إلى نبيه بشق طريقه في البحر في معجزة كبرى من المعجزات التي أيده بها تعالى أمام عدو الله وملئه: ﴿فَأَوْحَيْنَآ

إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣]، فسلك موسى وقومه طريقهم في البحر - خليج السويس على الراجح - حتى خرجوا منه، وإذا بفرعون يصل ويتابع موسى عليه السلام في طريق البحر، فأراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى لإرجاعه إلى ما كان عليه ومنع فرعون وجنوده من العبور، لكن الله تعالى أمر موسى بتركه؛ لأن فيه نهايتهم، فأغرقهم الله تعالى ونجى موسى وأتباعه: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾

[الدخان:٢٤-٢٨][1].

وكما قال موسى من قبل: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]، لم يؤمن فرعون حتى رأى هذا العذاب الأليم - وهو الإغراق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[يونس:٩٠-٩٢].

وكان عقاب فرعون وجنوده عقابًا شديدًا، في الدنيا والآخرة: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾[القصص:٣٩-٤٢].

---

(١) وقوله تعالى: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤﴾، أي: وقربنا هنالك آل فرعون من البحر، وقدمناهم إليه، (الطبري: تفسير الطبري، ١٧/ ٥٨٥).

وكان هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى عليه السلام وأغرق فرعون هو يوم العاشر من المحرم؛ فقد قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ وَاليَهُودُ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَسَأَلَهُمْ، فَقَالُوا: هَذَا اليَوْمُ الذي ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى على فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، (ج٦/ ٩٦/ ح:٤٧٣٧)، ومسلم في «صحيحه»، باب: صوم يوم عاشوراء، (٢/ ٧٩٥/ ح:١٢٨)، أما مكان الخروج، فإن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بني إسرائيل، من مصر لأسباب، منها:

أولًا: أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل في النصوص الإنسانية ضعيف، ذلك لأن حقيقة الصراع بين دعوات الأنبياء وسلطات الملوك المؤلهين أو شبه المؤلهين يدعو إلى عدم سماح الملوك بتسجيل مبادئ هذه الدعوات والصراع بينها وبينهم، وتلك ظاهرة يلمسها المؤرخ بوضوح في تاريخ الشرق الأدنى، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع ملك العراق، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون مصر، على سبيل المثال.

ثانيًا: أن المصادر المصرية القديمة، والتي تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم، بوضوحها وكثرة آثارها، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن قصة بني إسرائيل في مصر، منذ عهد يوسف وحتى عهد موسى عليهما السلام، غير أن هذه المصادر - كما هو معروف - إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحي منهم، أو على الأقل برضى منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة - كما أثبتت النصوص وألمح القرآن الكريم - يزعم أنه إله أكثر منه بشرًا، ومن ثم فقد كان من الطبعي ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها، ولهذا فإن النصر كان ينبغي - في نظرهم - أن يكون حليفه، وقد تكون الحقيقة غير ذلك.

ومن المعروف أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، كما جاءت في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، إنما انتهت بغرق الفرعون وجنوده في البحر، ونجاة موسى ومن آمن معه بالله الواحد القهار، ومن ثم فليس من المقبول - طبقًا للعقيدة المصرية القديمة - أن تسجل نصوص الفراعين، غرق الإله الفرعون ونجاة عبيده العبرانيين، ومن هنا كان من الصعب العثور على آثار تتحدث عن موسى وقومه، على الرغم من ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية، وإن كان هذا لا يقطع الأمل في العثور على تلك الآثار، التي ربما سجلت بطريقة أو بأخرى عن طريق المعارضين لفرعون، المؤمنين برب موسى وهارون، والله وحده يعلم الغيب من الأمر، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص٢٣٧). =

=**مكان الخروج وتاريخه**: التف بنو إسرائيل حول موسى ﷺ في مصر، لا كنبي، وإنما كقائد يرجى على يديه الخلاص من استعباد المصريين، وبدأ موسى مسيرة الخروج، وكانت بداية المسيرة من مدينة «بر رعمسيس» مقر الفرعون وعاصمة الإمبراطورية المصرية وقت ذاك، وقد قام جدل طويل بين العلماء حول موقعها، وقد تقع مكان قرية «قنتير» على بعد تسعة عشر (١٩) ميلًا إلى الجنوب من صان الحجر، وعلى بعد تسعة (٩) كم إلى الشمال الشرقي من فاقوس - شرقية، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ص ٢٣٧).

أما أهم الآراء التي دارت حول تاريخ الخروج فهي خمسة: أولها رأي يذهب أصحابه إلى أن الخروج إنما تم في أثناء طرد الهكسوس من مصر على أيام أحمس الأول، حوالي عام (١٥٧٥ق.م)، وثانيها: أنه تم على أيام تحوتمس الثالث (١٤٩٠ـ١٤٣٦ق.م)، أو والده أمنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ق.م) وثالثها: أنه تم في أعقاب أيام إخناتون (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ق.م)، وربما في الفترة ما بين موت إخناتون وتوليه حور محب العرش، حوالي عام (١٣٣٥ ق.م)، ورابعها: أنه تم على أيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق.م) وخامسها: أنه على أيام ولده «مرنبتاح» (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ق.م)، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية السابق، ص٢٣٣).

رمسيس الثاني: فرعون التسخير (١٢٩٠ـ ١٢٢٤ق.م): يرى كثير من الباحثين المؤرخين أن رمسيس الثاني إنما هو فرعون التسخير، وليس فرعون الخروج، ومن أبرز أدلة ذلك ما جاء في التوراة؛ تقول التوراة: «فجعلوا عليهم - أي بني إسرائيل - رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس» واعتمادًا على هذا النص رأى البعض أن بني إسرائيل بنوا لفرعون التسخير مدينتين، الواحدة فيثوم، والثانية رعمسيس، وقد دلت الحفائر على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أنشئت في عهد رمسيس الثان .

مرنبتاح : هو فرعون موسى: (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ق.م) : يذهب إلى هذا الرأي الكثير من علماء المصريات والأثريين والمؤرخين، ويعتمد أصحاب هذا الرأي الذي يذهب إلى أن مرنبتاح (١٢٢٤ـ ١٢١٤ق.م) هو فرعون موسى على نص التوراة الخاص ببناء مدينتي فيثوم ورعمسيس، وعلى ما جاء في «لوح إسرائيل»، والذي ذكر فيه اسم إسرائيل لأول مرة في النصوص المصرية، وهكذا رأت جمهرة كبيرة من المؤرخين أن مرنبتاح هو فرعون الخروج، وأن أباه رعمسيس الثاني هو فرعون التسخير، وتتفق آراء «نافيل» و«بترى» و«سايس» على أن خروج بني إسرائيل من مصر إنما حدث على أيام مرنبتاح، وتميل جمهرة العلماء إلى ترجيح خروج بني إسرائيل من مصر في الأيام الأولى لعهد مرنبتاح، (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية السابق، ص٢٣٩).

التمكين في الأرض لبني إسرائيل:

كما قال الله ﷻ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[القصص:٥، ٦]، وكما قال موسى عليه السلام مصبرًا قومه، ومبشرًا لهم - على سبيل الدعاء: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٢٩].

أخرج الله فرعون وجنوده من هذه الأرض بنعيمها، وأورثها موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل، وقد أخبرنا الله ﷻ بذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم:

- قوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:٥٧-٥٩].

- وقوله ﷻ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[الدخان:٢٥-٢٨].

- وقوله ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف:١٣٧].

- وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:٩٣].

«واسْتَوْلَى بَنُو إِسْرَائِيلَ - كما قال ابن كثير - على الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْحَوَاصِلِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَالْمَمَالِكِ الْقِبْطِيَّةِ»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٧).

قال ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف:١٣٧] قال المفسرون: أي: تم وَعْدُ اللهِ الذي وَعَدَ به بني إِسْرَائيلَ مِنْ تَمْكِينِهِمْ في الأَرْضِ، وَنَصْرِهِ إِيَّاهُمْ على عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ[١].

يقول ابن كثير، في أثناء عرضه نُصح مؤمن آل فرعون لفرعون وملئه: «فَإِنَّهُ ما تعرض الدول للدين إِلَّا سُلِبُوا مُلْكَهُمْ وَذَلُّوا بَعْدَ عِزِّهِمْ، وَكَذَا وَقَعَ لِآلِ فِرْعَوْنَ مَا زَالُوا في شَكٍّ وَرَيْبٍ وَمُخَالَفَةٍ وَمُعَانَدَةٍ لِمَا جاءَهُمْ مُوسَى بِهِ حَتَّى أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالأَمْلَاكِ وَالدُّورِ وَالْقُصُورِ وَالنِّعْمَةِ وَالْحُبُورِ، ثُمَّ حُوِّلُوا إلى الْبَحْرِ مُهَانِينَ، وَنُقِلَتْ أَرْوَاحُهُمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ إلى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ»[٢].

كفر بني إسرائيل بنعم الله:

بعد ما لاقاه بنو إسرائيل في المرحلة السابقة من صنوف العذاب والاضطهاد من عدوهم، وبعد أن نجاهم الله منه ومكنهم في الأرض، بدأوا مرحلة جديدة أحرارًا منعمين في جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم، فكان من الطبيعي أن يشكروا الله ويطيعوا نبيه موسى في كل ما يدعوهم إليه، وأهمه عبادة الله حق عبادته وشكر نعمه، وهو ما أوصاهم به موسى عليه السلام وحذرهم مخالفة الله، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٦-٨].

---

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٤٠٦)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٦).
(٢) البداية والنهاية، (١/ ٢٦٠، ٢٦١).

ولكنهم لم يشكروا ولم يقدروا نعم الله عليهم، بل قابلوا هذه النعم بالنكران؛ بأن كفر بعضهم وطلب عبادة الأصنام، كما أخبرنا الله ﷻ: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:١٣٨-١٤٠].

بنو إسرائيل والأرض المقدسة:

وعد الله بني إسرائيل أن يدخلوا مدينة بيت المقدس من جملة نعمه ﷻ عليهم، فتوجه بهم موسى عليه السلام إليها، وكان فيها قوم من الجبارين، سمتهم المصادر العربية: «العماليق»، كانوا قد تملكوها، فأبوا أن يدخلوها؛ خوفًا من هؤلاء، على الرغم من نصح رجلين منهم أن يدخلوا على هؤلاء وسيغلبونهم، لكنهم أبوا وعصوا أمر ربهم ونصح نبيهم، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة:٢١-٢٤].

وكان بَيْتُ الْمَقْدِسِ بِأَيْدِيهِمْ في زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ، لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ وَبَنُوهُ وَأَهْلُهُ إلى مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عليه السلام، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا به حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى، فَوَجَدُوا فِيه قَوْمًا مِنَ الْعَمَالِقَةِ الْجَبَّارِينَ، قَدِ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْه وَتَمَلَّكُوه؛ فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ في التِّيهِ وَالتَّمَادِي في سَيْرِهِمْ حَائِرِينَ، لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ فِيهِ إلى

مَقْصِدٍ، مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عُقُوبَةً لَهُمْ على تَفْرِيطِهِمْ في أَمْرِ اللهِ[1]، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:٢٥، ٢٦].

فترة التيه ونعم الله على بني إسرائيل:

بعد رفضهم دخول الأرض المقدسة بدأ ينفذ فيهم الحكم الإلهي بتيههم أربعين سنة، وقد أنعم الله عليهم بما جاء وصفه في الآيات الكريمة، فلما بدلوا وغيروا ما قيل لهم ونسوا ما ذكروا به أرسل الله عليهم رجزًا من السماء بظلمهم، وأخذوا بعذاب بئيس بفسقهم، بعد نجاة الذين كانوا ينهون عن السوء منهم، بل إنه ﷻ سخط على الذين عتوا منهم عن ما نهوا عنه، فجعلهم قردة خاسئين، وتوعدهم ليبعثن عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، وقطعهم الله أممًا في الأرض؛ فكان منهم الصالح ومنهم دون ذلك، وابتلاهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون إلى صلاح أمرهم.

ومن نماذج عصيانهم لأمر ربهم أن أهل القرية المذكورة ـ وهي «أَيْلَةُ» على شَاطِئِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ـ الأحمر ـ كما قال المفسرون ـ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْحِيتَانَ ـ الأسماك ـ يَوْمَ السَّبْتِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا في سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَإِذَا مَضَى يَوْمُ السَّبْتِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، فَمَكَثُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ إِنَّ طَائِفَةً

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٣/ ٧٦)، وقد ذكر ابن كثير رواية لابن عباس ومجاهد، وغيرهما، تقول: إن الأرض المقدسة المقصودة هي الطور وما حوله، كما أن ثمة رواية أخرى لابن عباس، وغيره، تقول: إنها «أريحا»، وقد نفى ابن كثير ذلك، ثم قال: «إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِأَرِيحَا أَرْضَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ... هَذِهِ الْبَلْدَةُ الْمَعْرُوفَةُ في طَرَفِ الغَوْر شرقي بَيْتِ الْمَقْدِسِ»، (نفس السابق).

منهُمْ أخذُوا الْحِيتَانَ يَوْمَ السَّبْتِ، فَنَهَتْهُمْ طَائِفَةٌ وَقَالُوا: تَأْخُذُونَهَا وَقَدْ حَرَّمَهَا اللهُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ السَّبْتِ! فَلَمْ يَزْدَادُوا إِلَّا غَيًّا وَعُتُوًّا، وَجَعَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى تَنْهَاهُمْ، فلا ينتهون، فسخطهم الله قردة وخنازير[1]. قال ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[الأعراف:١٥٩-١٦٨].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٠/ ٥٠٧ـ ٥١٢)، وابن كثير: تفسير الطبري، (٣/ ٤٩٢).

نزول التوراة على موسى عليه السلام:

ذكر ابْنُ إِسْحَاقَ أن اللهَ وَعَدَ مُوسَى حِينَ أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَنَجَّاهُ وَقَوْمَهُ، ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَتَمَّهَا بِعَشْرٍ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، تَلَقَّاهُ رَبُّهُ فِيهَا بِمَا شَاءَ، وَاسْتَخْلَفَ مُوسَى هَارُونَ على بني إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ: إِنِّي مُتَعَجِّلٌ إلى رَبِّي فَاخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ، فَخَرَجَ مُوسَى إلى رَبِّهِ مُتَعَجِّلًا لِلِقَائِهِ شَوْقًا إِلَيْهِ، وَأَقَامَ هَارُونُ في بني إِسْرَائِيلَ وَمَعَهُ السَّامِرِيُّ يَسِيرُ بِهِمْ على أَثَرِ مُوسَى؛ لِيُلْحِقَهُمْ بِهِ[1]، وتوجه موسى إلى جبل طور سيناء للقاء ربه، حيث أنزل عليه تعالى التوراة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:١٤٢]، وقد تطلع موسى لرؤية ربه تعالى في هذا المقام، ولكن الله أعلمه أنه لن يستطيع ذلك، وأراه الجبل حين تجلى تعالى عليه، فخر موسى صعقًا، ولما أفاق سبح ربه تعظيمًا وإجلالًا ثم تاب من طلبه، فذكَّره الله ببعض نعمه عليه، وأمره بأخذ ما آتاه، وهو التوراة ـ مكتوبة في الألواح، وأن يشكر الله على ذلك وغيره، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأعراف:١٤٣، ١٤٤].

وقد أخبرنا الله تعالى أنه كتب في ألواح التوراة لموسى من كل شيء

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١/ ٦٦٨)، والراجح أن الأربعين يومًا كانت في ذي القعدة والعشر الأول من ذي الحجة، (السابق، ١٠/ ٤١٤، وما بعدها).

ما يحتاجون إليه، وأنها تحتوي على العقيدة والشريعة، ووصفها بأن فيها هدى ونورًا، وهذا في عدة مواضع في القرآن الكريم، منها:

- قوله ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

- وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣].

- وقوله ﷻ: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٣-٤٥].

وكما هو معروف، فقد وردت التوراة بأكثر من اسم ووصف قد تلتبس معانيها على البعض، مما جعل ثمة تباين في تحديد المقصود منها عند عدد من المفسرين، لكن الطبري وضع توفيقًا لها عند عرضه لقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[البقرة:٥٣]، فقال: الأَوْلَى بِالتَّأْوِيلِ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وغيره، مِنْ أَنَّ الْفُرْقَانَ الذي ذَكَرَ اللهُ أَنَّهُ آتَاهُ مُوسَى في هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْكِتَابُ الذي فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهُوَ نَعْتٌ لِلتَّوْرَاةِ وَصِفَةٌ

لَهَا؛ فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الآيَةِ حِينَئِذٍ: وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى التَّوْرَاةَ التي كَتَبْنَاهَا لَهُ في الأَلْوَاحِ، وَفَرَّقْنَا بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَيَكُونُ الْكِتَابُ نَعْتًا لِلتَّوْرَاةِ أُقِيمَ مَقَامَهَا؛ اسْتِغْنَاءً بِهِ عَنْ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ بِالْفُرْقَانِ، إِذْ كَانَ مِنْ نَعْتِهَا، والْكِتَابُ بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ[1].

ضلال بني إسرائيل وعبادتهم للعجل وتوبتهم:

في الفترة الوجيزة التي ذهب فيه موسى لملاقاة ربه، واستخلف في قومه أخاه هارون عليه السلام، تمردوا على نهج العبادة الصحيحة واتباع تعاليم موسى عليه السلام، وبسبب تحريض وغواية السامري عبدوا عجلًا صنعه لهم هذا السامريُّ من حُلِيِّ نسائهم، التي أتوا بها من مصر، وزيادة في الفتنة تمعن السامري في صنع العجل حتى جعل له صوت خوار، ففتنوا به وعبدوه؛ مع أنه - كما ذكر القرآن الكريم - لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولم يستطع هارون عليه السلام أن يردهم عن ضلالهم، حتى إنهم كادوا أن يقتلوه، فحل عليهم غضب ربهم ونالتهم الذلة في الحياة الدنيا، وقد أعلم الله موسى فتنة قومه وإضلال السامري لهم، فغضب موسى ورجع إلى قومه وزجرهم وعنفهم، وأنّب أخاه هارون الذي شكا له عذره وعدم مقدرته عليهم، واستجوب السامري فاعترف بذنبه وفعله، ثم دعا الله لنفسه ولأخيه هارون أن يغفر لهما ويدخلهما في رحمته، وقد ندم بنو إسرائيل على فعلهم وخافوا عقاب الله إن لم يغفر لهم.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا

(١) تفسير الطبري، (١/ ٦٧٧، ٦٧٨).

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾[الأعراف:١٤٨-١٥٢].

وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾[طه:٨٣-٩٨].

وقد طلب موسى عليه السلام من بني إسرائيل التوبة من هذا الجرم الكبير، وكانت

توبتهم قتل أنفسهم، كما أمر الله ﷻ، وكما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤].

التوبة وميقاتهم مع الله ﷻ:

لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إلى قَوْمِهِ، وَأَحْرَقَ الْعِجْلَ وَذَرَّاهُ في الْيَمِّ[١]، وبأمر من موسى قَتَل الذين لم يعبدوا العجل مَنْ عبدوه[٢]، ثم اخْتَارَ مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا لِلْوَقْتِ وَالأَجَلِ الذي وَعَدَهُ اللهُ أَنْ يَلْقَاهُ فِيهِ بِهِمْ؛ لِلتَّوْبَةِ مِمَّا كَانَ مِنْ فِعْلِ سُفَهَائِهِمْ في أَمْرِ الْعِجْلِ[٣]، وذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا، فَلَمَّا أَتَوْا ذَلِكَ الْمَكَانَ قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ يَا مُوسَى حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً، فَإِنَّكَ قَدْ كَلَّمْتَهُ فَأَرِنَاهُ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ فَمَاتُوا، فَقَامَ مُوسَى يتضرع وَيَدْعُو اللهَ وَيشكو إليه حاله إذا رجع إلى قومه بدونهم وهم خِيَارُهُمْ، وقال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾[الأعراف:١٥٥]، فاستجاب الله تضرعه وأَحْيَاهُمْ[٤]، كما قال ﷻ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[الأعراف:١٥٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة:٥٥، ٥٦].

---

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١/ ٦٨٤).

(٢) المرجع السابق، (١/ ٦٨٠، ٦٨٤).

(٣) المرجع السابق، (١٠/ ٤٦٧).

(٤) المرجع السابق، (١٠/ ٤٧٢).

رفضهم الأخذ بالتوراة والعمل بها:

ومن مواقفهم التي أعلنوا فيها التمرد والعصيان، عندما أمرهم موسى - بأمر من الله ﷻ - أن يأخذوا التوراة بقوة ويلتزموا بتعاليمها، عصوا وتمردوا، فرفع الله فوقهم الجبل حتى كان كالظلة، فخافوا وامتثلوا أمر الله، وسجدوا عندما أمروا بذلك، كما أخبرنا الله ﷻ:

- في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[البقرة:٦٣، ٦٤].

- وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأعراف:١٧١].

- وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

[البقرة:٩٣].

إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام:

تعرض موسى عليه السلام لكثير من الأذى من بني إسرائيل، بأشكال مختلفة وفي مراحل ومواقف متباينة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، في مثل قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب:٦٩].

ومن ذلك ما أخبرنا به رَسُولُ اللهِ ﷺ إذ قال: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا

سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بني إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ؛ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّأَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَي، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ على الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إلى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إلى مَلَإٍ مِنْ بني إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾»[1].

وقد ذكر النبيّ ﷺ أذى بني إسرائيل لموسى في مناسبة آذاه فيها بعض أصحابه، وذلك في أثناء تقسيمه بعض الغنائم يوم حنين، إذ قال رجل: إِنَّ هَٰذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللهِ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ﷺ ثُمَّ قَالَ: **«فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»**، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: **«يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»**[2].

وقيل: إن مما آذوه به اتهامهم له بأنه أبرص[3]، واتهامه بأنه قتل هارون[4]

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى، (٤/ ١٥٦/ ح:٣٤٠٤)، رواه أبو هريرة، ومسلم في «صحيحه»، باب: من فضائل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، (٤/ ١٨٤٢/ ح:٣٣٩)، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب قوله ـ تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه، (٨/ ٧٣/ ح:٦٣٣٦)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الزكاة، بَابُ: إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ على الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ، (٢/ ٧٣٩/ ح:١٠٦)، واللفظ لمسلم.

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (١٩/ ١٩١).

(٤) المرجع السابق، (١٩/ ١٩٣).

وسـيرة موسـى عليه السلام مـع قومه تظهر أنهم آذوه بصنوف متنوعة من الإيذاء، مثل:

١ـ مخالفته ـ أو جُلّهم ـ في كل ـ أو جُلّ ـ تعاليمه ووصاياه لهم، وتمردهم الدائم، مثل: عدم إيمان كثير منهم، ومعاودة كثير ممن آمن منهم إلى الكفر وعبادة أشياء أخرى، كالعجل، وطلبهم رؤية الله جهرة، وعدم دخولهم الأرض المقدسة.

٢ ـ اتهامه بعيب في جسده كالبرص، أو غيره، كما أخبرنا النَّبيّ ﷺ.

٣ ـ اتهامه مع مومسة منهم، كما سيأتي في أثناء عرض قصة قارون.

٤ ـ اتهامه بقتل أخيه هارون.

وقد برأه الله من كل ما اتهموه به.

ولكن السياق الذي أخبرنا الله به هو سياق عام، لا تخصيص فيه ولا تعيين لنوع الإيذاء، ومن ثم فإنه من أفضل ما قيل في ذلك قولُ الطبري: ما من «قَوْل في ذَلِكَ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِمَّا قَالَ اللهُ: إِنَّهُمْ آذَوْا مُوسَي، فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا»[1].

حج موسى عليه السلام:

أخبرنا النَّبيّ بحج موسى عليه السلام ووصف لنا مشهدًا منه عند «وادي الأزرق»، فعندما مَرَّ ﷺ بِوَادِي الأَزْرَقِ، قَالَ: «أَيُّ وَادٍ هَـذَا؟» قَالُوا: هَـذَا وادي الأَزْرَقِ، فَقَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى مُوسَى عليه السلام هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إلى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ**»[2].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٩/ ١٩٤).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله، (١/ ١٥٢/ ح:١٦٦).

وفاة موسى وهارون عليهما السلام:

روى عدد من الصحابة وفاة هارون عليه السلام، ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: إنه لما «صَعِدَ مُوسَى وَهَارُونُ الْجَبَلَ مَاتَ هَارُونُ فَقَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: أَنْتَ قَتَلْتَهُ، كَانَ أَشَدَّ حُبًّا لَنَا مِنْكَ وَأَلْيَنَ لَنَا مِنْكَ، فَآذَوْهُ فِي ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ فَحَمَلَتْهُ، فَمَرُّوا بِهِ على مَجَالِسِ بني إِسْرَائِيلَ حَتَّى عَلِمُوا بِمَوْتِهِ، فَدَفَنُوهُ»[1]، وكانت وفاة هارون في التيه قبل وفاة موسى بسنتين وهو ما عليه الجمهور[2]، ويذكر بعض المفسرين أن هَارُونَ عليه السلام توفي قبل موسى بثلاث سِنِينَ.

وتوفي موسى عليه السلام في فترة التيه -أيضًا- كما ذكر المفسرون، وقد روى أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه خبر وفاته إذ قَالَ: «أُرْسِلَ مَلَكُ المَوْتِ إلى مُوسَى عليه السلام، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إلى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إلى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ المَوْتَ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ على مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أي رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ المَوْتُ، قَالَ: فَالْآنَ، فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ، إلى جَانِبِ الطَّرِيقِ، عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ**»[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، باب: ذكر وفاة هارون بن عمران، (٢/ ٦٣٢/ ح:٤١١٠)، قال الذهبي: صحيح، وثمة رواية أخرى لعبد الله بن مسعود، وعدد من الصحابة، أكثر تفصيلًا من هذه الرواية، باب: ذكر وفاة هارون بن عمران، (٢/ ٦٣٢/ ح:٤١٠٩)، قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الجنائز، باب: من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها، (٢/ ٩٠/ ح:١٣٣٩)، وكتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعد، (٤/ ١٥٧/ ح:٣٤٠٧).

كما توفي - أيضًا - كُلُّ مَنْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، كما قال المفسرون، فَلَمَّا مَضَتِ الْأَرْبَعُونَ سَنَةً قام «يُوشَعُ بْنُ نُونٍ»، بِالأَمْرِ بَعْدَ مُوسَى، وَهُوَ الذي افْتَتَحَ الأرض المقدسة، وَأَقَامَ فِيهِمْ «يُوشَع» نبيًّا خَلِيفَةً عَنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَمَاتَ أَكْثَرُ بني إِسْرَائِيلَ هُنَاكَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَى «يُوشِعَ» وَ«كَالِبَ»[1].

وقد جعل الله بني إسرائيل اثني عشر سبطًا، أو أنه ﷺ فرقهم اثنتي عشرة فرقة؛ لأنهم كانوا من اثني عشر رجلًا من أولاد يعقوب؛ وكان كل سبط أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد، كما يذكر الفخر الرازي[2].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/ ٧٩).
(٢) مفاتيح الغيب: (٢٥/ ٣٢، ٣٣).

قصة قارون

كان قارون من قوم موسى عليه السلام كما أخبر القرآن الكريم، وهو من الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام، وهذا يدل على أنه قد بلغ درجة عالية من البغي والفساد، مثل معاصريه من فرعون وهامان، فأرسل الله لهم موسى عليه السلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾

[غافر: ٢٤].

وثمة روايات كثيرة تتصل بقارون؛ بدءًا من اسمه وصلته بموسى إلى موته، لكن كل ما لم يأتِ من قصته في القرآن الكريم والسنة الصحيحة يبقى موضع الأخذ والرد، ومن ذلك ما رواه ابن حجر في موطنه، وأنه كان يسكن تنيس[(١)]، وتذهب كثيرٌ من الروايات إلى أن ثمة قرابة بين موسى وقارون، فبعضها يقول: إن قارون ابن عم موسى عليه السلام، وممن قال بذلك ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)] ومجاهد[(٣)] وابن جريج، وقد ذكر الطبري أن أهل العلم من سلف الأمة ومن أهل الكتابين على هذا القول[(٤)]، وقال ابن إسحاق: هو عم موسى، شقيق أبيه[(٥)].

ويقص علينا القرآن الكريم قصته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ

---

(١) فتح الباري، (٦/ ٤٤٩).

(٢) ابن أبي حاتم الرازي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية - ط٣، ١٤١٩هـ (٩/ ٣٠٠٥)، وقد صحح ابن حجر سنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما، كما صحح رأي ابن عباس، (ابن حجر: فتح الباري، (٦/ ٤٤٨).

(٣) مجاهد: تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام، دار الفكر الإسلامي الحديثة - مصر - ط١ ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٥٣٣ .

(٤) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢٦٢)، تفسير الطبري، (١٨/ ٣٠٩).

(٥) المصدر السابق، (١/ ٢٦٢).

مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٧٦-٨٣][1].

ويروي المفسرون أنه كان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، إلا أنه نافق كما نافق السامري، فبغى على قومه بسبب ماله؛ كأن يكون تكبر أو تجبر أو استطال عليهم، فظلمهم إلى غير ذلك من أوجه البغي كما ذكر المفسرون[2]، وقد أعطاه الله من الكنوز ما يُثقل على العصبة أولي القوة من الرجال حمل مفاتيحه، وقد نصحه قومه بأن يحسن التعامل مع هذا الابتلاء الخيري؛ بألا يبطر ويفخر، وأن يسعى

(١) قال ابن عباس: الفرحين: المرحين، ويكأن الله: مثل ألم تر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ويوسع عليه ويضيق، (أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: إن قارون كان من قوم موسى، (٤/ ١٥٨).

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، (١/ ٢٦٢)، الرازي: مفاتيح الغيب، (٢٥/ ١٣، ١٤)، وابن كثير: البداية والنهاية (١/ ٣٤٨).

إلى الآخرة من خلال هذه الكنوز مع حقه في نصيبه في الدنيا، وأن يعكس إحسان الله إليه بإحسانه إلى الناس، كما حذره قومه من الفساد في الأرض بسبب ما أعطاه الله من المال؛ لأن الله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٧٧].

إلا أنه لم يسمع لما نُصح به ولم يتبعه، وظن أن الله إنما أعطاه هذا لعلمه ﷻ أنه يستحقه وأنه أهل له، ولولا أنه ﷻ يحبه وحظه عنده هذا لما أعطاه ما أعطاه.

لكن ألم يعلم قارون أن الله قد أهلك من الأمم - بذنوبهم وخطاياهم - من هو أشد منه قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، فلو كان ما قال صحيحًا لم يعاقب أحد ممَّن كان أكثر مالًا منه. ونفى ابن كثير ما روي من كونه كان عالمًا بالكيمياء، أو أنه كان يحفظ اسم الله الأعظم، فاستعمل هذا في جمع الأموال، وذكر أنه كان كافرًا في الباطن منافقًا في الظاهر[1]، وكانت النتيجة هي تطبيق القانون الإلهي عليه، فعوقب على جرمه وأخذ بذنبه، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[القصص:٨١].

عقابه ومن تبعه:

روى بعض المفسرين والمحدثين ما ذكره ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في عقاب قارون ومن معه، إذ قال: «لَمَّا أَتَى مُوسَى قَوْمَهُ أَمَرَهُمْ بِالزَّكَاةِ فَجَمَعَهُمْ قَارُونُ، فَقَالَ لَهُمْ: جَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَجَاءَكُمْ بِأَشْيَاءَ فَاحْتَمَلْتُمُوهَا فَتَحَمَّلُوا أَنْ تُعْطُوهُ أَمْوَالَكُمْ، فَقَالُوا: لَا نَحْتَمِلُ أَنْ نُعْطِيَهُ أَمْوَالَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَرَى أَنْ أُرْسِلَ إِلَى بَغِي بني إِسْرَائِيلَ فَنُرْسِلَهَا إِلَيْهِ، فَتَرْمِيَهُ بِأَنَّهُ أَرَادَهَا على نَفْسِهَا، فَدَعَا مُوسَى عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ أَنْ تُطِيعَهُ، فَقَالَ مُوسَى لِلأَرْضِ: خُذِيهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَعْقَابِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلأَرْضِ: خُذِيهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى

(١) البداية والنهاية: (١/ ٣٤٩).

رُكَبِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلأَرْضِ: خُذِيهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ إلى أَعْنَاقِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، فَقَالَ لِلأَرْضِ: خُذِيهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ فغَيَّبَتْهُمْ، فَأَوْحَى اللهُ إلى مُوسَى: يَا مُوسَى سَأَلَكَ عِبَادِي وَتَضَرَّعُوا إِلَيْكَ فَلَمْ تُجِبْهُمْ، وَعِزَّتِي لَوْ أَنَّهُمْ دَعَوْنِي لأَجَبْتُهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[القصص:٨١][1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه»، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ط١، ١٤٠٩هـ، (٦/ ٣٣٤/ ح:٣١٨٤٣)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٤٤٣/ ح:٣٥٣٦)، وصححه الحاكم والذهبي على شرط البخاري ومسلم، واللفظ للحاكم، وقد فصلت كثيرٌ من الروايات خبر ابن عباس ﷺ، ومن ذلك ما رواه مجاهد في تفسيره، قال: لَمَّا كَانَ الْغَدُ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عِنْدَ قَارُونَ جَاءَتِ الْمَرْأَةُ، فَقَالَتْ: إِنَّ قَارُونَ أَمَرَنِي أَقُولُ: إِنَّ مُوسَى رَاوَدَنِي عَنْ نَفْسِي، وَإِنَّ مُوسَى لَمْ يَقُلْ لِي ذَلِكَ، فَبَلَغَ مُوسَى قَوْلُهُ، وَهُوَ فِي الْمِحْرَابِ فَسَجَدَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ قَارُونَ قَدْ بَلَغَ مِنْ أَذَاهُ أَنْ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ يَا مُوسَى، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ الأَرْضَ أَنْ تُطِيعَكَ، وَقَدْ أَمَرْتُ السَّمَاءَ أَنْ تُطِيعَكَ، وَقَدْ أَمَرْتُ الْبِحَارَ أَنْ تُطِيعَكَ، فَأَتَى مُوسَى قَارُونَ وَهُوَ فِي غُرْفَةٍ لَهُ قَدْ ضَرَبَ عَلَيْهَا صَفَائِحَ الذَّهَبِ، فَقَالَ: يَا قَارُونُ، أَقُلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ ثم طلب من الأرض أن تأخذه، (تفسير مجاهد، ص٥٣٣)، وأخرج ابن أبي حاتم الرازي رواية ابن عباس، بسند صححه ابن حجر، قَالَ: «كَانَ مُوسَى يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِنَّ اللهَ ﷻ يَأْمُرُكُمْ بِكَذَا وَكَذَا حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ على قَارُونَ، فَقَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِنَّ مُوسَى يَزْعُمُ أَنَّ رَبَّهُ أَمَرَهُ فِيمَنْ زَنَى أَنْ يَرْجُمَهُ، فَتَعَالُوا نَجْعَلْ لِبَغِيٍّ مِنْ بني إِسْرَائِيلَ شَيْئًا، فَإِذَا قَالَ مُوسَى: إِنَّ رَبَّهُ أَمَرَ فِيمَنْ زَنَى أَنْ يُرْجَمَ، فَنَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهَا، قَالَ: فَاجْتَمَعُوا وَجَاءُوا بِالْبَغِيِّ فَحَبَسُوهَا، وَقَالَ مُوسَى: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ بِكَذَا وَكَذَا فِيمَنْ سَرَقَ أَنْ تُقْطَعَ يَدُهُ، قَالُوا: وَإِنْ كُنْتَ أَنْتَ؟ قَالَ: وَإِنْ كُنْتُ أَنَا، قَالُوا: مَا على الزَّانِي إِذَا زَنَي؟ قَالَ: الرَّجْمُ، قَالُوا: وَإِنْ كُنْتَ أَنْتَ؟ قَالَ: وَإِنْ كُنْتُ أَنَا، قَالُوا: فَإِنَّكَ قَدْ زَنَيْتَ، قَالَ: أَنَا؟ وَجَزِعَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَأَرْسَلُوا إلى الْمَرْأَةِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ عَظَّمَ عَلَيْهَا مُوسَى بِاللهِ وَسَأَلَهَا بِالذي فَلَقَ الْبَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ على مُوسَى إِلَّا صَدَقْتِ، فَقَالَتْ: أَمَا إِذَا حَلَّفْتَنِي فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ بَرِيءٌ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، وَقَالَتْ: أَرْسَلُوا إِلَيَّ فَأَعْطَوْنِي حُكْمِي على أَنْ أَرْمِيَكَ بِنَفْسِي، قَالَ: فَخَرَّ مُوسَى لِلَّهِ سَاجِدًا يَبْكِي، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَدْ أَمَرْتُ الأَرْضَ أَنْ تُطِيعَكَ فَأْمُرْهَا بِمَا شِئْتَ»، (ابن أبي حاتم الرازي: تفسير القرآن العظيم، (٩/ ٣٠٠٥)، وقد ذكرها ابن حجر وصحح سندها، فتح الباري، ٦/ ٤٤٩).

يوشع بن نون عليه السلام

يوشع بن نون هو فتى موسى عليه السلام الذي كان معه في لقائه مع الخضر عليه السلام، وهو - أيضًا - الذي خلّفه موسى في بني إسرائيل عند موته، وقد ذُكِر في القرآن الكريم إشارة دون اسم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[الكهف: ٦٠]، لكن النَّبيّ ﷺ ذكر لنا اسمه، وأنه هو الذي كان مع موسى في لقائه مع الخضر عليه السلام، إذ قال ﷺ في ذكر خبر لقاء موسى بالخضر: «**وَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ ابْنُ نُونٍ...**»[١].

وقد ذكر بعض المؤرخين اتصال نسب يوشع بن نون إلى يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، وأنه ابن عم هود عليه السلام[٢].

نبوة يوشع بن نون:

نقل ابن كثير عن أهل الكتاب قولهم: إن يوشع بن نون مُتَّفَقٌ على نُبُوَّتِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ[٣].

كما تبينت نبوته من خبرين عن النَّبيّ ﷺ في دخوله ببني إسرائيل الأرض المقدسة، **الخبر الأول**: يقول ﷺ: «**غَزَا نبي مِنَ الأنبياء....**» إلى قوله ﷺ بعد طلب هذا النَّبيّ حبس الشمس حتى يتم الفتح: «**فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ**»[٤]،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: حديث الخضر مع موسى، (٤/ ١٥٤/ ح: ٣٤٠١)، واللفظ له، ومسلم في «صحيحه»، باب: من فضائل الخضر، (٤/ ١٨٤٧-١٨٥٠/ ح: ٢٣٨٠).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٢٢٧).

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»، (٤/ ٨٦)، ومسلم في «صحيحه» (٣/ ١٣٦٦)، رواه أبو هريرة.

الخبر الثاني قال ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ على بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ، لَيَالِيَ سَارَ إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»[1]، وقد روى محمد بن إسحاق أن النبوة حُوِّلت من موسى إلى يوشع في الفترة الأخيرة من حياة موسى، وتناقل ذلك عدد من الرواة والمفسرين، لكن هذا لا يصح، ولا يقبل دينًا ولا منطقًا، وقد نقده عدد من المفسرين والمؤرخين، ومنهم ابن كثير، حيث قال: «وَأَمَّا مَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، مِنْ أَنَّ النُّبُوَّةَ حُوِّلَتْ مِنْ مُوسَى إلى يُوشَعَ في آخِرِ عُمْرِ مُوسَى، فَكَانَ مُوسَى يَلْقَى يُوشَعَ، فَيَسْأَلُهُ مَا أَحْدَثَ اللهُ إِلَيْهِ مِنَ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، حَتَّى قَالَ لَهُ: يَا كَلِيمَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ لَا أَسْأَلُكَ عَمَّا يُوحِي اللهُ إِلَيْكَ، حَتَّى تُخْبِرَنِي أَنْتَ ابْتِدَاءً مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ كَرِهَ مُوسَى الْحَيَاةَ، وَأَحَبَّ الْمَوْتَ. ففي هَذَا نَظَرٌ؛ لأَنَّ مُوسَى عليه السلام لَمْ يَزَلِ الأَمْرُ، وَالْوَحْيُ، وَالتَّشْرِيعُ، وَالْكَلَامُ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ﷻ وَلَمْ يَزَلْ مُعَزَّزًا، مُكَرَّمًا، مُدَلَّلًا، وَجِيهًا عِنْدَ اللهِ»[2].

دخول الأرض المقدسة:

أما عن دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة، التي نكصوا عن دخولها في عهد موسى عليه السلام، فحرمها الله عليهم أربعين سنة، فقد دخلوها مع خليفة موسى وهو يوشع بن نون. وقد أخبرنا النَّبيّ ﷺ عن خبر دخولهم لها، فقال ﷺ: «غَزَا نبيٌّ مِنَ الأنبياء، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا؟ وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلادَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أَوْ قريبًا مِنْ ذَلِكَ،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٤/ ٦٥/ ح:٨٣١٥)، قال المحققون: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) البداية والنهاية، (٢/ ٢٢٧، ٢٢٨).

فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ - يَعْنِي: النَّارَ لِتَأْكُلَهَا - فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ، فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الغَنَائِمَ، رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا»[1]، وقد أخبرنا النبيّ ﷺ أن يوشع بن نون هو الذي دخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة، إذ قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ على بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ**»[2]، كما أكد قوله ﷺ السابق نبوة يوشع بن نون، ففي النص الأول ذكره بصفته، وفي النص الأخير ذكره باسمه.

عصيانهم أوامر ربهم عند دخولهم الأرض المقدسة:

بعد إتمام فتح بيت المقدس، أمر الله بني إسرائيل بدخولها وهم راكعون؛ إظهارًا لفضل الله عليهم، وطلبًا لحطِّ ذنوبهم السابقة، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[البقرة:٥٨، ٥٩].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»، (٤/ ٨٦/ ح:٣١٢٤)، ومسلم في «صحيحه»، دار إحياء التراث، (٣/ ١٣٦٦)، رواه أبو هريرة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٤/ ٦٥/ ح:٨٣١٥)، قال المحققون: إسناده صحيح على شرط البخاري، رواه أبو هريرة.

فقد أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا رُكَّعًا، فأَصْلُ السُّجُودِ الِانْحِنَاءُ[1]، ويقولوا: حِطَّةٌ أَيْ: اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا في تَرْكِنَا الْجِهَادَ وَنُكُولِنَا عَنْهُ، حَتَّى تُهْنَا في التِّيهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً[2] لكنهم كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**بَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ على أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ في شَعْرَةٍ**»[3]، فغيروا الفعل وبدلوا القول، ليس إلا للعودة إلى طبائعهم في التمرد والعصيان، حتى وإن كان في مقام النعم، فهذا التغيير وذاك التبديل لا معنى لهما، فالفعل غريب والقول عجيب، لا معنى له.

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١/ ٧١٤).

(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٤٧).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، (٤/ ١٥٦/ ح:٣٤٠٣)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب التفسير، (٤/ ٢٣١٢/ ح:٣٠١٥).

موسى والخضر عليهما السلام

يُعد لقاء موسى والخضر، وتعلم موسى من الخضر عليهما السلام بعضًا من العلم اللَّدنِّي أحد المراحل المهمة في حياة موسى الكليم عليه السلام وهذه المرحلة تنضوي على معاني جليلة وحكم بالغة مستوحاةٌ من صلة هذه المرحلة بإحدى صفات الله صلة وثيقة، وهي صفة العلم ؛ فهذا العبد الصالح ـ الخضر[1] ـ قد عُلِّمَ من علم الله، وعُلِّم ما لم يتعلمه موسى الكليم.

ومرحلة اتصال موسى بالعبد الصالح لتعليمه من هذا العلم الإلهي مرحلة مثيرة، لها من المعاني والدلالات ما يستوقف العقول قبل أن يُعلمها ما لم تسطع عليه صبرًا؛ إذ لا مقارنة بين علم الإنسان وعلم الخالق، وقد قص الله ﷻ علينا نبأ موسى والخضر عليهما السلام في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ

(١) أما عن سبب تسميته الخضر؛ فقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء» أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ: حَدِيثِ الخَضِرِ مَعَ مُوسَى عليهما السلام، (٤/ ١٥٦/ ح:٣٤٠٢)، والحديث رواه أبو هريرة .

جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

[الكهف: ٦٠-٨٢].

ولقد ذكر لنا النَّبيُّ ﷺ هذه القصة بتفصيل وافٍ، إذ قال ﷺ: **«إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: بَلَى، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: أَيْ رَبِّ وَمَنْ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حُوتًا، فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، حَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، وَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَى وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فَخَرَجَ، فَسَقَطَ فِي البَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَقَالَ: هَكَذَا مِثْلُ الطَّاقِ، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى**

النَّصَبَ حتَّى جَاوزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلَهُمَا عَجَبًا، قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ مُوسَى فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بني إِسْرَائِيلَ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا، قَالَ: يَا مُوسَى، إِنِّي على عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ على عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعْلَمُهُ، قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ؟ قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿إِمْرًا﴾ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ على سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا في السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ على حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ في البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ لَهُ الخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ، إِذْ أَخَذَ الفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحًا، قَالَ: فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالقَدُّومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَا صَنَعْتَ؟! قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا، قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾، فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ البَحْرِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن

يَنقَضَّ﴾، مَائِلًا، قَالَ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا، عَمَدْتَ إِلى حَائِطِهِمْ، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبرَ فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا[1].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، (٤/ ١٥٤/ ح:٣٤٠١)، واللفظ له، ومسلم في «صحيحه»، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، (٤/ ١٨٤٧- ١٨٥٠/ ح:٢٣٨٠).

داود عليه السلام

ينسب داود عليه السلام إلى يعقوب بن إبراهيم عليهما السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[الأنعام:٨٤]، وداود عليه السلام هو أحد الأنبياء الذين جمع الله لهم النبوة والملك، وهذا أمر كان معتادًا في أنبياء بني إسرائيل، الذين ينتمي إليهم النبيَّان داود وابنه سليمان عليهما السلام، كما جاء في قول النَّبيّ ﷺ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأنبياء، كُلَّمَا هَلَكَ نبيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ**»[١].

بنو إسرائيل زمن داود عليه السلام:

بعد موت يوشع بن نون عليه السلام، دخل بنو إسرائيل فيما سمي بـ: عصر القضاة، والذي استمر قرابة قرن ونصف، وهو عصر تفكك وفوضى، وفي أخريات هذا العصر حدثت معارك بين بني إسرائيل والفلسطينيين، وكانت الغلبة دائمًا -تقريبًا- للفلسطينيين، ومن المعارك المشهورة في ذلك معركة «أفيق»، وكان الفلسطينيون بقيادة جالوت، وبعد هذه المعركة تم فرض الجزية على الإسرائيليين[٢]، لكن في نهاية هذا العصر تمكن الإسرائيليون بقيادة «طالوت»، الذي بعثه الله ملكًا عليهم - والدور الكبير لداود عليه السلام - من هزيمة الفلسطينيين، وتم تكوين الملكية الإسرائيلية على يد الملك «طالوت» الذي كان يعرف بـ: «شاؤول».

وفي تفصيل ذلك: إنه كان لبني إسرائيل نبي يقال له: شَمْوِيلُ بْن بَالِى الذي

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٤/ ١٦٩/ ح:٣٤٥٥)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الإمارة، باب: الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، (٣/ ١٤٧١/ ح:١٨٤٢).

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (٤/ ٤٤١)، ويسمى السُّدِّيُّ وغيره الفلسطينيين بـ: «الْعَمَالِقَة».

ينتهي نسبه إلى لَاوِي بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وذكر وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ أنه شَمْوِيلُ، ولم ينسبه[1]. وَقَالَ السُّدِّيُّ ومُجاهِد: اسْمُهُ شمعون[2].

وروي عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أنه قَالَ: كان يُوشَعُ بْنُ نُونٍ بَعْدَ مُوسَى في بني إِسْرَائِيلَ، يُقِيمُ فِيهِمُ التَّوْرَاةَ وَأَمْرَ اللهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ، ثُمَّ خَلَفَ فِيهِمُ الخلوف، وَعَظُمَتْ في بني إِسْرَائِيلَ الأَحْدَاثُ، وَنَسَوْا مَا كَانَ مِنْ عَهْدِ اللهِ إِلَيْهِمْ، حَتَّى نَصَبُوا الأَوْثَانَ وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ؛ فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ إِلْيَاسَ بْنَ يَس، الذي ينتسب لِهَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ نبيًّا. وَكَانَ سَائِرُ بني إِسْرَائِيلَ قَدِ اتَّخَذُوا صَنَمًا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، وكان إِلْيَاسُ يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ، وهم لَا يَسْمَعُونَ مِنْهُ شَيْئًا، ثم تتابعت الأحداث حتى هزموا من عدوهم هزيمة نكراء، حيث أُصِيبَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، واستلب التَّابُوتُ من بين أيديهم، عندئذ كَلَّمُوا نَبِيَّهُمْ شمويل بْنَ بَالِي، فَقَالُوا: ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ في سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عِنْدَكُمْ وَفَاءٌ وَلَا صِدْقٌ وَلَا رَغْبَةٌ في الْجِهَادِ، فذكروا أنهم كانوا على ذلك لما كانوا مَمْنُوعِينَ في بِلَاد لَا يَطَؤُهَا أَحَدٌ، أما بعد ما حدث لهم فَإِنَّهُم لا بُدَّ لهم مِنَ الْجِهَادِ للدفاع عن أَبْنَائِهِم، وَنِسَائهم، وَذَرَارِيهم[3]، فسأل نَبِيُّهُمْ شمويل الله أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ مَلِكًا، فبعث الله لهم طالوت ملكًا، ويقال: إن اسمه بِالسُّرْيَانِيَّةِ: شَاوُلَ، فقال لهم نبيهم قَدْ أَعْطَاكُمْ الله مَا سَأَلْتُمْ، وَبَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا؛ فقَالُوا: أَنَّى يَكُونُ لِطَالُوتَ الْمُلْكُ عَلَيْنَا، وَهُوَ مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ بْنِ يَعْقُوبَ، وَسِبْطُ بِنْيَامِينَ سِبْطٌ لَا مُلْكَ فِيهِمْ وَلَا نُبُوَّةَ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ؛ لِأَنَّا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا بْنِ يَعْقُوب: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ

(١) الطبري: تفسير الطبري، (٤/ ٤٣٥).

(٢) المرجع السابق، (٤/ ٤٣٦).

(٣) المرجع السابق، (٤/ ٤٣٧).

ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٤٧][1]، وعين لهم نبيهم آية ملكه عليهم؛ وهو أن يأتيهم التابوت الذي أخذه عدوهم منهم من قبل[2]، فيه «سكينة»، أي: آيات يعرفونها تسكن إليها النفس[3]، وهذا التابوت ـ كما روى ابن عباس ـ كان به بقية الألواح التي نزلت على موسى، حيث كان قد أَلْقَى الأَلْوَاحَ فتكَسَّرَتْ، فَجمَعَ مَا بقي منها في ذَلِكَ التَّابُوتِ، فسبته منهم العماليق، وهم فرقة من عاد ـ كما تقول الرواية ـ كانوا بأريحاء، فجَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ بِالتَّابُوتِ تَحْمِلُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إلى التَّابُوتِ حَتَّى وَضَعَتْهُ عِنْدَ طَالُوتَ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ سَلَّمُوا لَهُ وَمَلَّكُوهُ[4].

ففصل طالوت بالجنود، ـ وكانوا كثيرين ـ قدروا بثمانين ألفًا، وأعلمهم أن الله مختبرهم بنهر، قيل: بين الأردن وفلسطين، أو نهر فلسطين، فمن شرب منه فليس من أهل الطاعة والولاية، إلا ما استثنى من ذلك، ومن لم يشرب منه فإنه من ذلك، فشرب أغلب الجيش منه، ولم يبقَ معه إلا قليل[5]، لكن كثير من هذا القليل نكصوا على أعقابهم وجبنوا عن قتال جالوت وجنوده، ودار حوار بينهم

(١) يروى أنه كان سَقَّاءً، وقيل كان دباغًا، (الطبري: تفسير الطبري، ٤/ ٤٤٨).

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (٤/ ٤٦٣).

(٣) المرجع السابق، (٤/ ٤٧١)، وأورد روايات كثيرة في معنى «السكينة»، لكنها أبعد عن القبول، ولم تصح فيها رواية، وقد رجح هو ما ذكر آنفًا، (السابق ص٤٦٧ ـ ٤٧١).

(٤) المرجع السابق، (٤/ ٤٦٣)، وقيل: كَانَ مُوسَى خَلَّفَهُ عِنْدَ فَتَاهُ يُوشَعَ، وَهُوَ بِالْبَرِيَّةِ فَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى وَضَعَتْهُ في دَارِ طَالُوتَ، (السابق، ٤/ ٤٦٣)، لكن الطبري رجح رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا السابقة، وهي رواية وهب بن منبه أيضًا .

(٥) المرجع السابق، (٤/ ٤٨٢ ـ ٤٨٩)، بإيجاز .

وبين القلة المؤمنة الباقية على عهدها وعزمها - كما أخبر القرآن الكريم، انتهى ببقاء هؤلاء القلة فقط مع طالوت.

وقاتل الإسرائيليون بقيادة طالوت الفلسطينيين بقيادة جالوت، وكان عدد الإسرائيليين كعدد المسلمين في وقعة بدر، كما قال البراء بن عازب: «إِنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ على عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ»(١).

وقد شهدت هذه المعركة بروز بطولة فئة تمثلت في داود عليه السلام، الذي تصدى لمبارزة قائد جيش العدو «جالوت» لما طلب المبارزة وقتله، وكانت هذه بداية معرفة بني إسرائيل لداود عليه السلام وبطولته، وميلهم إليه وتفضيله على ملكهم «طالوت»؛ فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود، وكان داود لابسًا درع موسى، فكانت هذه الموقعة بداية فتح له، وآتاه الله الملك والحكمة، وأحب داود صناعة الدروع؛ لأنها كانت بداية فتح(٢).

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن هذه الأحداث في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: المغازي، باب: عدة أصحاب بدر، (٥/ ٧٣/ ح:٣٩٥٨).
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٣٩٤)، والشعراوي: قصص الأنبياء، (٤/ ٢١٩٢-٢١٩٣).

لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[البقرة:٢٤٣-٢٥١].

مرحلة النبوة والملك:

كما أنف الذكر، فقد كان من نتائج هذه المعركة ظهور بطولة داود عليه السلام وقتله جالوت، وكان هذا بداية تحوُّل كبير في حياة داود؛ فعلى المستوى الدنيوي، مال الناس إلى داود حتى ولُّوه عليهم ملكًا، وعلى المستوى الديني توافق هذا مع موعد نبوته من قبل الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٥١].

أولًا: النبوة:

أوحى الله إلى داود وجعله نبيًّا، وآتاه كتابًا، مثل كثير من الرسل، وهو الزبور، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[النساء:١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[الإسراء:٥٥].

ثانيًا: المُلْك والخلافة في الأرض:

كذلك منح الله داود الملك، من جملة منحه وعطاياه له: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[البقرة:٢٥١]، وجعله تعالى خليفة في الأرض؛ ليحكم بين الناس بالحق: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[سورة ص:٢٦].

تناغم المخلوقات والكائنات مع داود عليه السلام:

من نعم الله وعطاياه على نبيه داود أن منحه ما لم يمنحه كثيرًا من عباده، بل كثيرًا من أنبيَّائه، ويُعد من المنح الفريدة في تاريخ الإنسانية، كما يُعد من عجائب

قدرة الله في خلقه وفي كونه، وهذا التناغم البديع الذي كان يحدثه جمال صوت النَّبيّ داود عليه السلام وعظم خشوعه، حين ينطلق بقراءة الزبور أو تسبيح الله، فتجيبه الجبال التي تهبط من خشية الله، والتي دكت مِنْ تجلي الله عليها أيام موسى، والتي اهتزت فرحًا عندما كان عليها محمد ﷺ وبعض أصحابه، فهي تفعل دورًا مماثلًا مع نبي الله داود، تسمع له وتسبح معه ربها، وكذلك الطير، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء:٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[سورة ص:١٧-٢٠].

وقد روى وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ أنه: «لَمْ يُعْطِ اللهُ - فِيمَا يَذْكُرُونَ - أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ مِثْلَ صَوْتِهِ؛ كَانَ إِذَا قَرَأَ الزَّبُورَ - فِيمَا يَذْكُرُونَ - تَدْنُو لَهُ الْوحُوشُ حَتَّى يَأْخُذَ بِأَعْنَاقِهَا، وَإِنَّهَا لَمُصِيخَةٌ - مُنْصِتة - تَسْمَعُ لِصَوْتِهِ»[1].

وقد دلنا قول النَّبيّ ﷺ لبعض أصحابه على جمال صوت داود عليه السلام، فكان يستمع ﷺ لأبي موسى الأشعريّ، فقال له ذات مرة: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[2].

---

(١) الطبري، تفسير الطبري، (٢٠/ ٧١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: فضائل القرآن، باب: حسن الصوت بالقراءة بالقرآن، (٦/ ١٩٥/ ح:٥٠٤٨)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن، (١/ ٥٤٦/ ح:٧٩٣)، واللفظ لمسلم.

وهذا لا ينفي كون صوت النَّبيِّ ﷺ، أفضل صوت، لا سيما إذا قرأ القرآن، وقد قال البَرَاءُ رضي الله عنه: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقْرَأُ: «وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ» في العِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ أَوْ قِرَاءَةً[1].

عمله وكسبه عليه السلام:

على الرغم من أن داود عليه السلام كان نبيًّا وملِكًا وخليفة الله في أرضه، إلا أنه كان يعمل بيده، ويأكل كسبه، ليضرب الله به مثلًا للإنسانية في التواضع والبساطة والكد والتعب والتكسب حلالًا طيبًا، وامتهان أبسط المهن، والاشتغال بأقل الأعمال، طالما أن ذلك لا ينال من دينه أو خلقه، أو ينفر الناس منه، لأنه نبي؛ وقد أخبرنا النَّبيُّ ﷺ بذلك، إذ قال: **«مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نبيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»**[2].

أما أهم ما كان يعمله عليه السلام، فيمكن ذكره في الآتي:

- رعي الغنم: وذلك على اعتبار دخوله في قول النَّبيِّ ﷺ: **«مَا بَعَثَ اللهُ نبيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»**، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: **«نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا على قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»**[3]، ويدلنا حديث النبي ﷺ عنه أنه كان له دواب أيضًا، حيث قال ﷺ: **«خُفِّفَ على دَاوُدَ عليه السلام القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»**[4].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: القراء في العشاء، (١/ ١٥٣/ ح:٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، (٣/ ٥٧/ ح:٢٠٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط، (٣/ ٨٨/ ح:٢٢٦٢)، والحديث رواه أبو هريرة.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾، (٤/ ١٦٠/ ح:٣٤١٧)، رواه أبو هريرة . ويذكر ابن كثير أن المراد بالقرآن ههنا «الزبور» الذي أنزل عليه، البداية والنهاية، (١/ ٣٩٦)

- **صناعة آلات الحرب:** وهب الله داود عليه السلام القدرة على تشكيل الحديد كيفما شاء، ومن ذلك صناعة دروع ذات نسيج معين، تحمي من يرتديها في أثناء القتال، وهي صنعة علمه الله إيَّاها[1]، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[الأنبياء:٨٠].

واللبوس في العموم هو ما يُلبس، والمقصود منه في الآية السابقة: الدرع التي تُلبس في الحروب[2]، وقيل: هو ما يقي به الإنسان منطقة الرأس «الخوذة» ومنطقة الصدر والوجه «الدرع الواقي»، وهو ما كان يصنعه داود عليه السلام؛ من دروع بحلقات تقى الجسم من الضربات[3]، وقد ألان الله له الحديد حتى كان يفتله بيده، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة، وكان داود عليه السلام يصنع هذه الدروع ويبيعها ويرتزق منها، كما يذكر المؤرخون[4].

تقسيم وقته بين عبادته وعمله:

كان داود عليه السلام - كما روى ابن عباس وغيره - يقسم وقته أربعة أجزاء: يومًا للعبادة، ويومًا للقضاء، ويومًا للاشتغال بخاصة نفسه، ويومًا لجميع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم[5].

---

(١) الشعراوي: تفسير الشعراوي، (٤/ ١٢٩٣).

(٢) الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطار، دار العلم للملايين - بيروت - ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (٣/ ٩٧٤)، والرازي: مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٧٨، وابن منظور: لسان العرب، دار صادر - بيروت - ط٣، ١٤١٤هـ (٦/ ٢٠٣).

(٣) الشعراوي: تفسير الشعراوي، (٤/ ٢٢٠٢).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٣٩٤).

(٥) الطبري: تفسير الطبري، (٢٠/ ٦٦)، وأبو السعود: تفسير أبي السعود، (٧/ ٢٣٠)، والآلوسي: روح المعاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١، ١٤١٥هـ (١٢/ ١٧١).

عبادتــه:

وصف رسول الله ﷺ عبادة داود عليه السلام من صلاة وصيام وقيام، وهي أحب ما تكون إلى الله ﷻ، فقال ﷺ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إلى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إلى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ»[1]، وقد أوصى ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بصوم داود، فقال له: «فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نبيِّ اللهِ عليه السلام، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ»، فقَالَ: يا نبيَّ اللهِ، وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟ قَالَ: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[2]، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ دَاوُدَ قَالَ: «كَانَ أَعْبَدَ البَشَرِ»[3] أي: في زمانه.

شبهات وأباطيل:

هناك قصة عن داود عليه السلام في «صموئيل الثاني» يبدو أن بعض الرواة الإخباريين تأثروا بها، فأقحموها في قصة داود في الرواية الإسلامية، وتناقلها بعض المفسرين والمؤرخين والمحدثين وغيرهم، بشكل لا يصح مع علمهم، ولا يتسق مع منهجهم، وإن كانت في تلك الروايات الأخيرة أخف وطأة منها في «صموئيل الثاني»، لكن هذا القدر ـ أيضًا ـ لا يخرجها عن كونها اتهام لنبي الله في دينه وخلقه، هذا النَّبيّ الذي آتاه الله الملك والحكمة وجعله خليفة له في الأرض؛ ليقيم فيها العدل، ويحكم بين الناس بالحق، وقد عدل وحكم، وهو العابد الناسك، الذي قال عنه نبينا ﷺ «كان أعبد البشر» كما أنف الذكر .

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، (٤/ ١٦١/ ح:٣٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوت به حقًا، أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم، وإفطار يوم، (٢/ ٨١٣/ ح:١١٥٩).

(٣) البخاري: التاريخ الكبير، (١/ ٨٩/ ح:٢٤٨).

القصة في المصادر العربية:

خلاصة القصة في المصادر العربية هي أن داود عليه السلام كان له تسع وتسعون امرأة، ورأى ذات يوم امرأة جميلة تغتسل، مرسلة الشعر جميلة الجسم، فوقعت في قلبه، فسأل عن زوجها، فعلم أنه في الجيش يحارب، فأمر بأن يُرسل إلى مكان لا يرجى منه الرجوع، ففعل به فمات، فتزوج داود هذه المرأة؛ فجاءه ملكان في هيئة رجلين، فمنعهما الحرس؛ لأنه كان يوم عبادته، فتسوروا المحراب، ففزع منهم، فأعلماه أنهما أتيا يحتكمان إليه في أمر، وهو أن لأحدهما تسعًا وتسعين نعجة، وللآخر نعجة واحدة، فطلب الأول من الآخر أن يأخذ نعجته ويكفلها له، فظن داود أنه فتن بالمرأة، فسجد أربعين يومًا وتاب وبكى حتى نبتت الخضرة من دموع عينيه[1]، بل إن قتادة قال: بلغنا أنها أُمّ سليمان[2]، وقد ربط هؤلاء وغيرهم تلك المزاعم والافتراءات بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص: ٢١-٢٥].

أما ابن كثير فقال عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: «ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها

---

(١) الطبري: تفسير الطبري، (٢٠/ ٦٤، ٦٦، ٦٩).

(٢) المرجع السابق، (٢٠/ ٦٩).

ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيراده في كتابنا قصدًا اكتفاءً واقتصارًا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم»[1].

عمر داود عليه السلام:

صح أن آدم عليه السلام طلب من الله أن يزيد في عمر داود عليه السلام أربعين سنة، دون ذكر لمدة عمر آدم، حيث قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على آدَمَ فَقَالَ: أي رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أي رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ، كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أي رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِّيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[2].

وقد روى أبو هُرَيْرة نبأ وفاته، فذكر عن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «كَانَ دَاوُدُ النَّبيّ فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ فَلَمْ يَدْخُلْ على أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ»، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ، وَأغْلِقَتِ الدَّارُ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ تَطَّلِعُ إلى الدَّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَتْ لِمَنْ في الْبَيْتِ: مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ الدَّارَ، وَالدَّارُ مُغْلَقَةٌ؟! وَاللهِ لَتُفْتَضَحُنَّ بِدَاوُدَ، فَجَاءَ دَاوُدُ فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ،

---

(١) البداية والنهاية: (١/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه»، دار إحياء التراث العربي، (٥/ ٢٦٧/ ح:٣٠٧٦)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٣٥٤/ ح:٣٢٥٧)، صححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم.

فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الذي لا أَهَابُ الْمُلُوكَ، وَلا يَمْتَنِعُ مِنِّي الْحُجَّابُ، فَقَالَ دَاوُدُ: أَنْتَ وَاللهِ إِذَنْ مَلَكُ الْمَوْتِ، مَرْحَبًا بِأَمْرِ اللهِ، فَرَمَلَ دَاوُدُ مَكَانَهُ حَيْثُ قُبِضَتْ رُوحُهُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِلطَّيْرِ: أَظِلِّي على دَاوُدَ، فَأَظَلَّتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَتَّى أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ، فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ: اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا»[1].

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٥/ ٢٥٤/ ح:٩٤٣٢)، قال المحققون: إسناده ضعيف لانقطاعه، فإن المطلب ـ وهو ابن عبد الله بن حنطب ـ لم يسمع من أبي هريرة كما قال البخاري في «التاريخ الأوسط»، (١/ ١٧)، وأبو حاتم في «المراسيل» لابنه، ص ٢٠٩، وباقي رجاله ثقات، رجال الشيخين، في حين قال ابن كثير: «انفرد بإخراجه الإمام أحمد، وإسناده جيد»، البداية والنهاية، (٢/ ٣٢٠).

قصة لقمان الحكيم عليه السلام

اختلف الرواة في الكثير مما يخص لقمان الحكيم عليه السلام، فقال ابن عباس ومجاهد: كَانَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ عَبْدًا حَبَشِيًّا[1]، وروى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أنه مِنْ سُودَانِ مِصْرَ[2]، وقَالَ السُّهَيْلِيُّ: كَانَ نُوبِيًّا مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ[3]، وقد ذكر ابن حجر كل هذه الأقوال[4].

ولقمان رجل حكيم وصف بصفات الحكمة والقول السديد والفهم والزهد والورع، وما يتصف به حكماء وصلحاء النَّاس، وقد أعلمنا الله ﷻ أنه آتى لقمان الحكمة، وهذا يعطينا بيانًا جليًا ومؤكدًا على ما كان عليه لقمان من حسن الفعال وجميل الخصال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[لقمان:١٢]، وروي أنه كان نبيًّا، لكن هذا القول ضعيف جدًّا لأنه لم يثبت بقرآن ولا سنة صحيحة، فضلًا عن قلة من قال بذلك وضعف قولهم، ومنهم عكرمة[5]، والسديُّ والشعبي[6]، وروى البعض أن عكرمة تفرد بذلك، وأن الراوي عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جدًّا[7].

(١) أخرجه أحمد في «الزهد»، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٤٨، والطبري: التفسير، (١٨/ ٥٤٧)، ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/ ٥).

(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٣/ ٥).

(٣) المرجع السابق، (٣/ ٥).

(٤) فتح الباري، (٦/ ٤٦٦)

(٥) الطبري: تفسير الطبري، (١٨/ ٥٤٩).

(٦) الشوكاني: فتح القدير: دار ابن كثير، دمشق، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ (٤/ ٢٧٣).

(٧) ابن حجر: فتح الباري، (٦/ ٤٦٦)، والشوكاني: فتح القدير، (٤/ ٢٧٣).

عمـــله:

ورد في عمل لقمان عدة أقوال، منها قول مجاهد: أنه كان قَاضِيًا على بني إِسْرَائِيلَ[1]، وقول ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان نَجَّارًا[2]، وقول سعيد بن المسيب أنه كان خياطًا[3].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان:١٢-١٩].

روى الطبري في قوله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أنه الْفِقْهُ وَالْعَقْلُ وَالْإِصَابَةُ فِي الْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ نُبُوَّةٍ، وأنه كَانَ رَجُلًا صَالِحًا[4].

---

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٨/ ٥٤٧)، أبو السعود: تفسير أبو السعود، دار إحياء التراث - بيروت - بدون، (٧/ ٧١)، وابن كثير: البداية والنهاية، (٣/ ٥).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد»، ص٤٤، وابن كثير: البداية والنهاية، (٣/ ٥).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد»، ص٤٣ .

(٤) تفسير الطبري، (١٨/ ٥٤٦) .

زمنه:

قال أنس بن مالك عند قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]: إن لقمان كان عند داود و هو يسرد الدرع، فجعل يفتله هكذا بيده، فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته أن يسأله، فلما فرغ منها صبها على نفسه، فقال: نعم درع الحرب هذه، فقال لقمان: الصمت من الحكمة وقليل فاعله، كنت أردت أن أسألك، فسكت حتى كفيتني[1]، قال ابن حجر بعد ذكره هذا الخبر: وهذا صريح في أنه عاصر داود عليه السلام وهو الصحيح[2]، وهذا أقوى ما ورد في زمن لقمان الحكيم.

وروى وهب بن منبه في «المبتدأ» أنه كان ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته، وأنه من أولاد آزر[3]، وذكره ابن الجوزي في «التلقيح» بعد إبراهيم وقبل إسماعيل وإسحاق، وزعم الواقديُّ أنه كان بين عيسى ونبينا عليهما السلام[4].

من حكم لقمان وأقواله ووصاياه:

مما نسب إلى لقمان من الأقوال والحكم، فضلًا عما حكاه القرآن الكريم:

- أحِبَّ خليلك وخليل أبيك[5].
- وقيل للقمان: أيُّ الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه النَّاس مسيئًا[6].

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، باب تفسير سورة سبأ، (٢/ ٤٥٨/ ح:٣٥٨٢)، صححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم، رواه أنس بن مالك، وأبو السعود: التفسير، (٧/ ٧١).
(٢) فتح الباري، (٦/ ٤٦٦).
(٣) ابن حجر: فتح الباري، (٦/ ٤٦٦)، وأبو السعود: التفسير، (٧/ ٧١).
(٤) ابن حجر: فتح الباري، (٦/ ٤٦٦).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد»، ص٤٤.
(٦) المرجع السابق نفسه.

ـ قال لقمان لابنه: يا بنيَّ ما ندمت على الصمت قط، وإن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب[1].

ـ وذات مرة قال له سيده: اذبح لي شاة، فذبح له شاة، فقال له: ائتيني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب؛ فقال: أما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ قال: لا، فسكت عنه ثم قال له: اذبح لي شاة، فذبح له شاة، فقال له: ألقِ أخبث مضغتين، فرمى باللسان والقلب، فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبث مضغتين فألقيت اللسان والقلب، فقال: إنه ليس شيء بأطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا[2].

(١) أخرج أحمد في «الزهد»، ص٤٤.
(٢) السابق نفسه، وأبو السعود: التفسير، (٧/ ٧١).

سليمان عليه السلام

هو سليمان بن داود عليهما السلام، فهو نبي ابن نبي، وهبه الله لأبيه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[سورة ص:٣٠]، وورَّثه إيَّاه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[النمل:١٦]، في نبوته وفي ملكه؛ لأن الأنبياء لا يورثون مالًا، كما قال ﷺ «لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[1]، وكما قَالَ ﷺ أيضًا: «لا يَقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي، وَمَئُونَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ»[2]، كما قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصديق للسيدة فاطمة بنت النبي ﷺ عندما سألته عن ميراث أبيها بعد وفاته ﷺ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[3].

علم سليمان عليه السلام وحكمته:

مما مَنَّ الله به على سليمان عليه السلام العلم والحكمة والفطنة ومقتضيات تلك المعاني الجليلة، بل إن علمه كان مميزًا عن غيره ومتفردًا بين البشر في زمانه، بل ومن بعده، وهو علم كان معيارًا لِمُلك وُصِف بذلك، مُلك لم يتملكه أحد من بعده، إذا استثنينا ما أنعم الله به على نبينا محمد ﷺ، حيث استجاب الله دعوته عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[سورة ص:٣٥]، وكان ذلك منذ صغره وفي حياة أبيه، كما سيأتي في حكمه بين صاحب الحرث وصاحب الغنم.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، كتاب: «فرض الخمس»، (٤/ ٧٩/ ح:٣٠٩٣)، رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: نفقة القيم للوقف، (٤/ ١/ ح:٢٧٧٦)، رواه أبو هريرة.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»، كتاب: الزهد، (٤/ ٧٩/ ح:٣٠٩٣)، رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ومن دلالات علمه وحكمته ما يأتي:

أولًا: علمه بمنطق ولغات الجن والطير والحشرات وقوى أخرى:

مَنَّ الله على سليمان عليه السلام بأن علمه منطق ولغة بعض الكائنات الأخرى؛ مثل: الجن والطير والحشرات، بل كان يحكمها، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[النمل:١٦]، والحشرات كما رأينا مع النملة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٨، ١٩]، وكذلك التعامل مع قوى خارقة، مثل الريح التي سخرها الله له، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة ص:٣٦].

ثانيًا: الحكم بين صاحب الحرث وصاحب الغنم:

روى ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما أن رجلين احتكما إلى داود في أن غنم أحدهما دخلت حرث الآخر ـ أو كرمه كما جاء في الرواية ـ فأفسدته وأكلت ما به من عناقيد، فقضى داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم الآخر، فرأى سليمان، رأيًا أرفق، وعرضه على داود عليه السلام، وهو أن «يُدْفَعَ الْكَرْمُ إلى صَاحِبِ الْغَنَمِ فَيَقُومَ عَلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، وَتُدْفَعَ الْغَنَمُ إلى صَاحِبِ الْكَرْمِ فَيُصِيبَ مِنْهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ الْكَرْمُ كَمَا كَانَ دُفِعَ الْكَرْمَ إلى صَاحِبِهِ، وَدُفِعتِ الْغَنَمُ إلى صَاحِبِهَا»، فقضى داود بذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حكم سليمان بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة، وهو ما ذكره المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ

﴿يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨، ٧٩][1].

وقد حدثت هذه القضية في عصر الرسول ﷺ، وذلك أن ناقةَ البراء بن عازبٍ دخلت حائِطَ رجل فأفسدته، فقضى رسولُ الله ﷺ أن «**على أهلِ الأموالِ حفظَها بالنهار، وعلى أهل المَواشي حفظَها بالليل**»[2].

ثالثًا: الحكم بين امرأتين:

تتجلى حكمة سليمان عليه السلام وفطنته في حكمه بين امرأتين في طفل ادعت كل منهما أنه ابنها، كما أخبرنا رَسُولُ اللهِ ﷺ، إذ قَالَ: «**كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عليه السلام، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا**

---

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٦/ ٣٢٣)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٥/ ٣٥٥)، وذكر الفخر الرازي أن هذه الرواية هي رواية أكثر المفسرين في ذلك، (مفاتيح الغيب، ٢٢/ ١٦٤)، كما ذكر تعقيبًا على رواية المفسرين سؤالين وأجاب عنهما، **السؤال الأول**: هل في الآية دلالة على أنهما عليهما السلام اختلفا في الحكم أم لا؟ الجواب: أنهما اختلفا، والدليل إجماع الصحابة والتابعين رضي الله عنهم على ما رويناه، وأيضًا فقد قال الله ﷻ: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾، ثم قال: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، والفاء للتعقيب، فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقًا على هذا التفهيم، وذلك الحكم السابق إما أن يقال: اتفقا فيه أو اختلفا فيه، فإن اتفقا فيه لم يبقَ لقوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ فائدة وإن اختلفا فيه فذلك هو المطلوب. **السؤال الثاني**: سلمنا أنهما اختلفا في الحكم، ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد؟ الجواب: الأمران جائزان عندنا، (السابق نفسه).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٣٩/ ٩٧/ ح:٢٣٦٩١)، وأبو داود في «سننه»، تحقيق: شُعيب الأرناؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٩م، (٥/ ٤٢١/ ح:٣٥٦٩)، قال المحققان: رجاله ثقات، ولفظ الرواية لأبي داود، وفي رواية أحمد: «أَنَّ مَا أَفْسَدَتِ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ ضَامِنٌ على أَهْلِهَا».

على سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليه السلام فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»[1].

وهذا الحكم لا يعني خطأ داود عليه السلام في حكمه، وإنما يعني أنه حكم بناء على قوة الحجة عند المرأتين، فلما كانت حجة الكبرى أقوى أو أظهر من حجة الصغرى حكم لها، في حين سلك سليمان عليه السلام مسلكًا آخر اتسم بالحيلة واختبار العواطف عند المرأتين تجاه الابن؛ لأن العاطفة هي أقوى رابط بين المرأة وطفلها في هذه الحالة.

ومسلك داود عليه السلام هو المسلك المعتاد والطبعيُّ في سائر الحالات التي يتحاكم فيها الناس، وهو المسلك القائم على الحجة الأقوى والأظهر لإثبات الحق، مهما كانت حقيقة الأمر؛ لأن من يحكم لا يعلم هذه الحقيقة ـ في الغالب، وأنه مطالب بالحكم بناء على قوة الحجة.

وقد أسس رَسُولُ اللهِ ﷺ لهذا المنهج وحذر مَنْ تظاهر بحجته لأخذ ما ليس من حقه، وذلك في قوله ﷺ: **«إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الفرائض، باب: إذا ادعت المرأة ابنا، (٨/ ١٥٦/ ح:٦٧٦٩)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الأقضية، باب: بيان اختلاف المجتهدين، (٣/ ١٣٤٤/ ح: ١٧٢٠)، رواه أبو هريرة، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الشهادات، باب: من أقام البينة بعد اليمين، (٣/ ١٨٠/ ح:٢٦٨٠)، روته أم سلمة، واللفظ له.

ملك سليمان عليه السلام:

وهب الله نبيه سليمان عليه السلام فضلًا عن النبوة والعلم والحكمة، ملكًا واسعًا عريضًا، فقد استجاب لدعوته إذ قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[سورة ص:٣٥]، فغفر له ﷻ ووهب له ملكًا لم يهبه لأحد من بعده، وقد قدر رسولنا ما أُوتي سليمان واحترمه، واحترم دعوته فيه، كما تجلى فيما وقع مع النَّبيّ ﷺ وحدَّث عنه، إذ قال ﷺ: «**إن عفريتًا من الجن تفلت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان:** ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾، فرددته خاسئًا»[1].

ويمكن تصنيف هذه الهبات الربانية لسليمان عليه السلام في الآتي:

أولًا: حكم مملكة أبيه داود عليه السلام في الشام، ومقرها بيت المقدس، وكانت ذات نفوذ كبير، وقد تكون أكثر اتساعًا مما كانت عليه زمن داود، حتى اشتهر في المصادر العربية أن سليمان عليه السلام أحد أربعة ملوك ملكوا الدنيا .

ثانيًا: حكمه للإنس والجن والطير، وتسخير الريح له، كما دل عليه قوله ﷻ: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾[سورة ص:٣٦-٣٨].

ثالثًا: امتلاكه أقوى جيش على وجه الأرض، من الإنس والجن والطير، حتى

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قول الله ﷻ: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٣٠] «الراجع المنيب»، (٤/ ١٦٢/ ح:٣٤٢٣)، رواه أبو هريرة .

الريح، وقد تجلت هذه المعاني فيما سجله القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧]، وقوله ﷻ على لسان سليمان عليه السلام آمرًا الهدهد بالرجوع إلى ملكة سبأ وقومها، وآمرًا جنوده من الجن أن يأتوه بعرشها: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل:٣٧-٤٠]، وقوله ﷻ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾

[الأنبياء:٨١].

رابعًا: امتلاكه أقوى وأنفذ وأسرع جهاز استخبارات واستطلاعات في العالم آنذاك؛ وليس أدل على ذلك من كون الهدهد يأتيه بأخبار مملكة متناهية البعد عن مملكته في وقت قصير، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[النمل:٢٠-٢٤]، كما أن بعض جنوده أو استخباراته أتاه بعرش تلك المملكة المتباعدة قبل أن يرتد إليه طرفه، كما في قوله ﷻ على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ

لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل:٣٨-٤٠].

سليمان والجن:

مما منحه الله ﷻ لنبيه سليمان عليه السلام تسخير الشياطين له؛ فكانوا يأتمرون بأمره، ويعملون له ما يشاء، كما أن وفاة سليمان بينت لمن يعتقدون علمهم الغيب أنهم لا يعلمون شيئًا منه، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [سورة ص: ٣٦-٣٨]، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ﴾[الأنبياء:٨٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ:١٢-١٤][(١)].

(١) ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: أي: أذبنا له عين الحديد، والجفان: القصعة التي يأكل فيها الناس، كَٱلْجَوَابِ: كالحياض للإبل، (البخاري في «صحيحه»، باب: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، الرَّاجِعُ المُنِيبُ، (٤/ ١٦١). وقال أحد المفسرين: والمحاريب جمع محراب، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلًا، والجِفَان: جمع جَفْنة، وهي القَصْعة الكبيرة الواسعة التي تكفي لعدد كبير، والقدور الراسيات أي: الثابتة التي لا تنقل من مكان لآخر وهي مبنية. وفي الجاهلية اشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان، وعند مطعم بن عدي. أما التماثيل فهي معروفة،=

وهكذا أعطاه ربه كما طلب حتى رضي وشكر: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[سورة ص:٣٩، ٤٠]، وعرف سليمان عليه السلام قدر ما أعطاه ربه وعرَّف الناس بما أوتي من الفضل المبين: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[النمل:١٦].

سليمان ومسألة الخيل:

عند ذكر قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾[سورة ص:٣١-٣٣]. عرض العلماء لقصة سليمان عليه السلام مع الخيل، وكونها أخرته عن ذكر الله أو الصلاة؛ ذلك أنه عُرض عليه الخيل بالعشي - وقت العصر - فانشغل بها عن ذكر ربه آنذاك - الصلاة، كما فسره العلماء - حتى توارت الشمس بالحجاب، وقيل: الخيل هي التي توارت عندما أرسلها سليمان عليه السلام، وقد أمر بردها ثانية، وأخذ يمسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف، وقد ذكر ابن كثير أن الذي يُقطع به أنه لم يترك الصلاة عمدًا من غير عذر، اللهم إلا أن يقال - إن كان سائغًا في شريعتهم، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل[1].

=ويمكن القول هنا: إنهم كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة، إنما على هيئة الإهانة والتحقير، كأن يجعلونها على هيئة رجل جبار، أو أسد أضخم يحمل جزءًا من القصر أو شرفة من شرفاته، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام، (الشعراوي: تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٦١٤، ٩٦١٥).

(١) البداية والنهاية، (٢/ ٣٣٨)، وبعد أن عرض الفخر الرازي لعدد من التأويلات قال: والصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم، كما أنه في دين محمد ﷺ، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنه لا يحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما يحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله: =

فتنة سليمان ﷺ وإلقاء الجسد على كرسيه:

ذكــر في قولــه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [سـورة ص:٣٤] كثيرٌ مـن التـأويلات والتفسيرات لهـذه القصـة، وجلهـا ـ علـى الأقل ـ لا يقبله عقل ولا يقره منطق، لا سيما والأمر يخص نبيًّا من أنبياء الله، وثمـة أقـوال يمكـن أن يطمئن إليها القلـب؛ لعـل مـن أبرزهـا مـا ذكـره أحـد كبار المفسرين، إذ قال بعد أن أورد أقوال من سماهم: «أهـل الحشـو» ونفاهـا جميعًـا، وذكر كذلك أقوال أهل العلم والتحقيـق، قـال: «إن الله ألقى عليـه مرضًـا شـديدًا، فكـان علـى كرسـيه كالجسـد لشـدة المـرض، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجـع إلـى حـال الصحة»[1].

ومن العلماء من فسر ذلك بقول رَسُولِ اللهِ ﷺ «قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ على تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تأتي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَايْمُ الذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»[2]، ثم قال: إن الشِّقّ هُو الجَسَد الذي أُلْقِي

=﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ ثـم إنـه ﷺ أمر بإعـدادها وتسـييرها حتـى تـوارت بالحجـاب، أي: غابـت عـن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عـادت طفق يمسح سوقها وأعناقها؛ وذلك تشريفًا لها وإبانة لعزتها؛ لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، وأنه أراد أن يظهر في أمور السياسة والملك ويباشرها بنفسه، وكذلك ليعلم هل فيها ما يدل على المعرض، (مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث، ٢٦/ ٣٩١، ٣٩٢).

(١) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، (٢٦/ ٢٠٧ـ٢٠٩)، وقد فصل عبد الوهاب النجار هـذه الرواية، قصص الأنبياء، ص ٤٤٦، وكذلك محمد الطيب النجار، تاريخ الأنبياء، ص ٢٥٥.

(٢) أخرجـه البخـاري في «صـحيحه»، كتـاب: الأيمـان والنـذور، بـاب: كيـف كانـت يمـين النبـي، (٨/ ١٣٠/ ح:٦٦٣٩)، رواه أبو هريرة.

على كُرْسِيّه حِين عُرِض عَلَيْه، وهي عُقُوبَتُه وَمِحْنَتُه، وَقِيل: بَل مات فَأُلْقِي على كُرْسِيّه مَيّتًا[1].

سليمان عليه السلام ومملكة سبأ:

قص لنا الله تعالى نبأ نبيه سليمان مع إحدى الممالك الكبرى في زمانه، وهي مملكة سبأ، وهو نبأ حمل لنا كثيرًا من المعلومات والفوائد، لعل من أهمها:

١ ـ تفقده جنوده وما سخره الله له من الطير، وحزمه في انضباطهم ومحاسبتهم.

٢ ـ أن الطير كانت تؤمن برسالة سليمان عليه السلام ودعوته، وتعبد الله وحده، وتبلغ سليمان بمن يخالف ذلك من الأمم والممالك مما يكتشف، وتستنكر ذلك وتعجب له .

٣ ـ الشورى والتنظيم والقوة التي كانت عليها مملكة سبأ، كما أظهر ذلك حديث ملكتها مع حاشيتها عندما قرأت رسالة سليمان .

٤ ـ حزم وشدة سليمان عليه السلام عندما أرسلت إليه ملكة سبأ هدية؛ لما قد توحي به الهدية في مثل هذه الحال .

٥ ـ ما كان عليه جيش سليمان من قوة وسرعة في تنفيذ المهمات، مهما صعب أمرها وبَعُد مكانها، حيث تم إحضار عرش ملكة سبأ في وقت قُدِّر بلمح البصر، كما فهم بعض العلماء من الآية الكريمة: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل:٤٠].

٦ ـ شكر سليمان عليه السلام لربه لما أنعم عليه من نعمة الملك وتسخير الجن

---

(١) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، (٢/ ١٦٧).

والطير والريح له، وتواضعه لذلك، وتسخير كل هذه القوى للدعوة لعبادة الله وحده، ونبذ ما يُعبد من دونه، ولإقامة العدل في أرجاء مملكته وبين الناس والجن والطير، وما يبسط عليه سلطانه.

قال ﷻ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا

مُسْلِمِينَ ۝ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[النمل:٢٠-٤٤].

بناء مسجد بيت المقدس:

ثبت أن المسجد الأقصى هو ثاني مسجد وضع في الأرض بعد المسجد الحرام، وكان بينهما أربعون عامًا، حيث سأل أبو ذر رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال: «**الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**»، قال: ثم أي؟ قال: «**الْمَسْجِدُ الأَقْصَى**»، قال: كم بينهما؟ قال: «**أَرْبَعُونَ، وحَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ فَصَلِّ، وَالأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ**»[1].

كما ثبت أن سليمان عليه السلام هو من بني المسجد الأقصى، بمعنى جدده، فقد أخبرنا النبي ﷺ: «**أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عليه السلام لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ، سَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خِلالًا ثَلاثَةً؟ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ: مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ: أَنْ لا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلاةُ فِيهِ، أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ، كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[2].

وقد تباينت آراء العلماء من مفسرين ومحدثين ومؤرخين وغيرهم في تحديد من قام بتأسيس أو بناء المسجد الأقصى أول مرة، كما كانت الحال أيضا في شأن المسجد الحرام.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ: قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، الرَّاجِعُ المُنِيبُ، (٤/ ١٦٢/ح:٣٤٢٥)، ومسلم في «صحيحه»، كِتَابُ: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، (١/ ٣٧٠/ ح:٥٢٠)، واللفظ للبخاري، والمقصود أربعون سنة، كما في الروايات الأخرى، البخاري، السابق، ح ٣٣٦٦، ومسلم: نفس السابق

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى»، (٢/ ٣٤/ح:٦٤٣)، والسنن الصغرى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، (٢/ ٣٤/ح:٦٩٣).

ففريق من العلماء يذكر أن الذي أسس بيت المقدس هو داود، ثم بناه سليمان عليه السلام ومن هذا الفريق المطهر بن طاهر المقدسي[1]، وابن الأثير[2]، وابن خلدون[3]، والقرطبي[4]، وغيرهم.

وفريق آخر يرجع تأسيس بيت المقدس إلى ما قبل داود؛ وتباينت آراؤهم بين آدم وسام بن نوح وإبراهيم ويعقوب عليه السلام، ومن هذا الفريق: الطحاوي الذي قال: يحتمل أن يكون واضع المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بناه سليمان بعد ذلك[5]، وابن كثير الذي قال: إن إسرائيل - يعقوب - هو أول من جعله مسجدًا[6]، وهو رأي ابن قيم الجوزية أيضًا[7]، كما ذكر ابن حجر أنه قرأ بعض الآراء التي تقول: إن أول من بني المسجد الأقصى آدم عليه السلام، وقيل: الملائكة، وقيل: سام بن نوح، وقيل: يعقوب عليه السلام[8].

ولكن تبقى هذه الآراء - على جلال قدر أصحابها، وتقدير اجتهادهم - ليست قطعية الثبوت، بدليل بشريتها، وتباينها فيما بينها، كما تبقى قضية الفصل في أول من أسس مسجد بيت المقدس ليست ذات أهمية كبرى، ولا حتى تأسيس البيت الحرام؛ وإلا لأبانها الدين في بعض مصادره. لكن المسألة التي تكتنفها أهمية

---

(١) البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية - مصر - (٢/ ١٥٢)، (٣/ ١٠٥).
(٢) الكامل في التاريخ، ط دار صادر - بيروت - ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، (١/ ٢٢٧، ٢٢٨).
(٣) المقدمة، دار الجيل - بيروت - ص ٣٩٢.
(٤) وقد نسب القرطبي ذلك إلى الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، (تفسير القرطبي، دار الشعب - القاهرة - بدون تاريخ الطبع، ١٤/ ٢٧٨، ٢٨٢).
(٥) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (الشام)، ص ١١٧.
(٦) البداية والنهاية، (٢/ ٣٤١).
(٧) محمد بيومي مهران: مرجع سابق، ص ١١٨.
(٨) فتح الباري، (٦/ ٤٠٩).

نسبية هي أولية بناء البيوت التي عُبِدَ فيها اللهُ وحده، وهذا ما بينه الرسول ﷺ في الحديثين السابقين .

وفاته:

أنبأنا الله ﷻ بوفاة سليمان عليه السلام وكيفيته في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ:١٤]، هذه هي كيفية اكتشاف موت سليمان عليه السلام، أما مدة بقائه على هذه الهيئة أو تفاصيل ذلك فأمر مختلف فيه، لم يتفق فيه على خبر صحيح.

روى ابن كثير أنَّ سليمان عليه السلام مَكَثَ مُتوَكِّئًا على عَصَاهُ وهي مِنْسَأته ـ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ـ مُدَّةً طَوِيلَةً نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دابةُ الأَرْضِ ـ وهي «الأَرَضَةُ» ـ ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إلى الأَرْضِ، وَعُلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَيْضًا أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهِمُونَ النَّاسَ ذلك[1].

وقد استنكر البعض بقاء سليمان عليه السلام مدة سنة وهو بهذه الهيئة دون أن يباشر حياته الطبيعية، أو أن يتركه الآخرون ممن يخدمه أو يتبعه دون اهتمام به، وإن رأى البعض أن ما رواه بعض المفسرين من أنه أعلَمَ أهلَه بذلك ويكتم الخبر عن الجن، إلا أن هذا لا يحسم الأمر لما يأتي:

أولًا: أن تحديد مدة بقائه على هذه الهيئة لم ينص عليها القرآن الكريم ولا صحيح السُّنَّة.

ثانيًا: أن ما عدا هذين المصدرين لا يمكن أن يُصحح خبرًا كهذا أو يقطع به .

---

(١) تفسير ابن كثير، (١٤/ ٥٠١) .

ثالثًا: أن تقدير المدة ليس من ضروريات القصة، ولا من الفائدة التي قصدها النص القرآني.

رابعًا: أنه حتى لو اجتهد البعض في تقدير هذه المدة، فمن الصعوبة بمكان توصله لذلك، فلن يعرف طبيعة الأرضة التي أكلت المنسأة، ولا قوة وصلابة تلك المنسأة، ولا قوة تحمل ووضعية سليمان عليه السلام على منسأته، حتى يقدر الوقت الذي يتطلبه اختلال توازن سليمان عليه السلام على منسأته، ووقوعه على الأرض.

الشياطين والسحر:

حدث أن رجلًا قدم من الكوفة بالعراق وحضر مجلس ابن عباس رضي الله عنهما، ولما سأله ابن عباس عن أخبار العراق قال: «تَرَكْتُهُمْ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ عَلِيًّا خَارِجٌ عَلَيْهِمْ»، فنهره ابن عباس ورد عليه قائلًا: «لَوْ شَعَرْنَا ذَلِكَ مَا أَنْكَحْنَا نِسَاءَهُ، وَلَا قَسَمْنَا مِيرَاثَهُ»، ثم وضح ابن عباس حقيقة ذلك للناس فقال: «إن الشياطين كانوا يسترقون السمع، وكان أحدهم يجيء بكلمة حق قد سمعها الناس فيكذب معها سبعين كذبة، فيشربها قلوب النَّاس، فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود، فأخذها فدفنها تحت الكرسي، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق، فقال: ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممتنع؟ قالوا: نعم، فأخرجوه فإذا هو سحر فتناسختها الأمم، فبقاياها مما يتحدث به أهل العراق، فأنزل الله ﷻ عذر سليمان، فقال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢][1].

ومضمون قول ابن عباس هذا هو ما رواه السُّدِّيُّ، وغيره أيضًا، وفيما قاله:

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٢٩١/ ح:٣٠٥٠)، قال الذهبي: صحيح، وذكره ابن كثير: تفسير ابن كثير، (١/ ٣٤٧).

إن النَّاس اكْتَتَبوا ذَلِكَ الْحَدِيثَ في الْكُتُبِ وَفَشَا في بني إِسْرَائِيلَ: إِنَّ الْجِنَّ تَعْلَمُ الْغَيْبَ؛ فَبَعَثَ سُلَيْمَانُ في النَّاسِ، فَجَمَعَ تِلْكَ الْكُتُبَ، فَجَعَلَهَا في صُنْدُوقٍ، ثُمَّ دَفَنَهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، وبعد وفاته استخرجت الشياطين هذه الكتب، قَالَ الشَّيْطَانُ: إِنَّ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا كَانَ يَضْبِطُ الْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالطَّيْرَ بِهَذَا السِّحْرِ، وَفَشَا في النَّاسِ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ سَاحِرًا وَاتَّخَذَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تِلْكَ الْكُتُبَ، ولما جاء النَّبِيُّ ﷺ خاصموه بها، فبرأ الله نبيه سليمان[١].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (٢/ ٣١٣).

إليـاس عليه السلام

إلياس هو أحد رسل الله تعالى إلى بني إسرائيل، وكانوا على عهده يعبدون الأصنام، فدعاهم ـ مثل كل رسل الله وأنبيَّائه ـ إلى عبادة الله ونبذ ما يعبدون من دونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٢٣-١٣٢][1].

وقد ذُكِر إلياس عليه السلام مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الأنعام:٨٥]، وذلك في سياق ذكر ذرية إبراهيم من الأنبياء والرسل، وهدايتهم والثناء عليهم من قبل الله تعالى.

وقد نسب وهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما إلياس إلى هارون بن عمران أخي موسى عليه السلام[2]، في حين يقول ابن عباس وابن مسعود: «إِنَّ إِلْيَاسَ هُوَ إِدْرِيسُ»[3].

---

(١) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾، أي: ثَنَاءً جَمِيلًا، (ابن كثير: تفسير ابن كثير، ٧/ ٣٧)، وقيل في ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ هو اسم ثانٍ لإلياس، مثل: إبراهيم وإبراهم، وقيل: يفعل ذلك بالأسماء الأعجمية، فسائر العرب تقول: إسماعيل، وبنو أسد يقولون إسماعين، تفسير الطبري، (١٩/ ٦١٩) .

(٢) لكن اختلفوا فيما قبل هارون؛ فقال وهب بن منبه وابن إسحاق: هو إِلْيَاسُ بْنُ يَاسِينَ بْنِ فِنْحَاصَ ابْنِ الْعِيزَارِ بْنِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ، (تفسير الطبري، ١٩/ ٦١٢، ٦١٥).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، (٤/ ١٣٥)، والطبري: تفسير الطبري، (٩/ ٣٨٢)، وقد وُضِع في قصته بعض الأخبار التي يظهر فيها الوضع جليًّا، ومن ذلك ما نسب إلى أنس بن مالك، قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَإِذَا رَجُلٌ فِي الْوَادِي يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ الْمَرْحُومَةِ الْمَغْفُورَةِ، الْمُثَابِ لَهَا قَالَ:=

ويذكر وهبه بن منبه أن الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى كانوا يبعثون إليهم لتجديد ما نسوا من التوراة، ولما نَسُوا مَا كَانَ مِنْ عَهْدِ اللهِ إِلَيْهِمْ، ونَصَبُوا الْأَوْثَانَ وَعَبَدُوهَا من دُون اللهِ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ إِلْيَاسَ[1]، وقيل في «بَعْلًا» يعني ربًّا من دون الله[2]، وقيل: هو اسم لصنم كانوا يعبدونه ببعلبك[3]، ويروي محمد بن إسحاق، عن غيره، أن «بعل» امرأة كانوا يعبدونها من دون الله[4].

وكان إلياس مع ملك من ملوك بني إسرائيل يقال له: «أحاب»، وَكَانَ يَسْمَعُ مِنْهُ وَيُصَدِّقُهُ، وَكَانَ إِلْيَاسُ يُقِيمُ لَهُ أَمْرَهُ، حتى نهج هذا الملك نهج بقية ملوك بني إسرائيل في الشام؛ فعبد الأصنام، فدعا عليهم إلياس ربه بتغيير ما بهم من نعم[5].

=فَأَشْرَفْتُ على الْوَادِي فَإِذَا رَجُلٌ طُولُهُ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةِ ذِرَاعٍ، فَقَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ خَادِمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَيْنَ هُوَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَا يَسْمَعُ كَلَامَكَ، قَالَ: فَأْتِهِ وَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: أَخُوكَ إِلْيَاسُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَجَاءَ حَتَّى لَقِيَهُ فَعَانَقَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَعَدَا يَتَحَدَّثَانِ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي إِنَّمَا آكُلُ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَوْمًا، وَهَذَا يَوْمُ فِطْرِي، فَآكُلُ أَنَا وَأَنْتَ، فَنَزَلَتْ عَلَيْهِمَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَيْهَا خُبْزٌ وَحُوتٌ وَكَرَفْسٌ، فَأَكَلَا وَأَطْعَمَانِي وَصَلَّيْنَا الْعَصْرَ ثُمَّ وَدَّعَهُ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ مَرَّ على السَّحَابِ نَحْوَ السَّمَاءِ، وعلى الرغم من أن الحاكم صححه، إلا أن الذهبي قال عنه: هو موضوع قبح الله من وضعه، الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٣٧/ ح:٤٢٣١).

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٩/ ٦١٥).

(٢) قال ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، قال قتادة وعكرمة: هي لغة أهل اليمن، وقال قتادة هي شنوءة، الطبري: تفسير الطبري، (١٩/ ٦١٢، ٦١٨)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٧/ ٣٧).

(٣) تفسير الطبري، (١٩/ ٦١٤)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٧/ ٣٧).

(٤) المرجع السابق، (١٩/ ٦١٥)، وابن كثير: المرجع السابق، (٧/ ٣٧).

(٥) المرجع السابق، (١٩/ ٦١٥).

اليسع عليه السلام

ذكر الله تعالى اليسع عليه السلام في سياق ذكر بعض الأنبياء والرسل وهدايتهم والثناء عليهم، وتفضيلهم على العالمين، وكونهم من الأخيار، وذلك في الموضعين الآتيين:

- في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٦].
- وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص:٤٨].

وقد ذكر ابن كثير أن «اليسع» من الأنبياء الذين نص القرآن الكريم على أسمائهم[1] والأخبار عن اليسع قليلة جدًّا، إن لم تكن نادرة، وعلى قلتها فهي - في جُلّها على الأقل - لا تصح.

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٦٩)، وهناك رواية لكعب الأحبار تقول: إن إلياس أورث اليسع من بعده النبوة، الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٣٧/ ح:٤١١٩)، دون تعليق من الحاكم أو الذهبي، وروي في نسبه أنه اليسع بن أخطوب بن العجوز، (الطبري: تفسير الطبري، ٩/ ٣٨٤).

يونس عليه السلام

نسبه وقومه:

يونس عليه السلام هو يونس بن متَّى، كما نسبه رسول الله ﷺ ؛حيث قال معليًا شأنه ورافعًا قدره: «لا ينبغي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، وَنَسَبَهُ إلى أَبِيهِ[1]، أما عن موطنه وموطن قومه، فقد ذكر المفسرون عن قتادة وغيره، أَنَّ قَوْمَ يُونُسَ كَانُوا بِنِينَوَى أَرْضِ الْمَوْصِلِ من العراق[2].

نبوة يونس عليه السلام ودعوته:

نص القرآن الكريم على نبوة يونس ورسالته، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٣٩]، وقد أرسله الله إلى أهل «نينوى» من العراق، وكانوا يعبدون الأصنام، فنهاهم عن ذلك وأمرهم بعبادة الله وحده . يقول ابن كثير: قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: بَعَثَ اللهُ يُونُسَ عليه السلام إلى أَهْلِ نِينَوَى مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ، فَدَعَاهُمْ إلى اللهِ ﷻ، فَكَذَّبُوهُ وَتَمَرَّدُوا على كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَوَعَدَهُمْ حُلُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهم: لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيهِمْ وَتَحَقَّقُوا من نُزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، قَذَفَ اللهُ في قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَنَدِمُوا على مَا كَانَ مِنْهُمْ إلى نَبِيِّهِمْ، وعَجُّوا إلى اللهِ ﷻ وَصَرَخُوا وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، وَتَمَسْكَنُوا لَدَيْهِ، وَبَكَى الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْبَنُونَ وَالْبَنَاتُ، وَالْأُمَّهَاتُ، وَكَانَتْ سَاعَةً عَظِيمَةً هَائِلَةً،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]، (٤/ ١٥٣/ ح:٣٣٩٥)، الحديث رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النَّبِيِّ ﷺ، ومسلم في «صحيحه»، باب: في ذكر يونس عليه السلام، وقول النبي ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، (٤/ ١٨٤٦/ ح:٢٣٧٧).

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (١٩/ ٦٣٨)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٤/ ٢٩٧).

فَكَشَفَ اللهُ الْعَظِيمُ - بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ - عَنْهُمُ الْعَذَابَ الذي كَانَ قَدِ اتَّصَلَ بِهِمْ بِسَبَبِهِ، وَدَارَ على رُءُوسِهِمْ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾[يونس:٩٨] أي هَلَّا وُجِدَتْ فِيمَا سَلَفَ مِنَ الْقُرُونِ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا، فَدَلَّ على أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ، بَلْ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[سبأ:٣٤]، وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس:٩٨]، أي: آمَنُوا بِكَمَالِهِمْ[1].

وكان يونس قد تركهم عندما ردوا دعوته ولم يؤمنوا بالله أول الأمر، وذهب مغاضبًا، كما في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧، ٨٨].

وفي قوله ﷻ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ روى الطبري قول ابن عباس وغيره أنه ذهب عن قومه مغاضبًا لهم[2]، ولا يقبل أو يعقل ما روي من كونه ذهب مغاضبًا لربه، حاشا لنبي من الأنبياء ذلك، فقد ذهبت بعض الروايات إلى أنه ذهب مغاضبًا لمَّا وعدهم بوقت عذابهم، ثم رُفع عنهم العذاب، فقَالَ: «جَرَّبُوا عليَّ كَذِبًا، فَذَهَبَ مُغَاضِبًا لِرَبِّهِ حَتَّى أَتَى الْبَحْرَ»[3].

(١) البداية والنهاية، (٢/ ١٧).
(٢) تفسير الطبري، (١٦/ ٣٧٣، ٣٧٤).
(٣) المرجع السابق، (١٦/ ٣٧٤-٣٧٦).

ومعنى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: فظَنَّ أَنْ لَنْ نُعَاقِبَهُ بِالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: قَدَرْتُ على فُلَانٍ: إِذَا ضَيَّقْتُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[الطلاق:٧][(١)]، فأرض الله واسعة، ولن يضيق عليه، وظن أنه سيجد مكانًا آخر، يكون أهله أكثر قبولًا للدعوة، وأقل عداوة له، ولكنه مرسل إلى هؤلاء، وكان لا بُدَّ أن يتحمل الأذى منهم، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة، والتعنت كان شديدًا من أهل هذه القرية «نينوى»[(٢)].

التقام الحوت له عليه السلام ونجاته:

قص علينا القرآن الكريم أُبوق يونس إلى البحر وركوبه الفلك المشحون، وما آل إليه أمره من التقام الحوت له وتسبيحه وخروجه من بطن الحوت في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾[الصافات:١٣٩-١٤٢].

وقد ذكر المفسرون أنه عندما أبق عليه السلام إلى الفلك المشحون لج بهم واضطرب وماج وكاد الغرق يلم بمن فيه، وعندئذ اقترع القوم فخرجت القرعة على يونس، فأبوا عليه، ثم كرروا القرعة مرة ثانية وثالثة، فخرجت على يونس،

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٦/ ٣٧٨)، وقد رويت هنا ـ أيضًا ـ روايات غير مقبولة ولا معقولة، ولا تتناسب قيد أنملة مع نبيٍّ من أنبياء الله مع ربه، من مثل أنه ظن أن يعجز ربه فلا يقدر عليه، أو أنه انطلق مغاضبًا لربه واستزله الشيطان، تفسير الطبري: (١٦/ ٣٨٠) .

(٢) الشعراوي: قصص الأنبياء، (٢/ ١٢٢٣)، وقد ذكر ابن كثير هذا المعنى «نضيق» قال: وقيل: نقدر من التقدير، وهي لغة مشهورة، قَدَرَ وقَدَّرَ بمعنى واحد، كما قال الشاعر:

فَلا عَائد ذَاكَ الزَّمَانُ الذي مَضَى .. تَبَارَكْتَ مَا تُقَدِّرْ يَكُنْ، فَلَكَ الأَمْرُ

(البداية والنهاية، ٢/ ٢٠).

فألقى بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت ، وأمره الله ﷻ بألا يأكل له لحمًا ولا يهشم به عظمًا، فليس له برزق[1]، وأخذ يونس عليه السلام يتضرع إلى ربه ويسبحه؛ فاستجاب له ربه ونجاه من هذا الغم، كما أخبرنا الله في قوله ﷻ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧، ٨٨][2]، وقد جمعت مناداته لربه توبته وتضرعه وتسبيحه، فيما سماه القرآن التسبيح، وكان سبب نجاته وخروجه من بطن الحوت، كما في قوله ﷻ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤]، وقد وصف ﷻ حاله وهو يتضرع ويسبح ربه بأنه كان مكظومًا، أي: مغمومًا، أثقله الغَمُّ وكظمه[3]: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم:٤٨]، فنبذه الحوت ـ بأمر ربه ـ بالعراء وهو سقيم ـ أي: ضعيف ـ وأنبت الله عليه شجرة فيها ستر لحاله حيث تظله ويأكل منها بيسر، وتقوي بنيانه، ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات:١٤٥، ١٤٦][4].

(١) ابن كثير: البداية النهاية، (٢/ ١٩).

(٢) قال ابن كثير: واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، وقيل: جمعة، وقيل: أربعين يومًا، (تفسير ابن كثير، ٧/ ٣٨)، لكن لم تثبت بذلك رواية صحيحة .

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (٢٣/ ١٩٩).

(٤) أما الشجرة التي أنبتها الله عليه فقيل إنها شجرة القرع، حيث كان يتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته، وذكر من حكم ذلك: أن ورقها في غاية النعومة، وكثير وظليل ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نيًا ومطبوخًا وبقشره وببزره أيضًا، وله منافع غير ذلك أيضًا، الطبري: تاريخ الطبري، ١/ ٣٣٧)، وابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ٢٦٥).

ثم أرسله الله إلى مائه ألف، أو يزيدون، كما قال ﷻ: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الصافات:١٤٧، ١٤٨][1]، لكن لم يثبت بطريق صحيح أن هؤلاء هم قومه الذين أرسل إليهم أول مرة فرفضوا دعوته، فأعاده الله إليهم بعد إيمانهم، وبعد نجاته هو، أو أنهم قوم آخرون.

وقد روى الطبري، عن بعض المفسرين، أن المقصود بهم أهل نينوى، قيل: كان الإرسال قبل أن يلتقمه الحوت، وقيل: بعد أن نبذه الحوت بالعراء[2]، كما ذكر الرازي أنه يحتمل أن يكون الإرسال قبل أن يلتقمه الحوت، ويحتمل أن يكون بعد أن التقمه، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما، كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين غير القوم الأُول، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانيًا بشريعة، فآمنوا بها[3].

الرسول ﷺ ويونس عليه السلام:

حدَّث النَّبيّ ﷺ عن يونس عليه السلام في أكثر من موضع حديثًا اشتمل على الثناء

(١) واخْتَلَفُوا فِي الزِّيَادَةِ، قيل عَشَرَةُ آلَافٍ، (ابن كثير: البداية والنهاية، دار هجر، ٢/ ١٨)، وقيل: عشرون ألفًا، وقال ابن عباس ثلاثون ألفًا، وقال سعيد بن جبير سبعون ألفًا، (الطبري: تفسير الطبري، ١٩/ ٦٣٧)، وأما عن قوله ﷻ ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فقد يظن منه - أو يوجب كما قال الرازي بعد ذكره لكثير من المواضع المتشابهة في القرآن الكريم - الشك، لكن هذا محال عليه تعالى، وقد ذكر الرازي أنه تم الإجابة على ذلك من وجوه كثيرة، لكن الأصح منها وجه واحد، وهو «أن يكون المعنى: أو يزيدون في تقديركم، بمعنى: أنهم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا»، (مفاتيح الغيب: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٣، ١٤٢٠هـ ٢٦/ ٣٥٨).

(٢) تفسير الطبري، (١٩/ ٦٣٧، ٦٣٩).

(٣) مفاتيح الغيب، (٢٦/ ٣٥٨).

عليه ورفع قدره، وآدائه لشعائر الدين أثناء حجه للبيت الحرام؛ فقال ﷺ في موضع - تواضعًا -: «لا ينبغي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[1].

وفي موضع آخر وصف ﷺ حال يونس في أثناء زيارته وطوافه بالبيت الحرام، فلما مر ﷺ بِوَادِي الأَزْرَقِ، قَالَ: «أَيُّ وَادٍ هَذَا؟»، فَقَالُوا: هَذَا وادي الأَزْرَقِ، قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى مُوسَى عليه السلام هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إلى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ»، ثُمَّ أَتَى على ثَنِيَّةِ «هَرْشَى»، فَقَالَ: «أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟»، قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَي، قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام على نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ وَهُوَ يُلَبِّي»، يَعْنِي: لِيفًا[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]، (٤/ ١٥٣/ ح:٣٣٩٥)، الحديث رواه ابن عباس عن النبي ﷺ ومسلم في «صحيحه»، بَابٌ: في ذِكْرِ يُونُسَ عليه السلام، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، (٤/ ١٨٤٦/ ح:٢٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، باب: الإسراء برسول الله ﷺ، (١/ ١٥٢/ ح:١٦٦)، رواه ابن عباس رضي الله عنهما.

زكريا ويحيى عليهما السلام

نسبهما وقربهما من عيسى عليه السلام:

ينسب زكريا ويحيى إلى سليمان بن داود[1]، وروى ابن عساكر عن وهب بن منبه، وغيره، أن زكريا كان من أبناء الأنبياء الذين كانوا يكتبون الوحي ببيت المقدس[2]، فهما من أنبياء بني إسرائيل.

وكان زكريا ويحيى وعيسى ابن مريم وأمه عليهم السلام متعاصرين، بل متقاربين، فزكريا هو الذي كفل مريم، وابنه يحيى وعيسى عليهما السلام ابنا خالة، فقد أخبرنا النَّبيّ ﷺ بذلك، وأنه التقى بهما في السماء الثانية في رحلة المعراج، قال ﷺ: «فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ»[3]، لكن محمد بن إسحاق قال: كان زكريا وعمران تزوجا أختين، فكانت أم يحيى عند زكريا وكانت أم مريم عند عمران، فتوفي عمران وأم مريم حامل بمريم وهي جنين في بطنها[4]، وعلى قول ابن إسحاق يكون يحيى ابن خالة مريم، والصحيح الأول لنص الحديث.

عمل زكريا عليه السلام:

كان زكريا عليه السلام نجارًا، كما أخبرنا رسول الله ﷺ، إذ قال: «كَانَ زَكَرِيَّا

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر - بيروت - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (١٩/ ٤٨)، وابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٣٩٥).

(٢) تاريخ دمشق، (١٩/ ٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: فضائل الصحابة، باب: المعراج، (٥/ ٥٢/ ح:٣٨٨٧)، قال ابن كثير: «وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ على قَوْلِ الْجُمْهُورِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ أُمَّ يَحْيَى أَشْيَاعُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ. وَقِيلَ: بَلْ أَشْيَاعُ - وهي امْرَأَةُ زَكَرِيَّا - أُمُّ يَحْيَى هي أُخْتُ حَنَّةَ امْرَأَةِ عِمْرَانَ أُمِّ مَرْيَمَ، فَيَكُونُ يَحْيَى ابْنَ خَالَةِ مَرْيَمَ»، (البداية والنهاية، ٢/ ٤١٣).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٤٦/ ح:٤١٤٨)، سكت عنه الذهبي، وابن عساكر: السابق، (١٩/ ٤٩).

نَجَّارًا»[1]، قال ابن كثير: كَانَ نَجَّارًا يَعْمَلُ بِيَدِهِ، وَيَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهَا، كَمَا كَانَ دَاوُدُ عليه السلام يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ[2].

دعوة زكريا، ورزقه بيحيى عليهما السلام:

كان زكريا عليه السلام هو الذي كفل مريم وقام على رعايتها، وكان يباشرها ويعتني بها، وهي في المحراب، عابدة زاهدة خادمة لبيت الله، فتطلع زكريا أن يرزقه الله من الذرية الطيبة الصالحة مثل مريم، إذ لم يكن له ذلك، وقد كبرت سنه وزوجه عاقر، فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة، فرزقه الله بيحيى ، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ٣٧-٣٩]، أي: مصدقًا بعيسى عليه السلام، وعلى سننه ومنهاجه[3]، فَإِنَّ يَحْيَى أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ بِعِيسَى، وَشَهِدَ أَنَّهُ كَلِمَةٌ مِنَ اللهِ[4]، كذلك هو سيد وحصور أي: ممنوع من كل ما حُرِّم عليه، وهو نبيٌّ أي: قدوة الأتباع[5].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، ح:٧٩٤٧، قال المحققون: إسناده صحيح على شرط مسلم، ومسلم في «صحيحه»، بَابٌ: فِي فَضَائِلِ زَكَرِيَّا عليه السلام، (٤/ ١٨٤٧/ح:٢٣٧٩).

(٢) البداية والنهاية، (٢/ ٣٩٨).

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (٥/ ٣٧٠-٣٧٢).

(٤) المرجع السابق، (٥/ ٣٧٢).

(٥) الشعراوي: التفسير، (٤/ ٢٣١٩-٢٣٢٥).

﴿٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾

[الأنبياء:٨٩، ٩٠].

وَقد اخْتُلِفَ في مَعْنَى الصَّلاحِ في قوله ﷻ: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ فقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: كانت عاقرًا فجعلها ولودًا[١]، وَقَالَ آخَرُونَ: كَانَتْ سَيِّئَةَ الْخُلُقِ[٢]، حيث كَانَ في لِسَانِهَا طُولٌ، فَأَصْلَحَهَا اللهُ[٣]؛ بِأَنْ رَزَقَهَا حُسْنَ الْخُلُقِ[٤]، وقد صوَّب الطبريُّ وابن كثير الأول، وذكر الطبري: أن اللهَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - لم يخصص بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ في كِتَابِهِ، وَلَا على لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، فَهُوَ على الْعُمُوم[٥]؛ أي: إصلاح عام وليس إصلاح جوانب معينة.

قال ﷻ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٦/ ٣٨٨) .
(٢) المرجع السابق، (١٦/ ٣٨٨) .
(٣) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٥/ ٣٧٠).
(٤) الطبري: تفسير الطبري، (١٦/ ٣٨٨) .
(٥) المرجع السابق ، (١٦/ ٣٨٨)، ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٥/ ٣٧٠) .

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٢-١١][1].

قال الحسن ومجاهد وغيرهما في قوله ﷻ: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي يرث نبوته وعلمه[2]، لا المال أو الدنيا؛ لأن الدُّنْيَا كَانَتْ عِنْدَهُ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ وَلَدًا لِيَرِثَهُ في مَالِهِ؛ كَيْفَ وأنه كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مَنْ كَسْبِ يَدِهِ؟ وَلَمْ يَكُنْ لِيَدَّخِرَ مِنْهَا فَوْقَ قُوتِهِ حَتَّى يَسْأَلَ وَلَدًا يَرِثُ عَنْهُ مَالَهُ ـ إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَإِنَّمَا سَأَلَ وَلَدًا صَالِحًا يَرِثُهُ في النُّبُوَّةِ وَالْقِيَامِ بِمَصَالِحِ بني إِسْرَائِيلَ، وَحَمْلِهِمْ على السَّدَادِ[3]، وكما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أن الأنبياء لا يورثون أموالًا ـ كما مر آنفًا ـ ولو أن المقصود وراثة المال لما خصه من بين إخوته بذلك؛ لأن ذلك مستقر في جميع الشرائع والملل؛ أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها[4].

إنها طلاقة القدرة التي تفوق الأسباب؛ لأنها قدرة خالق الأسباب[5]، وزكريا لم يطلب الآية عن شك في قدرة الله، ولكن لأنه لا يريد أن يُفَوت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها، فكانت هذه الآية؛ وكأن الله يريد أن يقول: ما دمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرًا، أجعلك غير قادر على الكلام مع النَّاس، لكنك قادر على الذكر[6].

---

(١) قال مجاهد، وقتادة، والسدي: أراد بالموالي العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة، ابن كثير: التفسير، (١/ ٢١٢).

(٢) الطبري: تفسير الطبري، (١٥/ ٤٥٩).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، (٨/ ١٩٨).

(٤) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (١/ ٢١٣).

(٥) المرجع السابق، (٤/ ٢٣٢٨).

(٦) المرجع السابق، (٤/ ٤٣٣٨، ٤٣٣٩).

تسمية الله ليحيى عليه السلام:

يدل السياق القرآني على أن الله تعالى قد سمى يحيى بهذا الاسم، وأبلغ أباه به مع بشارته به، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[مريم:٧]، وأنه ـ كما قال المفسرون: لم يسمَّ أحد قبله به[١].

نبوة يحيى عليه السلام:

أما نبوة يحيى، فنص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران:٣٩].

صفات يحيى عليه السلام:

ذكر الله تعالى بعض صفات يحيى في قوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٥]؛ أي: يا يحيى تعلم الكتاب «التوراة» بجد وحرص واجتهاد، وكان صغيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وقد روى عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ أن الصِّبْيَانَ قالت لِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا: اذْهَبْ بِنَا نَلْعَبْ؛ قَالَ: مَا لِلَّعِبِ خُلِقْتُ، وَحَنَانًا أي: محبة ورحمة، وَزَكَوٰةً أي: العمل الصالح الزكي، وَكَانَ تَقِيًّا أي: طهورًا لم يذنب[٢].

---

(١) وهو القول الأشهر والأرجح، وممن قال به قتادة وابن جريج والسديُّ وزيد بن أسلم، وغيرهم، ورجحه الطبري، (الطبري: تفسير الطبري، ١٥/ ٤٦٢، ٤٦٣).

(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٥/ ٢١٧).

لم يفعل خطيئة ولا هَمَّ بها:

ومن صفاته التي تميز بها يحيى عليه السلام أنه لم يفعل خطيئة، بل لم يهمَّ بها، كما قال ﷺ: «**ما من آدمي إلا و قد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة أو عملها، إلا أن يكون يحيى ابن زكريا، لم يَهِمَّ بخطيئة ولم يعملها**»[1]، ولعل ذلك من مسوغات قول النَّبيِّ ﷺ عنه، تواضعًا منه وثناء على يحيى عليه السلام: «**لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يحيى بن زكريا، ما هَمَّ بخطيئة ولا عملهما**»[2]، وهو سيد وحصور، وأصل الحصر: **الْمَنْعُ وَالْحَبْسُ**[3]، أي: ممنوع من كل ما حُرِّم عليه[4].

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٤٧/ ح:٤١٤٩)، قال الذهبي: إسناده جيد، رواه ابن عباس.

(٢) أخرجه البزار في: «البحر الزخار»، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - ط١، ١٩٨٨م، (٦/ ٣٤٤/ ح:٢٣٥١)، وقد أخرجه الهيثمي عن البزار، ثم قال: رجاله ثقات، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (٨/ ٣٨٣/ ح:١٣٨٠٣)، كما صحح بعض المحدثين إسناده، وذكر أن رجاله كلهم ثقات، رجال البخاري، غير شيخه محمد بن الوليد - وهو البغدادي - قال عنه الذهبي: ثقة.

(٣) الطبري: تفسير الطبري، (٥/ ٣٧٦).

(٤) الشعراوي: تفسير الشعراوي، (٤/ ٢٣١٩ - ٢٣٢٥)، نُسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «**كُلُّ بني آدَمَ يأتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا**»، قَالَ الراوي: **ثُمَّ دَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ إلى الْأَرْضِ فَأَخَذَ عُودًا صَغِيرًا ثُمَّ قَالَ: «وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا لِلرِّجَالِ إِلَّا مِثْلُ هَذَا الْعُودِ، لِذَلِكَ سَمَّاهُ اللهُ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ»**، الحاكم: المستدرك، (٢/ ٤٠٤/ ح:٣٤١١)، صححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم، رواه عمرو بن العاص، وقد أخرج الحاكم في «المستدرك»، (٤/ ٢٧٣/ ح:٧٦١٨)، هذا الحديث في رواية أخرى باختلاف في الجزء الأدنى من السند - بعد محمد بن إسحاق - والروايتان عن عمرو بن العاص عن النَّبيِّ ﷺ، وصححه الحاكم على شرط مسلم، لكن الذهبي سكت عنه، والرواية الأخيرة التي سكت عنها الذهبي لم يصح فيها السند عن عمرو بن العاص، (محمد عبد العال: المرويات التاريخية في المستدرك، ١/ ٢٦٦)، وعلى أي وضع - وكما قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿وَحَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوبًا، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق =

دعوة يحيى عليه السلام:

يحيى بن زكريا هو أحد أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله إليهم، مثل أبيه وسائر أنبياء بني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وما أمرهم به من فرائض الدين وشعائره، كسائر أنبياء الله إلى أقوامهم. وقد أخبرنا النَّبيُّ ﷺ بدعوة يحيى إلى قومه من بني إسرائيل، وأركانها، وكيفية دعوته لهم، فقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عليه السلام بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بني إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بني إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ، فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي»، قَالَ: «فَجَمَعَ يَحْيَى بني إِسْرَائِيلَ في بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَا الْمَسْجِدُ، فَقُعِدَ على الشُّرَفِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ؛ أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ، وَيؤدي غَلَّتَهُ إلى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا. وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ في عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إلى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِي نفسي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى

=بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أي: لا يأتيها كأنه حصر عنها، وقيل: مانعًا نفسه من الشّهوات، (ابن كثير: تفسير ابن كثير، ٢/ ٣٨).

فَكَّ نَفْسَهُ. وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ ﷻ» قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: بِالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَامَ، وَإِنْ صَلَّى؟ قَالَ: «وَإِنْ صَامَ، وَإِنْ صَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِمَا سَمَّاهُمُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

وهكذا كانت أسس دعوة يحيى بن زكريا عليه السلام لقومه في الآتي:

١ ـ عبادة الله وحده لا شريك له.

٢ ـ إقامة الصلاة.

٣ ـ الصيام.

٤ ـ إخراج الصدقات.

٥ ـ ذكر الله كثيرًا.

نهاية يحيى عليه السلام:

لم ينص القرآن الكريم أو السنة الصحيحة على حقيقة نهاية يحيى بن زكريا عليه السلام كما لم تحمل الآثار والأخبار الأخرى رواية معقولة ومقبولة عن هذا الأمر، تستند إلى ثوابت ومضامين دينية وتاريخية، لكن ما شاع هو رواية عن ابن

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٢٨/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦/ ح:١٧١٧٠)، قال المحققون: حديث صحيح، رواه الحارث الأشعريّ.

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قد تأتي من طريق آخر، تحمل رواية العهد الجديد في هذا الأمر، مع تباين في بعض السياق أو الصيغة، مما لا يؤثر على تطابق المعنى والمضمون.

رواية العهد الجديد: تقول هذه الرواية: كان هِيُرودس يريد أن يتزوج زوجة أخيه فِيلبُّس «هِيُرودِيَّا»، فعارضه يوحنا المعمدان «يحيى بن زكريا» وقال له: «ليس حلالًا لك أن تتزوج بها»، فأراد هيرودس أن يقتله، ولما كان نبيًّا لم يجرؤ على ذلك خشية من الشعب، فسجنه، وفي أثناء الاحتفال بميلاد هيرودس رقصت ابنة هيروديا في الوسط فسرت هيرودس، فأقسم لها واعدًا أن يعطيها أيَّ شيء تطلبه، «فبعد استشارة أمها قالت: أعطني هنا على طبق رأس يوحنا المعمدان»، فغضب الملك لكنه أعطاها ما تريد لقسمه أمام المتكئين معه، فأرسل إلى السجن فقطع رأس يوحنا وجيء به على طبق، فقدم إلى الصبية، فحملته إلى أمها، ودفن تلاميذ يوحنا جسمانه[1].

رواية المصادر العربية: أما الرواية العربية فذكر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله في قتل يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بُعث عيسى ابن مريم و يحيى بن زكريا في اثنى عشر ألفًا من الحواريين يعلمون الناس، قال: وكان فيما ينهونهم عنه نكاح ابنة الأخ، وكانت لملكهم ابنة أخ تعجبه يريد أن يتزوجها، فكانت لها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمها قالت لها: إذا دخلت على الملك فسألك حاجتك فقولي: حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا؛ فلما دخلت عليه سألها حاجتها، فقالت له ذلك، فقال: سليني غير هذا فقالت: ما أسألك إلا هذا، فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعى بطشت، فذبحه فدرت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تغلي

(١) إنجيل متى: ١٤: ٣-١٢، وإنجيل مرقس: ٦: ١٧-٢٩، وكان هذا الحادث في الجليل، وتزوج هيرودس هيروديا، كما جاء في رواية مرقس السابقة.

حتى بعث الله «بخت نصر» عليهم، فجاءته عجوز من بني إسرائيل فدلته على ذلك الدم، فألقى الله في قلبه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن، فقتل سبعين ألفًا منهم من سن واحدة حتى سكن[1].

وروى المؤرخون أن زكريا دَخَلَ الْبَثَنِيَّةَ مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ فِي طَلَبِ ابْنِهِ يَحْيَى. وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ بِدِمَشْقَ حِينَ قُتِلَ ابْنُهُ يَحْيَى[2]، وهذه رواية غريبة، وإن صح سندها عن راويها، ولا تتطابق أو تتسق مع ثوابت قرآنية ومضامين منطقية وعقلية في السياق الديني والتاريخي لقصة يحيى عليه السلام، ومن تلك الثوابت والمضامين:

أولًا: لم ينص القرآن الكريم على قتله، ولا أشار إلى ذلك، وكذلك السنة النبوية، بل إن حديث القرآن الكريم عن زكريا ويحيى يدل على عدم قتله، وأنه سيموت موتًا لا قتلًا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:١٥]، والقرآن الكريم فرق بين حالات الموت وحالات القتل، فقال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ﴾[آل عمران:١٥٨]، وقال ﷻ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾[آل عمران: ١٤٤]، بل إن البعض يذهب إلى أن يحيى لم يمت، بل رُفع كما رُفع عيسى عليه السلام، وسينزل قبيل نزول عيسى؛ ليمهد له ويكون معه في نهاية الزمان، واستدل هذا الرأي بأدلة منها الأمر الثاني ـ الآتي ـ من تلك الثوابت والمضامين .

ثانيًا: التشابه الكبير والدقيق بين قصة يحيى وقصة عيسى عليهما السلام في القرآن الكريم، وخاصة في سورة «مريم»، من أول قوله ﷻ في قصة يحيى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٤٧/ ح:٤١٥١)، وصححه الحاكم والذهبي على شرط البخاري ومسلم، وقد روى ابن كثير هذه الرواية وروايات أخرى قريبة منها، (البداية والنهاية لابن كثير، ٢/ ٤١١ ـ ٤١٤).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، (١٩/ ٤٨)، وابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٣٩٥) .

إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾، وفي قصة عيسى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾، ويحيى وعيسى عليهما السلام معًا في السماء الثانية، وقد رآهما النبيّ ﷺ في رحلة المعراج، فسلم عليهما ورحبا به[1].

ثالثًا: في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:١٥]، فالمخاطب هو النبيُّ ﷺ، وفي وقت الخطاب كان التعبير بالمضارع «وَيَوْمَ يَمُوتُ» أي: إنه لم يمت بعد، في حين كان التعبير عن المولد بالماضي «يَوْمَ وُلِدَ»، واستخدم القرآن الكريم نفس الصيغة: الماضي في المولد والمضارع في الوفاة مع عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٣].

رابعًا: أن الرواية العربية التي شاعت عند بعض المفسرين والمحدثين

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: ذكر الملائكة، (٤/١٠٩/ح:٣٢٠٧)، ومسلم في «صحيحه»، بَابُ: الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، (١/١٤٥/ح:١٦٢).

والمؤرخين في هذا الأمر هي من الإسرائيليات التي دخلت في التراث الإسلامي، خاصة وأن أصلها موجود في مصادر الإسرائيليات، كما سبق ذكره .

خامسًا: لا تتسق استجابة الله لنبيه زكريا، ببشارته بغلام يرثه ويرث آل يعقوب في النبوة والعلم، وبولايته لأبيه، وهو شيخ كبير وهن منه العظم، واشتعل رأسه شيبًا، ثم يقتل في حياة أبيه .

سادسًا: أن الله سماه يحيى، وتسمية الله له بهذا الاسم لها معناها؛ فسماه يحيى ليحيى لا ليقتل في حياة أبيه، كما يفهم من السياق والمعنى للفظ، ولم يجعل الله ذلك لأحد قبله .

وفاة زكريا عليه السلام:

ذكر ابن كثير الخلاف حول كون زكريا عليه السلام مات طبيعيًّا أم قتل قتلًا، ثم ذكر الأسباب التي أدت إلى قتله عند من قال بقتله عليه السلام[1]؛ فقال: اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، هَلْ مَاتَ زَكَرِيَّا عليه السلام مَوْتًا، أَوْ قُتِلَ قَتْلًا؟ على رِوَايَتَيْنِ، الأولى: أَنَّهُ قَالَ: هَرَبَ مِنْ قَوْمِهِ، فَدَخَلَ شَجَرَةً فَجَاءُوا فَوَضَعُوا الْمِنْشَارَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا وَصَلَ الْمِنْشَارُ إلى أَضْلَاعِهِ أَنَّ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: لَئِنْ لَمْ يَسْكُنْ أَنِينُكَ لَأَقْلِبَنَّ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا؛ فَسَكَنَ أَنِينُهُ حَتَّى قُطِعَ بِاثْنَتَيْنِ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ. الثانية: أَنَّهُ قَالَ: الذي انْصَدَعَتْ لَهُ الشَّجَرَةُ هُوَ أَشْعِيَا، فَأَمَّا زَكَرِيَّا فَمَاتَ مَوْتًا[2] .

(١) البداية والنهاية، (٢/ ٤٤١ ـ ٤٤٦).

(٢) المرجع السابق، (٢/ ٤٠٦) .

عيسى عليه السلام

ولادة مريم:

يذكر العلماء أن عمران يتصل نسبه بسليمان بن داود عليهما السلام، وأنه كان من علماء بني إسرائيل وإمامهم وصاحب صلاتهم، وأن امرأته كانت لا تلد، وهي حَنَّةُ بِنْتُ فَاقُودَ ابْنِ قُبَيْلَ، وكانت مِنَ الْعَابِدَاتِ، فوهبت لله إن رزقها الله مولودًا لتجعلنه محررًا - أي: حبيسًا - في خدمة بيت المقدس، فتقبل الله منها ورزقها بمريم، فأوفت بوعدها وجعلتها في خدمة هذا البيت[1]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران:٣٣-٣٧].

وقد أعاذها ربها من الشيطان تلبية لدعوة أمها، وحفظا لولدها، وقد أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا**»، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦][2].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: تفسير القرآن، باب: وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ، (٦/ ٣٤/ ح:٤٥٤٨)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، (٤/ ١٨٣٨/ ح:٢٣٦٦)، واللفظ للبخاري.

كفالة زكريا عليه السلام لها:

ولما كانت مريم صغيرة، وهي ابنة أحد علماء بني إسرائيل، فقد رغب الكثيرون من علمائهم وصلحائهم في كفالتها، واحتكموا إلى إجراء القرعة بينهم على ذلك، أكثر من مرة وجرت القرعة في كل مرة على زكريا نبي بني إسرائيل آنذاك وزَوْجِ أُخْتِ مَرْيَمَ «أَشْيَاعَ» في قَوْلِ الْجُمْهُورِ، وَقِيلَ: زَوْجُ خَالَتِهَا «أَشْيَاعَ»[1]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[آل عمران:٣٧].

وكان عليه السلام كلما دخل عليها المسجد وجد عندها رزقًا كثيرًا وفاكهة في غير موسمها، فكان يجد فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وقد أجابته حين سألها قائلًا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران:٣٧][2].

منزلة مريم في الإسلام:

لمريم بنت عمران منزلة سامية ومكانة رفيعة في الإسلام؛ فقد أخبرنا الله تعالى أنه طهرها واصطفاها على نساء العالمين، كما أخبرنا النَّبيُّ ﷺ أنها من قلائل هن أفضل نساء العالمين؛ فهي التي كان أبوها أحد علماء بني إسرائيل وإمامهم على

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٤١٨).
(٢) المرجع السابق، (٢/ ٤٤٩).

الصلاة، وكانت أمها امرأة عابدة زاهدة، كما أن مريم نُشِّئَتْ تنشئةً دينيةً أخلاقيةً في المسجد، وهُيِّئَت لتكون أم نبي بني إسرائيل، يقول ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٢-٤٤]، وعلى رأي ابن كثير، فَإِنَّ اللهَ طَهَّرَهَا وَاصْطَفَاهَا على نِسَاءِ زَمَانِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَفْضِيلُهَا على النِّسَاءِ مُطْلَقًا[١].

وكما أخبرنا رسول الله ﷺ، فقد كانت السيدة مريم بنت عمران واحدة من اثنتين كمُلتا من النساء، في قوله ﷺ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ على النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سَائِرِ الطَّعَامِ**»[٢].

كما أخبرنا ﷺ أنها من أربعٍ هن خير نساء العالمين، حيث قال ﷺ: «**حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**»[٣].

كما نصَّ ﷺ على أنها إحدى أفضل أربع نساء هن أفضل نساء، أهل الجنة، فذات يوم خَطَّ ﷺ في الأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، ثم قَالَ لأصحابه: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ**

---

(١) البداية والنهاية، (٢/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: فضل عائشة رضي الله عنها، (٥/ ٢٩/ ح:٣٧٦٩)، والراوي أبو موسى الأشعريّ.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٩/ ٣٨٣/ ح:١٢٣٩١)، وقال المحققون: صحيح على شرط الشيخين، رواه أنس بن مالك.

بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ»[1]

بشارة مريم بعيسى عليه السلام(*) ورسالته:

اقتضت حكمته تعالى أن يكون عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل هو ـ وأمه أيضًا ـ آية للعالمين، له طبيعة خاصة في بعض جوانب حياته؛ وأهمها ولادته، وكلامه في المهد، فضلًا عن المعجزات الأخرى الخاصة بالنبوة، إذ كانت أمرًا فريدًا من نوعه، لم يشترك معه فيها إلا آدم عليه السلام، وُجِدَا بدون أب، ولم يكن الأمر مستغربًا بالنسبة لآدم عليه السلام ـ فهو أول البشرية ـ وهو مخلوق لا مولود، فليس الأمرُ أمرًا بغيًّا ولا شيئًا فريًّا، ولكن الله خلقه من تراب ثم قال له كن فكان كما أراده الله تعالى.

ولكن أمر عيسى عليه السلام اختلف في كثير من هذه الجوانب، فهو مولود من أم، والأم كانت مخطوبة ليوسف النجار ـ حسب الرواية ـ وولادة الأم لمولودها دون أن يكون لها زوج لم يكن أمرًا معهودًا أو حتى قريبًا من القبول على مدى التاريخ، ما لم يقترن بأمر إلهي يجد قبولًا من المؤمنين بقدرة الله، ومن ثم فقد كان الترتيب الإلهي لهذا الأمر محيطًا بهذه الاعتبارات من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الآتي نبي، أي: إن الحال تقتضي ما كانت عليه من قبل، وهي أن تكون

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٤/ ٤٠٩/ ح:٢٦٦٨)، قال المحققون: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وفي رواية الحاكم: «أَفْضَلُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٥٠/ ح:٤١٦٠)، قال الذهبي: صحيح، رواه ابن عباس.

(*) عيسى هو الاسم، والمسيح اللقب، وابن مريم الكنية. وقد يكون الممسوح من الذنوب، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ، أو المسيح المبارك، (الشعراوي: قصص الأنبياء، ٥/ ٢٩٩٥).

الأم وأبوها وأمها في مقام ديني واجتماعيّ ينأى بأم النبي عن أي فرية في هذا الأمر، وهو الواقع.

فقد كان عمران ـ كما سبق ـ من أبرز علماء بني إسرائيل وصاحب صلاتهم ـ كما ذكر المفسرون ـ وكذلك كانت زوجته ـ أم مريم ـ من التقوى والصلاح ما جعلها تهب مولودها لخدمة بيت الله ـ المسجد الأقصى ـ وما جعلها زوجة لهذا الرجل التقي، فضلًا عن شهادة الروايات لها بأنها كانت من العابدات الزاهدات، وقد صدق قوم مريم ذلك قائلين لها، كما سجل القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[مريم:٢٨].

وكذلك كان الاصطفاء ابتداءً لآل عمران مع آدم ونوح وآل إبراهيم على العالمين، ثم كان الاصطفاء الأخص لمريم على نساء العالمين .

ثم كان الأمر لها بكثرة العبادة من القنوت والسجود والركوع، حتى إن النبي ﷺ أخبر أنها إحدى اثنتين كملتا من النساء جميعًا، كما مر آنفًا .

وكذلك الرزق الذي كان يأتيها بغير حساب وفي غير وقته، وهو ما رآه زكريا عليه السلام، وكذلك تكليم عيسى عليه السلام قومه في المهد(*) قائلًا لهم: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[مريم:٣٠].

(*) الذين تكلموا في المهد ثلاثة كما روى أبو هريرة عن النَّبيّ ﷺ، قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلاثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بني إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ المُومِسَاتِ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الغُلامَ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي، قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لا، إِلَّا مِنْ طِينٍ. وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بني إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابني مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا =

وعلى قدر ما كانت عليه مريم بنت عمران من الدين والتقوى كان ابتلاء الله لها بأنها ستنجب ولدًا دون أن يمسسها بشر، وأحد أهم وجوه الابتلاء وأشدها هو موقفها أمام قومها، لكن الله ﷻ الذي ابتلاها لحبه لها لم يتركها تواجه قومها دون تأييد معجز منه ﷻ؛ حيث أنطق وليدها وهو في المهد، فأجاب عنها، وكفاها الهم والحزن.

وقد قص القرآن الكريم أمر بشارة الملائكة لها بعيسى عليه السلام، وردها مستعجبة مستغربة وإجابة الملائكة لها، في قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٤٥-٤٧].

كما قص علينا ﷻ أمر اتخاذها مكانا شرقي بيت المقدس ومجيء الملك إليها، ونفخه فيها وحملها وولادتها، ثم إتيانها قومَها واستنكارهم ذلك منها، ثم رد عيسى عليه السلام ـ وهو في المهد ـ عليهم وتبليغهم رسالة ربهم التي أرسل بها إليهم. وقد حمل كلامه لهم ردوده على كل ما سيفترونه عليه ـ تقريبًا ـ في قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

=وَأَقْبَلَ على الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ على ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ، ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلِ ابني مِثْلَ هَذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ: سَرَقْتِ، زَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ»، أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، (٤/ ١٦٥/ ح:٣٤٣٦)، ومسلم في «صحيحه»، بَابُ: تَقْدِيمِ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ على التَّطَوُّعِ بِالصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، (٤/ ١٩٧٦/ ح:٢٥٥٠)، واللفظ لمسلم.

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝٢٧ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[مريم:١٦-٣٧][1].

ففي ذات يوم انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى، فأرسل الله لها جبريل، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، فاستعاذت بالرحمن منه؛ لأنها لم تعرفه، فأعلمها أنه رسول ربها أتاها ليهب لها غلامًا ذكيًّا[2] ويروى السُّديُّ ووهب بن

(١) ﴿انتَبَذَتْ﴾: اعتزلت، ﴿شَرْقِيًّا﴾: ما يلي الشرق، و﴿قَصِيًّا﴾: قاصيًا، و﴿فَرِيًّا﴾: عظيمًا، و﴿نَسْيًا﴾: أي: لم أكن شيئًا. وقيل: النسي: الحقير، ﴿سَرِيًّا﴾: نهر صغير، (أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، (٤/ ١٦٥).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٤٣٩).

مُنَبِّه وغيرهما، أن جبريل عليه السلام نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا حَتَّى وَصَلَتِ النَّفْخَةُ إلى الرَّحِمِ، فَحَمَلَتْ، وهذا ما يقتضيه السياق[1]، وأن القول بأنه نفخ في فمها كما قال أُبَيُّ بن كعب، أو في صدرها كما قال السُّديُّ، أو فرجها، خِلَافُ مَا يُفْهَمُ مِنْ سِيَاقَاتِ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي مَحَالِّهَا مِنَ الْقُرْآنِ[2].

وعندما بان حملها أنكر عليها قومها ذلك. ويروي وهب بن منبه وغيره، أن أول من أنكر عليها يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ النَّجَّارُ، ابْنُ خَالِهَا، حيث كَانَتْ مَرْيَمُ وَيُوسُفُ يَخْدُمَانِ فِي الْمَسْجِدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ - تَحْبِيرَهُ وَكُنَاسَتَهُ وَطُهُورَهُ وَكُلَّ عَمَلٍ فِيهِ - وَكَانَ لَا يَعْمَلُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمَا أَحَدٌ أَشَدُّ اجْتِهَادًا وَعِبَادَةً مِنْهُمَا، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَنْكَرَ حَمْلَ مَرْيَمَ صَاحِبُهَا يُوسُفُ، فَلَمَّا رَأَى الذي بِهَا اسْتَفْظَعَهُ، وَعَظُمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَدْرِ على مَاذَا يَضَعُ أَمْرَهَا، فَإِذَا أَرَادَ يُوسُفُ أَنْ يَتَّهِمَهَا ذَكَرَ صَلَاحَهَا وَبَرَاءَتَهَا، وَأَنَّهَا لَمْ تَغِبْ عَنْهُ سَاعَةً قَطُّ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهَا رَأَى الذي ظَهَرَ عَلَيْهَا[3].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ شَاعَ أَمْرُهَا وَاشْتَهَرَ فِي بني إِسْرَائِيلَ أَنَّهَا حَامِلٌ، فَمَا دَخَلَ على أَهْلِ بَيْتٍ مَا دَخَلَ على آلِ زَكَرِيَّا. وَاتَّهَمَهَا بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ بِيُوسُفَ الذي كَانَ يَتَعَبَّدُ مَعَهَا فِي الْمَسْجِدِ، وَتَوَارَتْ عَنْهُمْ مَرْيَمُ، وَاعْتَزَلَتْهُمْ وَانْتَبَذَتْ مَكَانًا قَصِيًّا[4].

وقد أنكر الله تعالى هذا الاتهام وعَدَّه بهتانًا عظيمًا، وبرأها في قرآنه الكريم، كما برأ السيدة عائشة من نفس التهمة، إذ قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا

(١) الطبري: تفسير الطبري، (١٥/ ٤٩٠).

(٢) المرجع السابق، (١٥/ ٤٩٠)، وابن كثير: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٤٠، ٤٤١).

(٣) المرجع السابق، (١٥/ ٤٩٠)، ابن كثير: المرجع السابق، (٢/ ٤٤١).

(٤) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٤٣).

عَظِيمًا﴾[النساء:١٥٦]، قال الطبري: «حِينَ قَذَفُوهَا بِالزِّنَى»[1]، فَأَلْجَأَهَا وَاضْطَرَّهَا الطَّلْقُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ[2]، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذه الحال، أو كانت نسيًا منسيًّا؛ شَيْئًا نُسِي فَتُرِكَ طَلَبُهُ كَخِرَقِ الْحَيْضِ التي إِذَا أُلْقِيَتْ وَطُرِحَتْ لَمْ تُطْلَبْ وَلَمْ تُذْكَرْ[3].

ولكن عيسى النَّبِيّ أنطقه الذي أنطق كل شيء مهدًا؛ فكلمها وآنسها وهون عليها، وقلل من خوفها وأرشدها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم:٢٤]، وقال جماعة: إن المنادي جبريل عليه السلام.

وهكذا اقتضت حكمة الله ﷻ أن يكون عيسى النَّبِيّ كلمته ـ كن فيكون ـ وروح منه ألقاها إلى أمه الصديقة؛ ليكونا آية للعالمين، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

[الأنبياء:٩١].

مولد عيسى ونسبه عليه السلام:

وُلِدَ عيسى عليه السلام في بيت لحم بالقرب من بيت المقدس، في بداية التاريخ المعروف عالميًّا بالتقويم الميلادي، وكانت هذه المدينة تابعة لحكم هيرودس الحاكم الروماني في عصر الإمبراطور أغسطس.

وكما كلم عيسى أمه كلم قومه، وأعلمهم أنه عبد الله ورسوله، وقد جعله ربه مباركًا وبارًّا بوالدته، ولم يجعله جبارًا شقيًّا ـ كما أنف الذكر، لكنهم اختلفوا فيه،

(١) تفسير الطبري، (٧/ ٦٤٩).
(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٤٣).
(٣) الطبري: تفسير الطبري، (١٥/ ٤٩٨).

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]؛ فاختلف أهل ذلك الزمان ومَنْ بعدهم فيه، فجمهور اليهود يقولون: إنه ولد زنية، وأن كلامه هذا سحر، وقال آخرون من قومه: هو ابن الله، وقال آخرون: هو ثالث ثلاثة، وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله، وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[مريم:٣٧][1].

وينسب عيسى عليه السلام إلى أمه مريم بنت عمران، كما نص القرآن الكريم؛ لأنه ولد من دون أب، فقد نسبه الله تعالى لأمه مريم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[الصف:٦].

ونسبته الملائكة كذلك إلى أمه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾[آل عمران:٤٥].

ونسبه تلاميذه من الحواريين لأمه أيضًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:١١٢].

لكن الإنجيل نسبه إلى يوسف النجار، كما في إنجيل لوقا وإنجيل متى:

ـ ففي إنجيل لوقا: «ولما ابْتَدَأَ يسوع وكان له نحوُ ثلاثين سنة، وهو على ما كان يُظَنُّ ابن يوسف بن هَالِي بن مَتْثَات بن لاوِي .... بن ناثان بن داود»[2].

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٥/ ٢٣١).

(٢) إنجيل لوقا: ٣: ٢٣.

- وفي إنجيل متى: «وداود الملك ولد سليمان، وسليمان ولد رَحَبْعام .... ويعقوب وَلَد يوسف رجل مريم، التي وُلِدَ منها يسوع الذي يُدْعَى المسيح»[1].

حقائق وتقريرات إسلامية عن عيسى عليه السلام:

أولًا: عدم الغلو في عيسى وحقيقة أمره، كما في:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[النساء:١٧١].

- وقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[المائدة:٧٥].

- وقول النَّبيِّ ﷺ: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ على مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»**[2].

ثانيًا: عدم كونه ولدًا لله أو جزءًا منه، أو هو الله، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن

---

(١) إنجيل متى: ١: ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، (٤/ ١٦٥/ ح:٣٤٣٥)، ومسلم في «صحيحه»، (١/ ٥٧/ ح:٤٦)، رواه عبادة بن الصامت.

يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾[مريم:٨٨-٩٥].

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٠١].

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧].

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣].

إيواء عيسى وأمه عليهما السلام إلى الربوة:

أشار القرآن الكريم إلى إيواء عيسى وأمه عليهما السلام من مطاردة أعداء عيسى من الرومان أو غيرهم، إلى مكان مرتفع ومستوٍ وفيه ماء جارٍ، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[المؤمنون:٥٠].

أما المكان الموصوف بذلك في الآية فقيل: الرملة، وقيل: بيت المقدس، وقيل: دمشق، وقيل: مصر عند أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم، قال الطبري: وأولى الأقوال أَنَّهَا مَكَانٌ مُرْتَفِعٌ ذُو اسْتِوَاءٍ وَمَاءٍ ظَاهِرٍ؛ حيث إن المعين الماء، وَلَيْسَ ذلك صِفَةُ الرَّمْلَةِ[1].

وروى وهب بن منبه أن عيسى عليه السلام لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من مصر إلى بيت إيليا ـ بيت المقدس، فقدم عليه يوسف ابن خال أمه، فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقاما بها حتى أحدث الله له الإنجيل

(١) تفسير الطبري، (١٧/ ٥٣ ـ ٥٧).

وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، والعلم بالغيوب مما يدخره القومُ في بيوتهم، ودعاهم إلى الله وانتشر أمره فيهم[(١)].

أما رواية أهل الكتاب فتقول: إنه لما علم الحاكم الروماني هيرودس - عن طريق الكهنة - بأن المولود الذي ولد سيكون سلطانه على جميع اليهود، أمر بقتل كل طفل يولد في بيت لحم، وأُمِرُ يوسف النجار في منامه أن يذهب بعيسى وأمه إلى مصر، خوفًا من بطش الملك هيرودس، ففعل ذلك، وذهب بهما إلى مصر، كما جاء في إنجيل متى: «**ظهر ملاك الرب ليوسف في حلم قائلًا: قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلًا وانصرف إلى مصر**»[(٢)].

دعوته عليه السلام لبني إسرائيل:

كانت دعوة عيسى عليه السلام مثل دعوة سائر رسل الله في وحدة العقيدة، واتفاق في بعض الشريعة وتباين في بعضها الآخر، حسب ظروف كل أمة أو قوم وأحوالهم، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأنبياء إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[(٣)].

فهو عبد الله ورسوله، بعثه ربه رسولًا إلى قومه؛ ليأمرهم بعبادة الله وحده، ومصدقًا لما بين يده من التوراة - كتاب موسى من قبله، وأنزل عليه الإنجيل فيه

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٤٧١).

(٢) إنجيل متي: ٢: ١٣ - ١٤، والخبر في إنجيل برنابا أيضًا.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ: قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، (٤/ ١٦٧/ ح:٣٤٤٣)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الفضائل، بَابُ: فَضَائِلِ عِيسَى عليه السلام، (٤/ ١٨٣٧/ ح:٢٣٦٥)، رواه أبو هريرة واللفظ للبخاري.

هدى ونور، وليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه، وليحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم من قبل وبيان هذه الأمور في الآتي:

أولًا: العقيدة:

ـ أنه عبد الله ورسوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠].

ـ أن الله هو ربهم جميعًا، وأنهم مأمورون بعبادته، وأن هذا هو الصراط المستقيم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[مريم:٣٦].

ـ أنه مصدق للتوراة، وأوتي الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة:٤٦]، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[المائدة:١١٠].

ـ أنه جاء مبشرًا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف:٦].

ثانيًا: التعاليم والوصايا:

ومن أهمها:

ـ بيان ما يختلف فيه بنو إسرائيل: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣].

ـ أنه يحل لهم بعض ما حُرم عليهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[آل عمران:٥٠].

- ودعوتُهم للاقتداء به في أعمال الصلاح والخير: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:٣١-٣٣].

اختلاف الأحزاب في طبيعة عيسى عليه السلام:

أما ما افتراه بنو إسرائيل على عيسى من كونه إلهًا هو وأمه، أو ابن إله، أو غير ذلك مما لم ينزل الله به سلطانًا، فقد اختلفوا في تفصيل ذلك وانقسموا إلى أحزاب، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله ﷻ: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[مريم:٣٧].

وقد تبرأ عيسى عليه السلام من ذلك كله أمام ربه - وهو تعالى أعلم به - كما أخبر به تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٦-١١٨].

وقد استمرت دعوته عليه السلام عامًا واحدًا تقريبًا حسب إنجيل متى ولوقا ومرقس، أما عند إنجيل يوحنا فقد استمرت أكثر من عامين[(١)].

المعجزات المؤيدة للنبوة:

مثل سائر أنبياء الله ورسله كان لعيسى عليه السلام من الأمور الخارقة للعادة أو

(١) عبد الفتاح أحمد الفاوي: المسيحية بين العقل والنقل، المطبعة الإسلامية الحديثة - القاهرة - ١٩٩٢م، ص١٠٧.

المعجزات ما ثبت لذوي الألباب أنه رسول من عند الله، وكذلك كانت معجزاته تقتضيها الحال آنذاك؛ تأييدًا لدعوته، واطمئنان قومه لها، وإيمانهم بما جاء به.

ويمكن ذكر معجزات عيسى ﵇، في الآتي:

١ ـ ولادته من غير أب .

٢ ـ كلامه في المهد .

٣ ـ تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

٤ ـ خلقه من الطير كهيئة الطير، والنفخ فيه وكونه طيرًا، بإذن الله.

٥ ـ إبراء الأكمه والأبرص، بإذن الله .

٦ ـ إحياء الموتى، بإذن الله .

٧ ـ معرفة ما يأكله ويدَّخره قومه في بيوتهم، بإذن الله .

٨ ـ نزول المائدة من السماء .

وقد ذكر القرآن الكريم تلك المعجزات في عدة مواضع، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٤٨، ٤٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ

ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[المائدة:١١٠].

يقول ابن كثير: بُعث عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ في زَمَنِ الطَّبَائِعِيَّةِ الْحُكَمَاءِ، فَأُرْسِلَ بِمُعْجِزَاتٍ لَا يَسْتَطِيعُونَهَا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهَا، وَأَنَّى لِحَكِيمٍ إِبْرَاءُ الأَكْمَهِ؟! الذي هُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الأَعْمَى وَالأَبْرَصِ وَالْمَجْذُومِ، وَمَنْ بِهِ مَرَضٌ مُزْمِنٌ، وَكَيْفَ يَتَوَصَّلُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ إلى أَنْ يُقِيمَ الْمَيِّتَ مِنْ قَبْرِهِ[(١)].

والملاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين:

قسم يُقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والوجدان، وقسم يُقنع الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله في غيب الله.

والقسم الأول: الذي يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

والقسم الثاني: الذي يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التي يعرف من يراها أنها لا يمكن أن تجري على يد بشر؛ كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فيكون طيرًا، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وهذه الآيات خرق للناموس المادي، ولذلك يُتبع الحقُّ كلَ واحدة منها بذكر كلمة ﴿بِإِذۡنِي﴾ أي: إن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله[(٢)].

(١) البداية والنهاية، (٢/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) الشعراوي: تفسير الشعراوي، (٦/ ٣٤٥٢، ٣٤٥٣).

معجزة المائدة:

من المعجزات الكبرى لعيسى عليه السلام المائدة التي أنزلها الله تعالى تلبية لدعوة نبيه لما طلب الحواريون منه ذلك، وقد سميت السورة التي وردت فيها قصتها باسمها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة:١١٢-١١٥].

ويذكر ابن كثير مضمون الآثار الواردة في نزول المائدة، وهي أن عيسى أمر الحواريين بصيام ثلاثين يومًا فلما أتموها سألوه إنزال مائدة من السماء عليهم، ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم بأنَّ الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبهم، وتكون لهم عيدًا يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ولغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى في ذلك، وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها، ولا يؤدوا حق شروطها، فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل، فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحًا من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء، وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال بأن يجابوا إلى ما طلبوا، فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلًا، وكلما دنت سأل عيسى ربه تعالى أن يجعلها بركة وسلامة، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يديّ عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل، فقام عيسى عليه السلام يكشف عنها وهو يقول «باسم الله خير الرازقين»، وكان عليها خبز ولحم فأكل منها كثير من الناس؛ منهم الفقراء والمرضى، فبرأ كل من به علامة أو

آفة أو مرض مزمن، وكانت تنزل كل يوم مرة، ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم، وقد ذكر أن عدد من كان يأكل منها بلغ سبعة آلاف، ثم أُمر عيسى أن يقصرها على الفقراء والمحتاجين دون الأغنياء، فشق ذلك على كثير من النَّاس، وتكلم المنافقون من الناس في ذلك، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير[1]، ومما يظهره خبر القرآن الكريم عن المائدة قول الحواريين: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، وهو ما قاله إبراهيم عليه السلام في طلبه من الله كيفية إحياء الموتى.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الأَئِمَّةِ أَنَّ قِصَّةَ الْمَائِدَةِ لَيْسَتْ مَذْكُورَةً فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا يَعْرِفُهَا النَّصَارَى إِلَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاللهُ أَعْلَمُ[2].

موقف قومه من دعوته:

أخذ عيسى عليه السلام يدعو قومه كما أمره الله تعالى، يؤيده في ذلك ما ظهر على يديه من معجزات - سبق ذكرها، كذلك هو نفسه كان معجزة في كثير من جوانبه؛ في ولادته وفي تكَلُّمِه في المهد بما أوحي إليه؛ حيث جعله ربه هو وأمه آية للعالمين.

لكن قومه لم يكونوا بدعًا من أقوام الرسل قبله؛ إذ كذبه كثيرٌ منهم وقاوموا دعوته، واتهموه بأن ما جاء به سحر مبين، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة: ١١٠]، ولكن الله جعل له أنصارًا منهم - وهم قلة - وهم «الحواريون»، وأوحى إليهم بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

(١) البداية والنهاية، (٢/ ٤٩١، ٤٩٢).

(٢) المرجع السابق، (٣/ ١١٣).

ومن ثَمَّ فما إن بدا لعيسى عليه السلام من قومه التكذيب والكفر حتى طلب ممن صدقوه وآمنوا به أن يعلنوا عن أنفسهم ليعرفهم ويتبعوه، فكان ذلك منهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

وهكذا آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت أخرى، وكان التأييد من قبل الله ﷻ للذين آمنوا على عدوهم، فأصبحوا ظاهرين عليهم بفضل من الله، بل إن الله ضربهم مثلًا للمسلمين في النصرة لله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾[الصف:١٤].

وهكذا لما أقام عيسى عليه السلام الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له ﷺ من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصارًا وأعوانًا، قاموا بمبايعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى الملك آنذاك، فعزموا على قتله وصلبه، فأنقذه الله منهم ورفعه إليه، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وهم يعتقدونه عيسى[1].

قال ﷻ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[النساء:١٥٦-١٥٩].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٤٨٧).

وقال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[آل عمران:٥٥-٥٨].

وقد تمحورت آراء المفسرين في معنى الوفاة قبل الرفع حول اتجاهين:

الأول: أن المقصود من ذلك متوفيك من الدنيا، أي: بقبضك منها، أو بنومك ورفعك نائمًا، وهو ما رجحه الطبري[(١)]، وقاله الأكثرون، وصححه ابن كثير مستشهدًا بقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[الأنعام:٦٠]، وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢][(٢)]، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يقول ـ إِذَا قَامَ مِنَ النَّوْمِ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[(٣)].

الثاني: أن الوفاة كانت حقيقية، لكن لساعات قليلة، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ووهب بن منبه[(٤)].

نزول عيسى عليه السلام قبيل قيام الساعة:

أخبرنا رَسُولُ اللهِ ﷺ بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة حكمًا عدلًا، ينصر

(١) تفسير الطبري، (٥/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠).
(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٦، ٤٧، ٤٥٤).
(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: ما يقول إذا نام، (٨/ ٦٩/ ح:٦٣١٢).
(٤) الطبري: تفسير الطبري، (٥/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠).

الحق ويحارب الباطل، فقال ﷺ: «وَالذي نفسي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، ثُمَّ قال أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[النساء:١٥٩][1].

وقد أخبر ﷺ عن أوصافه وأفعاله وأحوال زمنه عند نزوله، فقال: «الأَنبياء إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إلى الإِسْلَامِ، فَيُهْلِكُ اللهُ في زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللهُ في زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، ثُمَّ تَقَعُ الأَمَنَةُ على الأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ، وَالنِّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ، لا تَضُرُّهُمْ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّى، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة، (٤/ ١٦٨/ ح:٣٤٤٨)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، (١/ ١٣٥/ ح:٢٤٢)، واللفظ للبخاري، والراوي أبو هريرة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، (١٥/ ١٥٤/ ح:٩٢٧٠)، قال المحققون: حديث صحيح، وأبو داود في «سننه»، المكتبة العصرية - صيدا، بيروت - باب: خروج الدجال، (٤/ ١١٧/ ح:٤٣٢٤)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٦٥١/ ح:٤١٦٣)، قال الذهبي: صحيح، رواه أبو هريرة، والثوب الممصر: المصبوغ بحمرة.

الحقائق العامة والدروس المستفادة من حياة الأنبياء ودعوتهم

أولًا: الحقائق العامة في تاريخ الأنبياء:

ثمة حقائق عامة في حياة الأنبياء ودعوتهم منها:

١ ـ أن تاريخ الأنبياء والرسل هو أثبت الحلقات وأظهرها في صراع الخير مع الشر في التاريخ البشري؛ لأن أخبارهم قُصت لنا بأحسن القصص، ومع بيان أبعادها الجوهرية ومقاصدها الإنسانية، ودروسها التاريخية، من خلال خالقهم والعالم بهم وبأحوالهم ومصائرهم ﷺ، في أوثق وأصدق تاريخ مكتوب ومنشور على مر العصور والدهور، كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود:١٢٠].

٢ ـ أن الله قص علينا خبر بعض أنبيَّائه ورسله دون البعض، وأن عددهم على وجه اليقين لا يعلمه إلا الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر:٧٨].

٣ ـ شملت رسالة الأنبياء والرسل جميع الأمم، فكان لكل أمة نذير من نبي أو رسول، كما أخبر الله ﷻ في مثل قوله:

- ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤].

- و: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٤٧].

- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل:٣٦].

٤ـ أنَّ النَّبيَ من قومه وأخًا لهم، وهم يعرفونه معرفة كاملة، وهو قدوة في كل سلوكيات حياته بينهم، لعل هذا يكون دافعًا ومسوغًا لاتباعه فيما جاء به في الجانب العقدي والجانب العملي، وفي كل نواحي حياتهم؛ كما جاء في قوله ﷻ:

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٠٥-١٠٧].

- و: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٥].

- و: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٤١-١٤٣].

- و: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٦٠-١٦٢].

- و: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ﴾ [المائدة:١٢].

- و: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

- و: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:١، ٢].

٥ ـ أن الرسول نزل بلسان قومه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[إبراهيم:٤].

٦ـ تباينت آراء العلماء حول كون النَّبيّ والرسول بمعنى واحد أو بمعنَيَيْن ـ أي: هل ثمة فرق بين النَّبيّ والرسول؟ ـ وذلك على فريقين؛ حيث يعرّف بعضهم الرسول بأنه من أرسله الله بشرع وأمره بتبليغه، وأن النَّبيّ من أرسله الله بشرع ولم يأمره بتبليغه، كما يضعون تعريفات أخرى للنبي والرسول.

٧ ـ أن تاريخ الأنبياء والرسل اشتمل على عدة موضوعات تختلف طبيعتها، وتتباين آثارها وأبعادها، وتختلف المصادر في معالجة تلك الموضوعات، فبينما نجد المنهج الإسلامي ينتهج نهجًا يُستمد من المنقول، ويتسق مع المعقول، ويعلي للأنبياء والرسل مكانتهم، ويحفظ عليهم عصمتهم، تذهب اتجاهات أخرى إلى عدم اعتبارٍ لتلك الأسس الحاكمة في تاريخ الأنبياء والرسل وسيرهم وأحوالهم . بل إن بعضها يصور بعض هذه الموضوعات ـ وحتى الأحوال العادية ـ في صورة تحكم فيها الخيال الجامح، والهوى الشارد، بعيدًا عن أي اعتبار منطقي أو اتساق عقلي، فضلًا عن الإطار الديني، والتقدير الخلقي والأدبي لأنبياء الله ورسله.

ثانيًا: الأسس المحورية في رسالة الأنبياء والرسل:

وحدة العقيدة:

كانت العقيدة التي دعا إليها الأنبياء والرسل واحدة، وهي وحدة الألوهية، وإفراد الله بالعبودية، والإيمان بالأنبياء والرسل والكتب المنزلة والملائكة ويوم القيامة والحساب والجنة والنار ...إلخ. وهو ما يجمعه دين الإسلام بمعناه العام الذي ارتضاه الله للأنبياء والرسل، بل للعالمين إلى قيام الساعة، كما في:

- قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

- وقوله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣].

- وقول النبيِّ ﷺ: **«الأَنْبِيَاء إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»**[1].

فقد كان إبراهيم وإسماعيل وذريتهما مسلمين، وقالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾[البقرة:١٢٨]، و﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

والإسلام هو دين موسى، وبه آمن سحرة فرعون بعد المناظرة معه، وقالوا لفرعون عندما توعدهم بالقتل والصلب: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب: قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، (٤/ ١٦٧/ ح:٣٤٤٣)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، (٤/ ١٨٣٧/ ح:٢٣٦٥).

لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف:١٢٦]، وهو الدين الذي أمر به موسى عليه السلام قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس:٨٤].

وهو دين سليمان الذي أمر ملكة سبأ وقومها باعتناقه، فكتب لهم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[النمل:٣٠، ٣١]، فجاءوه مسلمين: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[النمل:٤٢].

كذلك كان الإسلام دين عيسى عليه السلام وحواريه، وقد أوحى الله إليهم بذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[المائدة:١١١]، كما أنهم أعلنوا لعيسى عليه السلام ذلك لما أحس الكفر من بعض أصحابه، إذ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالأنبياء إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[1].

اختلاف الشرائع ومضامينها:

أما الشرائع فقد تباين بعضها عن بعض، وذلك حسب طبائع الأمم وأحوالها، وظروف المكان وتغير الزمان، وليس ثمة انفصام بين جانبي الدين ـ العقيدة والشريعة، لا يستقيم أحدهما بدون الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابُ: قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، (٤/ ١٦٧/ ح:٣٤٤٣)، ومسلم في «صحيحه»، دار إحياء التراث العربي، كتاب: الفضائل، بَابُ: فَضَائِلِ عِيسَى عليه السلام، (٤/ ١٨٣٧/ ح:٢٣٦٥)، رواه أبو هريرة، واللفظ للبخاري.

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]، لِلتَّوْرَاةِ شَرِيعَةٌ، وِلِلْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ، وَلِلْقُرْآنِ شَرِيعَةٌ، يُحِلُّ اللهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ بَلَاءً، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ، وَلَكِنَّ الدِّينَ الْوَاحِدَ الذي لَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ الذي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ"[1].

من ثم فقد اشتمل الدين على منهج قويم للشريعة، مثل اشتماله على منهج العقيدة، وتأتي الشريعة دائما في ظل العقيدة وإطارها، وتحكم بأسسها، وتقنن بقواعدها، وكل هذا وليد العبادة الحقة لله؛ والعبادة ممارسة فطرية، ونهج قويم، ومسار مستقيم، وهي تكليف بسيط: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح:٣]. عبادة شعائرية، وتقوى قلبية، وطاعة قولية وفعلية، عبادة تتخلل المرء كله؛ روحه وجسده، فكره وسلوكه، وجدانه ومشاعره، تجعل كل ما يصدر عن هذا المرء يتسق مع الفطرة السليمة والدين القويم، فيكون خيرًا للبلاد وصلاحًا للعباد؛ ومن ذلك:

- **الجانب السياسيُّ**: وهو واحد من الجوانب المهمة في نظام الحياة؛ لأنه - فضلًا عن دوره ووظيفته في الأمة - يؤثر تأثيرًا بالغًا في كل الجوانب الأخرى - تقريبًا - سلبًا أو إيجابًا، وهذا الجانب كان جزءًا أساسًا في شريعة الأنبياء إلى أممهم، فهو النظام الذي يسوسهم - في إطار العقيدة - وكان الأنبياء هم قادة أممهم في هذا الجانب مثل قيادتهم في الجانب الديني، كما جاء في قوله ﷻ:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[سورة ص:٢٦].

(١) الطبري: تفسير الطبري، (٨/ ٤٩٣).

- وقوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[المائدة:٤٤].

- وقوله ﷻ: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[المائدة:٤٧].

- وقوله ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٤٩، ٥٠].

- وبعد أن ذكر الله عددًا من الأنبياء والرسل قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[الأنعام:٨٩].

- وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر في بني إسرائيل حيث قال ﷺ: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبيٌّ، وإنه لا نبيَّ بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون»**، قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: **«فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاها»**[1].

- **الجانب الإصلاحي**: من الجوانب المهمة في رسالة الأنبياء وفي سلوكهم العمليّ مع أقوامهم هو الإصلاح الاجتماعي، ومن أهم قواعد هذا الجانب ومسوغاته:

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، (٢/ ١٠٧٤/ ح:٣٤٥٥) والحديث رواه أبو هريرة.

أ ـ **الإصلاح الاقتصاديّ والاجتماعيّ ومحاربة الفساد**، وهو جانب مهم اشتملت عليه رسالة الأنبياء، فيما يخص الشريعة، وقام به الرسل والأنبياء في أقوامهم وأممهم بصور مختلفة وفي أحوال متباينة، وممن أخبرنا القرآن الكريم بظهور هذا الجانب في رسالته، وعمل على تطبيقه في قومه شعيب عليه السلام؛ فبعد قضية العقيدة أخذ شُعيب عليه السلام يدعو قومه إلى تقويم أمرهم وإصلاح حالهم في تعاملهم مع الناس، لا سيما في الناحية التجارية، فلا ظلم للناس في المكيال والميزان، ولا إفساد في الأرض، كما في قوله تعالى:

- ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥].

- وقوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام، وهو يخاطب قومه: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الشعراء:١٨١-١٨٣]، وهي جوانب اقتصادية واجتماعية، فضلًا عن أبعاد أخرى.

ب ـ **القدوة في الأنبياء والرسل**: فلابد للمصلح أن يكون قدوة في موطن الإصلاح، والأنبياء عليهم السلام كانوا قدوة في كل الخصال الحسنة التي يجب أن يتصف بها البشر، كما أخبر القرآن الكريم في كثيرٍ من المواضع، وقد يتميز بعضهم عن بعض في وصف معين، مثل «الصبر» عند أيوب، وشدة البلاء عند إبراهيم عليهما السلام، ومن تلك المواضع:

- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾[الممتحنة:٤].

- و: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الممتحنة:٦].

- و: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

وقد كان نوح عليه السلام قدوة في الصبر على هداية قومه وصلاح حالهم؛ فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين [٩٥٠] سنة ، وهو يدعوهم بكل وسائل الدعوة، ليلًا ونهارًا.. سرًّا وجهارًا.

كما كان إبراهيم وإسماعيل قدوة في الامتثال لأمر الله وطاعته فيما وصفه الله تعالى بأنه ﴿الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

وكان يوسف عليه السلام قدوة في العفة وضبط النفس ومقاومة كيد النساء، وكان أيوب عليه السلام قدوة في الصبر على البلاء في نفسه وأهله وماله، وكان رسول الله ﷺ قدوة في كل شيء من أمور الدين والدنيا، إلا ما خُص به ﷺ. ومن الأنبياء السابقين من جمع خصال الخير في أمة كاملة مثل إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل:١٢٠].

وسائل الدعـــوة:

سلك الرسل والأنبياء في دعوتهم لأقوامهم أسلوبًا متدرجًا، تمثل في الآتي:

١ـ أسلوب البيان، أي: بيان حقيقة ما عليه أممهم من فساد العقيدة وفساد العمل، وبيان صحة وصلاح العقيدة التي يدعونهم إليها، بما يتوافق مع الفطرة الإنسانية والطبائع البشرية، للوصول إلى صحة عقيدتهم، وصلاح أعمالهم، وتقويم سلوكهم، وإقامة الحجة على ذلك .

٢ـ أسلوب الترغيب، وذلك من خلال بيان صلاح ما يدعونهم إليه من عقيدة وعمل، وملائمة ذلك للفطرة الإنسانية، وما وعدهم الله به ـ حال إيمانهم ـ من صلاح في الدنيا ونعيم في الآخرة.

٣ـ أسلوب الترهيب والوعيد حال صدهم وعدم إيمانهم؛ وذلك بعقابهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة، مدللين على ذلك لهم بمصائر أقوام الأنبياء والرسل السابقين.

ثالثًا: العبرة والدروس المستفادة من حياة الأنبياء ودعوتهم:

من الجوانب المهمة في حياة الأنبياء ودعوتهم العبر والدروس التي قد لا يخلو منها موقف أو موضع في حياتهم ودعوتهم، فضلًا عن أن قصها على النَّبيّ فيه تثبيت لفؤاده، وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠]، ويقول ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ولعل من أهم هذه العبر وتلك الدروس ما يأتي:

١ـ خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم، وفي أجمل صورة للبشر، وخلقه على صورته، وإعداده علميًّا ومعرفيًّا، كما يدل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١]، وكرمه ربُّه وأسجد له ملائكته، وذلك في الجنة، وكلفه تكليفًا هينًا، بأن نهاه عن الأكل من شجرة في الجنة.

٢ ـ أن إبليس تكبر وعصى أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام، وكان من الكافرين،

وأخذ عهدًا على نفسه بإضلال آدم وذريته وغوايتهم، فأغوى آدم حتى عصى أمر ربه وأكل من الشجرة، فأُخرج من الجنة، ثم هو عدو لذريته إلى قيام الساعة.

٣ ـ طول زمن دعوة نوح عليه السلام لقومه، وتعدد وسائلها وأوقاتها، ومع ذلك لم يؤمن به إلا القليل، وممن لم يؤمن به ابن له، وزوجه، وأنه دعا على مَنْ لم يؤمن من قومه لما علم بعدم إيمانهم، وأن بقاءهم إضلال لعباد الله وإنجاب للفجار الكفرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح:٢٦، ٢٧].

٤ ـ رفق وأدب إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه، واستغفاره له.

٥ ـ استخدام الوسائل العقلية والمادية في إبطال معتقدات قوم إبراهيم وأصنامهم.

٦ ـ حفظ الله لنبيه إبراهيم، ونجاته من النار التي ألقي فيها.

٧ ـ انتصار إبراهيم في مناظرته عدو الله بالحجج العقلية.

٨ ـ استجابة الله لإبراهيم بحفظ زوجه وابنه، ومباركة ذريته، والأمان للبلد الحرام، ورزق أهله.

٩ ـ إسماعيل عليه السلام هو صاحب قصة الذبيح والفداء، وليس إسحاق عليه السلام.

١٠ ـ تجديد إبراهيم وإسماعيل للبيت الحرم.

١١ ـ زواج إسماعيل من العرب وبدء العرب المستعربة.

١٢ـ ابتلاء الله لأيوب عليه السلام، وصبره على البلاء، ودعاؤه لربه، واستجابته تعالى لعبده ورسوله وشفاؤه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي

مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾[سورة ص:٤١-٤٤][1].

١٣ ـ ذهاب يونس عليه السلام مغاضبًا لقومه لعدم إيمانهم، وابتلاء الله له بالحوت، وتوبته، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٧، ٨٨][2]، وقد جمعت مناداته لربه توبته وتضرعه وتسبيحه، فيما سماه القرآن: التسبيح، وكان سبب نجاته وخروجه من بطن الحوت، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الصافات:١٤٣، ١٤٤].

١٤ـ مرور حياة يوسف عليه السلام بابتلاءات وبتقلبات شديدة؛ من تآمر إخوته عليه، إلى تربيته في قصر عزيز مصر، إلى ابتلائه بامرأة العزيز وعفته وحفظ الله له، ثم دخوله السجن، ثم رئاسته للاقتصاد والمالية في مصر ، ومن أهم الصفات في تولي المناصب القيادية، الأمانة والخبرة.

١٥ـ طلاقة قدرة الله وإعجازه في نجاة موسى عليه السلام من الذبح، وتربيته في قصر عدوه ـ فرعون ـ وإهلاك فرعون على يد موسى.

١٦ـ قوة وصلابة إيمان مَنْ آمن من قوم فرعون من السحرة، ومن كان يكتم إيمانه، وامرأته، وماشطة بنته؛ لشدة عذاب فرعون لبعضهم وقتلهم .

---

(١) وهذان هما الموضعان اللذان ذكرت فيهما قصة أيوب عليه السلام في القرآن الكريم

(٢) قال ابن كثير: وَاخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ مَا لَبِثَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، فَقِيلَ: ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَقِيلَ جُمْعَة، وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، (تفسير ابن كثير، ٧/ ٣٨)، لكن لم تثبت بذلك رواية صحيحة.

١٧ـ شدة حياء المرأتين اللتين سقى لهما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختياره زوجًا لمروءته وشهامته، على الرغم من تجرده من كل شيء، وكونه غريبًا .

١٨ـ سند أخوة النسب، وما تحدثه من شد الأزر، وقوة الرابطة، كما كان بين موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

١٩ـ استكبار فرعون وهامان وجنودهما، وعقاب الله لهم بالغرق، وجعل فرعون آية للناس: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[القصص:٣٩].

٢٠ـ شدة تمرد بني إسرائيل، وكفر الكثير منهم .

٢١ ـ في قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ الحث على عدم المفاخرة بما لدى الإنسان من العلم، وأن هناك من العلم ما لا يستطيع الإنسان تحمله، وأن الله قد يودع علمه فيمن لا يعرفه النَّاس، أو يظنون أنه على غير علم، وأن العلم اللدني غير العلم المكتسب والمحصل بسعي الإنسان .

٢٢ـ وفي قصة موسى والخضر ـ أيضا ـ الرضا والتسليم والصبر بكل ما يقدره الله، حتى وإن ثقل على الإنسان تحمله ولم يدرك حكمته.

٢٣ـ ومن عبر ودروس قصة قارون: التواضع مع النعم، وإسنادها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعدم تزكية النفوس، فقد قال قارون لَما آتاه الله من النعم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص:٧٨]، فخسف الله به وبداره الأرض.

٢٤ـ ومن دروس قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أن عبادته في الصلاة والصوم أحب العبادات إلى الله، كما قال النَّبيّ ﷺ : «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إلى اللهِ صَلاَةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ

وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ»[1]، وقد أوصى ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بصوم داود، فقال له: «فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نبيِّ اللهِ عليه السلام، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ» فقَالَ: يَا نبيَّ اللهِ، وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟ قَالَ: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[2]، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ دَاوُدَ قَالَ: «كَانَ أَعْبَدَ الْبَشَرِ»[3]، أي: في زمانه.

٢٥ ـ وفي قصة لقمان يتجلى قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦٩]؛ فهو رجل بسيط، وصف بأنه عبد حبشي، وأنه كان نجارًا، وقد آتاه الله الحكمة، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[لقمان:١٢]، وقد سجل لنا القرآن الكريم بعض حكمه ووصاياه في الإيمان والتواضع وعدم التكبر وعزة النفس، وغيرها .

٢٦ـ ومن دروس قصة سليمان عليه السلام، أنه كان نبيًّا وملكًا، وكان جيشه أقوى الجيوش بتنوعه من الإنسان، والرياح، والطيور، وبعض الكائنات .

٢٧ ـ أن سليمان دعا الله أن يعطيه مُلْكًا لا يكون لأحد من بعده، فأعطاه.

٢٨ـ مما منحه الله ﷻ لنبيه سليمان تسخير الشياطين له؛ فكانوا يأتمرون بأمره، ويعملون له ما يشاء، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾

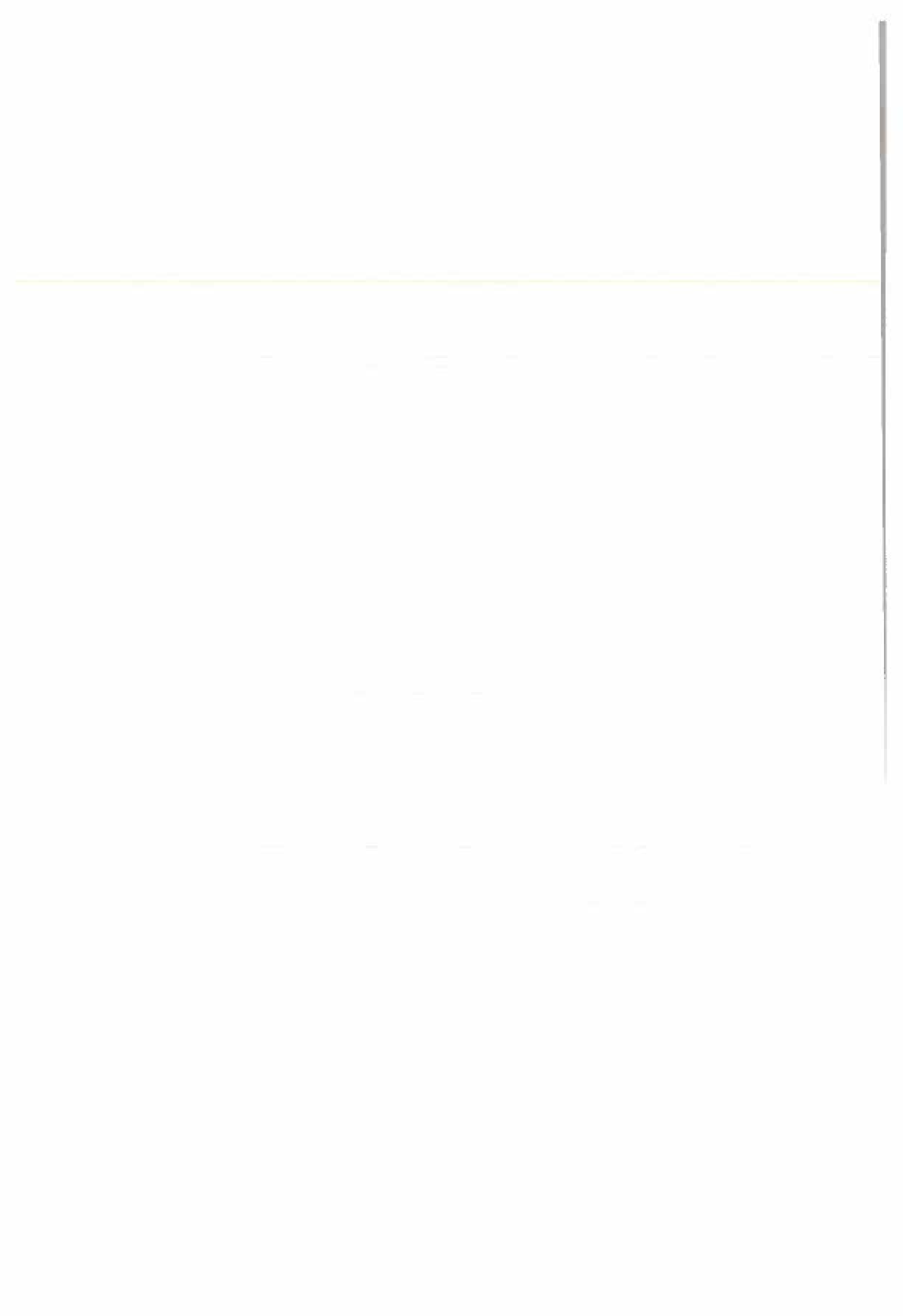
[سورة ص:٣٦-٣٨].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، بَابٌ: أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللهِ صَلاَةُ دَاوُدَ، (٤/ ١٦١/ ح:٣٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب: الصيام، بَابُ: النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ لِمَنْ تَضَرَّرَ بِهِ أَوْ فَوَّتَ بِهِ حَقًّا أَوْ لَمْ يُفْطِرِ الْعِيدَيْنِ وَالتَّشْرِيقَ، وَبَيَانِ تَفْضِيلِ صَوْمِ يَوْمٍ، وَإِفْطَارِ يَوْمٍ، (٢/ ٨١٣/ ح:١١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير»، (١/ ٨٩/ ح:٢٤٨)، والترمذي في «سننه»، (٥/ ٤٠٠/ ح:٣٤٩٠)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.



المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

- العهد القديم .
- التوراة السامرية .
- العهد الجديد .
- إنجيل برنابا .

• ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم [ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م]:
ـ الكامل في التاريخ، ط دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

• أحمد بن حنبل [ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م]:
ـ الزهد، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .
ـ المسند، تحقيق: شُعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

• الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني [ت١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م]:
ـ روح المعاني، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ بدون تاريخ الطبع .

• البخاري، محمد بن إسماعيل ت [٢٥٦هـ/ ٨٧٠م]:
ـ التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ـ الدكن ـ من دون تاريخ الطبع.
ـ صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

• البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو [ت: ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م]:
ـ مسند البزار «البحر الزخار»، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ ط١ ١٩٨٨م .

• الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة [ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م]:

- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٨م.

• الجاحظ، عمرو بن بحر [ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م]:
- البيان والتبيين، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب - بيروت - ط١ ١٩٦٨م.

• ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحيم بن أبى الحسن [ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م]:
- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، مكتبة الآداب - القاهرة - من دون تاريخ الطبع.

• الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد [ت ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م]:
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت - ط٤ ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

• ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد [ت٣٢٧هـ]:
- تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية - ط٣ ١٤١٩هـ.

• الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله [ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م]:
- المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

• ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد البستي [ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م]:
- صحيح ابن حبان، تحقيق: شُعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

• ابن حجر العسقلاني، أحمد بن على بن محمد [ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م]:
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت - ١٣٧٩ م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد [ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م]:
  - المقدمة، دار الجيل - بيروت.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن [ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩م]:
  - سنن الدارمي، تحقيق: نبيل هاشم الغمري، دار البشائر - بيروت - ط١ ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني [ت ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨م]:
  - سنن أبي داود، المكتبة العصرية - صيدا ، بيروت.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان [ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م]:
  - تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي - بيروت - ط٢ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر [ت٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م]:
  - مختار الصحاح، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط٥ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن التيمي [٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م]:
  - مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٣ ١٤٢٠هـ .
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع [ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م]:
  - الطبقات الكبرى، دار صادر - بيروت - ط١ ١٩٦٨ م.
- أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى [ت٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م]:
  - التفسير، دار إحياء التراث - بيروت - من دون تاريخ الطبع.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر[ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م]:
  - التوشيح شرح الجامع الصحيح، تحقيق: رضوان جامع رضوان - الرياض - ط١ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد [ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م]:

- فتح القدير: دار ابن كثير، دمشق، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١ ١٤١٤هـ

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد العبسي [ت ٢٣٥ هـ/ ٨٤٩م]:

- المصنف، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض - ط١ ١٤٠٩هـ.

- الطبراني، سليمان بن أحمد اللخمي الشامي [ت ٣٦٠هـ/ ٩٧١م]:

- المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار الحرمين - القاهرة.

- المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ت [٣١٠هـ/ ٩٢٢م]:

- تاريخ الطبري، دار التراث - بيروت - ط٢ ١٣٨٧.

- تفسير الطبري، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر - السعودية - ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

- ابن عساكر، أبو القاسم على بن الحسن [ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م]:

- تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر - بيروت - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى [ت٥٤٤هـ/ ١١٥٠م]:

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم [المتوفي: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م]:

- المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ط٢ ١٩٩٢م.

- ابن قدامة المقدسي، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد [ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م]:

- الرقة والبكاء، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار القلم - دمشق - الدار الشامية - بيروت - ط١ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي [ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م]:
  - تفسير القرطبي، دار الشعب - القاهرة - من دون تاريخ الطبع .
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود [ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م]:
  - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت - بدون تاريخ الطبع .
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد [ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م]:
  - تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر - دمشق - ط١ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر [٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م]:
  - البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر - السعودية - ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
  - تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .
- مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر [ت ١٠٤هـ/ ٧٢٢م]:
  - تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة - مصر - ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م .
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين [ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م]:
  - مروج الذهب، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة الإسلامية - بيروت - من دون تاريخ الطبع.
- مسلم، ابن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري [ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م]:
  - صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المقدسي، المطهر بن طاهر [ت ٣٥٥ هـ/ ٩٦٦م]:
  - البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية - مصر.

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري [ت ٧١١ هـ/ ١٣١١م]:
  - لسان العرب، دار صادر - بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- النسائي، أحمد بن شُعيب بن علي الخراساني [ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م]:
  - السنن الكبرى، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ ٢٠٠١م .
  - السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، وآخر، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .
- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبى بكر [ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م]:
  - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر - بيروت - ١٤١٢ هـ .
- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي [ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م]:
  - معجم البلدان، دار صادر - بيروت - ١٩٩٥م.
- أبو يعلى: أبو يعلى أحمد بن على التميمي [ت٣٠٧ هـ/ ٩١٩م]:
  - المسند، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر [ت ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥م]:
  - تاريخ اليعقوبي، دار صادر - بيروت.

ثانيًا: المراجع:

- أحمد عبد الحميد يوسف:
  - مصر في القرآن والسنة، دار المعارف - القاهرة - ط٣، ١٩٩١م.
- جواد عليّ:
  - المفصل في تاريخ العرب ، دار الساقي، ط٤ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م.
- الشعراوي، محمد متولي:
  - تفسير الشعراوي، مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة - ١٩٩٧م.
  - قصص الأنبياء، مكتبة التراث الإسلامي - مصر - ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

- عباس العقاد:

ـ حياة المسيح، دار الهلال [كتاب الهلال] ، عدد [٢٠٢] يناير ١٩٨٦م.

- عبد الفتاح أحمد الفاوي:

ـ المسيحية بين العقل والنقل، المطبعة الإسلامية الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٩٢م.

- عبد الكريم زيدان:

ـ المستفاد ـ عن قصص القرآن للدعوة والدعاة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- عبد الوهاب النجار:

ـ قصص الأنبياء، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- عز الدين بليق:

ـ نبوة آدم ورسالته بين الظنة واليقين، دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- مارتن فان كريفلد:

ـ حرب المستقبل، تحقيق السيد عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

- محمد أبو زهرة:

ـ محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦١م.

- محمد بيومي مهران:

ـ دراسات تاريخية [٢] مصر، دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ـ ١٩٩٥م.

ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم [في بلاد العرب] دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ـ ١٩٩٥م.

- محمد الطيب النجار:

ـ تاريخ الأنبياء تاريخ الأنبياء، من دون بيانات الطبع .

- محمد عبد الله دراز:

ـ الدين، دار القلم ـ الكويت.

- محمد الغزالي:

ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية، دار الريان للتراث ـ القاهرة ـ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- محمود عبده:

ـ أسس تفسير التاريخ في القرآن الكريم، دكتوراه، قسم التاريخ والحضارة ـ كلية اللغة العربية بأسيوط، ٢٠٠٣م.

- محمود علي حماية:

ـ ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٨٣م .

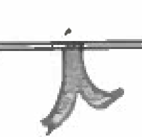
- هيجل:

ـ محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م.

الفهرست



Azhar.press@yahoo.com





إن مجمع البحوث الإسلامية هو أحد الهيئات العلميَّة للأزهر الشريف يقوم على تحقيق كل ما يخدم المصلحة العامة للمسلمين، ويجمع كلمتهم، ويعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، والتعايش السلمي، كما يعمل المجمع على تحقيق رسالة الأزهر في توعية الناس وتبصيرهم بحقائق هذا الدين، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، وبيان سماحة ووسطية الإسلام، وأهمية فهم النصوص الشرعية مع فهم الواقع.

ومن هنا تأتي رؤية المجمع في اعتنائه بقضايا المجتمع الإسلامي؛ لجمع الكلمة بين المسلمين، وتحقيق التعايش السلمي بين الناس، وتجديد الثقافة الإسلامية وتجليتها في جوهرها الأصيل، وبحث القضايا المعاصرة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

مطابع الأزهر
AL-AZHAR PRESSES